غرام الأفاعي

تأليف

د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

غَرَامُ الأَفَاعِي

كانت شمس أواخر يوليو تفترش حديقة كلية الصيدلة بالقيظ ، ووجوه الطلبة والطالبات بالعرق . ولم تخفف الشجيرات الصغيرة من حدتها التى سرت فى الظل عبر ممرات المبنى وحجراته . ومع ذلك كان عدد الطلبة والطالبات يزيد على عددهم فى أيام الدراسة العادية . فاليوم هو موعد ظهور نتيجة البكالوريوس التى كانت توقعاتها على الألسنة وفى العيون مع بعض التعليقات المتوترة والضحكات المتشنجة العابرة بين الجماعات المتناثرة حول الشجيرات وعند المدخل وداخل الممر الرئيسى .

فى ركن قصىّ من الحديقة سارت مهجة مع وجدى وبعض العيون ترقبهما عن بعد . لمعت الغيرة فى عيون طالبين من زميلهما الفقير الذى استولى على قلب مهجة الفاتنة الجميلة الثرية الأرستقراطية طوال السنوات التى أتت إلى نهايتها اليوم ، والتى لا بد أن تكون خاتمتها الزواج ، فمعظم الزملاء لا يشكون كثيرا فى المدى الذى بلغاه فى علاقتهما . ولولا مساعدة وجدى المتفوق دائما لمهجة لكانت الآن فى السنة الثانية على أكثر تقدير . ذلك أن إقبالها على الحياة يكاد يقضى تماما على إقبالها على الدراسة .

كانت مهجة ترتدى فستانا أحمر يزداد توهجا بامتزاجه بحمرة بشرتها المرمرية ، فى حين تناثرت خصلات شعرها حول رقبتها وعلى كتفيها وهى تتماوج بين اللونين الأصفر الذهبى والبنّى اللامع . كذلك تكرر الذهب فى حذائها ذى الكعب العالى ، والحزام الذى يحتوى خصرها النحيل ،

والحقيبة الصغيرة التى تتدلى من كتفها متأرجحة فى دلال ومجون . أما جسمها الذى أعلن عن منحنياته تحت نسيج الفستان الرقيق المسترخى فوقه ، فكان ملتقى العيون حيثما حل . فالنهدان بارزان كقمتى بركانين خامدين على وشك إطلاق حممهما إلى عنان السماء ، والعينان واسعتان كبحيرتين بلوريتين تعلوهما دائرتان لامعتان من اللون البنى الفاتح ، والوجنة اليسرى تحمل غمازة يزداد عمقها مع كل ابتسامة .

أما وجدى السائر إلى جوارها يكاد ينحنى عليها ، فعلى النقيض منها تماما . سمرته تصل إلى حد السواد الداكن ، وشعره أشعث أكرت قصير ، وشفتاه مكتنزتان توحيان بأصداء من أعماق أفريقيا الساخنة . ملابسه متواضعة لكنها تخفى رجولة متكاملة واعتدادا بالغا بالذات . مسحة من التراب الخفيف تغلف وجهه وشعره وتخفى أى لون محدد لقميصه وبنطلونه وحذائه . لكن قوامه السمهرى النحيف الطويل منح مظهره نوعا من الأنفة والكبرياء برغم رونق الفاتنة المتألقة إلى جواره .

أخرجت مهجة منديلا صغيرا من حقيبتها مسحت به عرق جبهتها ففاح عطره الأخاذ وهى تقول له :

ـــ الجميع يقولون إنك ستحصل كالمعتاد على تقدير امتياز ، وسوف تعيَّن معيدا !

نظر وجدى عبر المدخل المظلم للكلية :

ـــ ألا ترين أن دفعتنا خالية من أى زميل أو زميلة لهما صلةقرابة بأى أستاذ فى الكلية ؟!

ـــ وما علاقة هذا بك ؟!

ـــ إذا كان مقدرا لى أن أكون الأول .. وجاء بعدى فى الترتيب أحد الزملاء من أقرباء أحد الأساتذة .. فلا بد أن أعيَّن معيدًا معه !

ــ لا يعقل أن يصرفوا النظر عن طالب حصل على تقدير امتياز طوال سنوات الدراسة ؟!

ــ علمتنى الحياة أن كل شىء معقول فى هذا الزمن الغريب !

سارا معا إلى حيث وقفا تحت ظلال شجيرة نائية :

ــ لا تكن متشائما إلى هذا الحد .. فقد كلَّل الله أخيرا كفاحك بالنجاح .. أما أنا فيكفينى تقدير مقبول الذى صادقته منذ دخولى الكلية !!

قالتهــا مهجــة وهى تضحك محاولة التسرية عنه ، لكنه لم يتخل عن جديته :

ــ الذين ولدوا وفى فمهم ملعقة ذهب .. لا يجدون فرقًا حقيقيًّا بين تقدير مقبول وتقدير امتياز .. بل وبين الرسوب والنجاح ..

ــ لكننى سأفخر بك أمام عائلتى عندما أقدمك بصفتك أحد نوابغ الصيدلة والكيمياء !!

ــ حتى لو كنت مفلسًا لا أملك من حطام الدنيا شيئًا ؟!

ابتسمت مهجة فى دلال أنثوى بالغ :

ــ يكفى أنك تملكنى ؟!

افتر فمه عن شبح ابتسامة متسائلة :

ــ وماذا عن قريبك الذى سيتقدم هذا المساء لخطبتك ؟!

ــ القرار قرارى ولن أتزوج إلا من الرجل الذى سأختاره بنفسى !

انطلق هرج ومرج من مدخل الكلية فى حين انسابت الجماعات المتناثرة لتصب فى مجرى تدفق صوب المدخل ، وفى لحظات تكالب الجميع أمام قوائم الأسماء التى علِّقت على الجدار . جرت عينا وجدى على كشف الطلبة الحاصلين على تقدير امتياز فلم يجد سوى اسمه

بحث بعينيه عن مهجة فرآها تلهث أمام أحد الكشوف وفى مواجهة ضغط المتكالبين عليه . نظرت إلى أعلى فرأت وجدى بقامته الممشوقة يطل عليها فى قلق ، ابتسمت صائحة وسط الضجيج المحيط بها :

— مقبول كالعادة !

مد وجدى يده وجذبها خارج الأجساد المتلاحمة والمتصببة عرقا ، والعيون الجاحظة الحائرة فى مسحها للقوائم . وبمجرد أن ابتعدا عن المعمعان قال لها فى وقار لم يهزه النجاح :

— لم أجد أحدا معى فى كشف الامتياز !

شدَّت مهجة على يده بعاطفة مشبوبة ، وتمنَّت لو قبَّلته أمام الجميع . فمن حقِّها اليوم أن تفخر أمام عائلتها بأن أول الدفعة ودكتور المستقبل سيتقدم لطلب يدها . إن التقاليد الاجتماعية والفوارق الطبقية لا يمكن أن تصمد طويلا أمام زحف النجاح والتفوُّق والطموح . سكبت من عينيها نهرًا من الوجد والحب فى عينيه الحادتين :

— إن الفرحة هذه المرة فرحتان !

— أرجو أن تتاح لى فرصة التعيين بالكلية .. فهى الطريقة الوحيدة لتضييق الفجوة بينى وبين أسرتك !

— إننى لا أشك فى هذا ! فليس هناك من حصل على الامتياز سواك !

— لكننى لست محسوبًا لواحد من ذوى الحيثيات !

كانا قد اقتربا من البوابة الحديدية للكلية عندما استدارت مهجة بطريقة مفاجئة أدهشت وجدى :

— على كل حال .. المياه تكذب الغطاس .. لقد رأيت العميد وهو يدخل مكتبه .. يمكنك مقابلته والتأكد من كل شيء .. فلن يجد خريجًا مكافحًا متفوقًا يفخر به مثلك !

ـــ إننى لم أقابل أى مسئول فى الكلية من قبل !
ـــ يجب أن يحل الفخر محل الخجل عندك !
ـــ لست خجلا .. ويمكننى أن أثبت لك هذا الآن !
ـــ إذًا .. فيم الانتظار ؟!

جذبته من يده تجاه المدخل مرة أخرى ، لكنهما أسرعا متفاديين الجمع الغفير حول النتيجة ، ثم صعدا السلم إلى الدور الثانى حيث غرفة العميد . وقفت مهجة بالقرب من السور الرخامى ، فى حين قدَّم وجدى قدمًا وأخَّر أخرى إلى أن واجه ساعى العميد الجالس على مقعده إلى جوار الباب وقد غلبه النعاس والعرق . قال وجدى بصوت هادىء خفيض :

ـــ أريد مقابلة الدكتور العميد !

رفع الساعى جفنيه متسائلا فى اقتضاب :

ـــ لماذا ؟!
ـــ أنا أول دفعة البكالوريوس ..

وقبل أن يكمل وجدى كلماته المتقطعة ، نهض الساعى وقد اختطف يده يشدها فى حرارة :

ـــ ألف مبروك !! ألف مبروك !!

ذهل وجدى ولكنه أدرك فى الحال ما يهدف إليه الساعى . أخرج من جيبه ما طالته يده فاكتشف أنها ورقة من فئة الخمسة والعشرين قرشا ، لكنه لم يتراجع ودسها فى يده التى اختفت فى جيبه قائلا :

ـــ لحظة واحدة !

فتح باب الغرفة واختفى داخلها وبعد لحظات خرج سعيدا مبتسما فى حين كانت مهجة ترقب الموقف :

ـــ تفضل .. حضرة العميد لا يردّ لى طلبا !

وجد وجدى قدميه تقودانه إلى داخل الغرفة فى حين أغلق الساعى الباب خلفه وهو ينظر باهتمام بالغ إلى مهجة التى تحاشت نظراته ، لكنه ذهب إليها وفرض نفسه عليها بالسؤال :

ـــ يبدو أنك أتيت معه ؟! ويبدو أيضا أنك نجحت مثله ؟!

لم تستطع مهجة أن تمنع ابتسامتها :

ـــ لكننى نجحت بتقدير مقبول !

ـــ البكالوريوس واحد فى النهاية .. وأحيانا يجعل تقدير مقبول القبول فى وجه صاحبه فى حين قد يعجز صاحب الامتياز عن الحصول على وظيفة !

انتابت مهجة قشعريرة عابرة من التشاؤم لكنها تغلبت عليها بأن أخرجت جنيها من حقيبتها الذهبية الصغيرة ، سرعان ما التقطه الساعى وهو يبتسم ويدعو لها بالتوفيق ، ثم عاد أدراجه إلى مقعده .

نظرت مهجة فى ساعتها ، وذرعت الممر جيئة وذهابا عدة مرات إلى أن سمعت صوت الباب يفتح ويخرج منه وجدى الذى نضح وجهه بنظرات لا تمت إلى أول الدفعة بصلة . سار تجاه مهجة التى أسرعت إليه :

ـــ خيرا ؟!

أشاح بوجهه فى يأس :

ـــ كما قلت لك تماما !!

هبطا السلم والقلق المتسائل يقتلها :

ـــ ماذا تقصد ؟!

ـــ كان العميد يجلس مع بعض الأساتذة .. رحَّب بى وهنأنى .. سعدت للغاية .. لكننى عندما سألته عن احتمال تعيينى معيدا .. مط شفتيه معلنا عن شكِّه العميق فى هذا .. بحجة أن الكلية هذا العام ليست

فى حاجة إلى معيدين بعد أن عيَّنت خمسة منهم فى العام الماضى .

كان وجدى على وشك أن يتعثر فى إحدى درجات السلم ، لكنه سرعان ما أمسك بالسور من اليمين وبمهجة من اليسار . استمرت فى تساؤلها :

ــ وما ذنبك أنت ؟!

ــ لا يوجد من تقولين له هذا الكلام .. هذه الأمور فى بلادنا كالقدر تماما .. عندما تحدث فلا راد لها ولا رأى لنا فيها ..

ــ لم أعهد فيك هذا الاستسلام من قبل !!

ــ علمتنى الحياة ألَّا أنطح الصخر .. وعلى الإنسان أن يجرِّب كل البدائل الممكنة حتى لا يكسر قرونه !

ــ هل فى ذهنك مثل هذه البدائل الآن ؟!

ــ لا .. لكن علىَّ أن أبتكر الأسلحة التى سأدافع بها عن نفسى فى مواجهة أسلحة المجتمع الفتاكة ..

بلغا البوابة الحديدية فتوقفت مهجة :

ــ ومع ذلك سأخبر أسرتى بأنك ستعين معيدا مع بداية العام الجامعى الجديد .. لا أحد يعرف ما الذى سيأتى به المستقبل !

وقعت عيناه على مجلة الحائط المعلقة على جدار الحديقة داخل إطار زجاجى ، وقد كتب عنوانها على رسم يمثل الأفعى وقد التفت حول كأس تقطر فيه سمها ، فسألته مهجة :

ــ فيم شردت ؟!

ــ أبدا .. كانت كلمات العميد قطرات سم فى أذنى !

ابتسمت ضاحكة فى محاولة للتسرية عنه :

ــ لا تنس أن السموم جزء خطير لا يستهان به فى الصيدلة !

سارت عبر البوابة الحديدية فرافقها حتى باب سيارتها الصفراء الفاخرة . جلست أمام عجلة القيادة وإلى جوارها نظر وجدى عبر الزجاج الأمامى . أدارت المحرك ومعه جهاز التكييف الذى سرى بالبرودة داخل العربة المغلقة . انطلقت بالسيارة وسط صفوف العربات ، وأدارت المسجِّل بموسيقى خفيفة صادحة لكن وجدى أسكته متسائلا :

ــ وماذا لو أصرَّت عائلتك على رفضى ؟!

ــ القرار قرارى .. كما أن حلمى يؤيدنى تماما بعد أن قصصت عليه حكايتنا ..

نظر إليها وجدى فى دهشة :

ــ هل يعرف عنا كل شىء ؟!

ضحكت مهجة فى دلال أنثوى متفجر :

ــ الجانب الرومانسى فقط !

ــ لا أعتقد أن رأى حلمى سيكون له وزن كبير برغم أنه أخوك الكبير .. فأبوك يعتبره مجرد شاعر فاشل لا يثق أحد فى شطحاته !

ــ ولو .. سأقاتل حتى النهاية .. فأنت تعلم تماما أننى لا أستطيع العيش لحظة بدونك!!

برز على وجهه مزيج من الثقة والإعجاب بالذات :

ــ لكنك لا تستطيعين العيش بدون المستوى الراقى الذى تعوَّدت عليه منذ أن رأيت الدنيا ؟!

ــ وجودك فى حياتى أهم من أى اعتبار آخر !

توقعت مهجة أن يتكثف مزيج الثقة والإعجاب بالذات على وجهه لكنها رأت مسحة من الكآبة والإحباط والعناد الغامض :

ــ الحياة ليست بالبساطة التى تتصورينها !

انطلقت السيارة عبر ميدان التحرير ثم انحرفت يسارا لتعبر كوبرى قصر النيل ثم كوبرى الجلاء ، ويمينا بحذاء النيل . رأت مهجة بعض الشباب الذى يتدرب على التجديف العنيف :

ــ أنا على استعداد للسباحة ضد التيار حتى النهاية !!

ــ لا داعى لاستباق الأحداث .. فلنحسم هذا الموضوع بعد لقائك مع عريس اليوم .. لكن كل ما أرجوه ألا تذكرى اسمى أمام عائلتك إلَّا إذا وافقت علىَّ !!

كانت مهجة قد توقفت فى إشارة المرور المؤدية إلى حى العجوزة :

ــ ولماذا لا أذكر اسمك ؟!

ــ لا داعى لمزيد من الإذلال إذا تم الرفض ! فمواصفات الإنسان فى نظر الآخرين أهم من اسمه !

لم تفهم مهجة ما يعنيه تماما لكنها لم تهتم كثيرا . انطلقت السيارة إلى أقرب نقطة من مسكن وجدى حيث يقطن فى شقة متواضعة فى بولاق الدكرور ، تطل على قضبان القطارات القادمة من القاهرة فى طريقها إلى أسوان أو العكس . وكانت مهجة فى بدء علاقتها بوجدى غير قادرة على احتمال الضجيج والتراب كلما ترددت على شقته فى الأوقات التى لا يحتمل أن يراها فيها أحد ، لكن مع مرور الأيام أصبحت النشوة تجتاحها كلما لامس أذنها ضجيج عجلات القطار فوق القضبان ، وداعب أنفها التراب الذى يغلف الحى كله بغلالة رقيقة لا تنقشع .

وقفت السيارة إلى جوار الطوار الموازى للجانب الآخر من القضبان . قبل أن يفتح وجدى الباب سألها وهو يمسك يدها فى حنان دافق :

ــ متى سأراك ؟!

ــ غدا .. صباحا .. سأكون هنا فى تمام العاشرة .. ادع لى من صميم

قلبك أن يوفقنا الله !!

نظر إلى وجهها المرمرى المشع بالحمرة مركزا عينيه الحادتين :

ـــ ولماذا لا أنتظرك فى شقتى مساء ؟!

ـــ إننى أموت شوقا إليك .. لكننى لن أستطيع الانتظار حتى المساء .. فالليلة سأمر بامتحان أكثر خطورة من البكالوريوس !

رد فى اقتضاب وهو يفتح الباب هابطا :

ـــ وهو كذلك .. غدا .. هنا .. العاشرة صباحا !

أرسلت إليه قبلة فى الهواء لكنها كانت مشحونة بطاقة أنثوية متفجرة . اكتفى بابتسامة مشعة من عينيه وأغلق الباب ملوِّحًا بيده . لوَّحت بدورها وانطلقت إلى شارع نادى الصيد حيث تقطن .

عبر وجدى القضبان الحديدية فى طريقه المترب إلى شقته ، لكنه تذكر أن عليه شراء ما يمكن طهيه أو أكله ، فعاد أدراجه ، وبدلا من أن يمر بالسوق ، عبر القضبان ثم سار بحذائها غير عابىء بالقيظ حتى بلغ نهاية شارع بين السرايات الذى انحرف منه إلى اليسار ليصعد سلم عمارة عريقة لكن متينة . أمام باب شقة فى الطابق الثالث ، ضغط على الجرس ثلاث مرات . فتحت الشراعة وظهر وجه خمرى تحوَّل تساؤله إلى ابتسامة عريضة :

ـــ أهلا .. هذه المرة .. العنوان صحيح !!

ابتسم وجدى سعيدا وهو يدخل من الباب الذى فتح وأغلق خلفه . قبَّل صاحبة الوجه الخمرى والقوام الممتلىء قبلة خاطفة فى وجنتها :

ـــ لم أستطع أن أبتعد عنك يا خيرية أكثر من يومين !

ابتعدت عنه فى دلال عبَّر عنه اهتزاز ردفيها ونهديها وهى تهرع إلى الكرسى الأسيوطى القابع فى الركن لتجلس عليه وتترك قميصها الأبيض

الشفاف ينم عن منحنياتها الخمرية الساخنة :
ــ طبعا نجحت وتفوقت كعادتك ؟!
ــ لكننى لن أعيَّن معيدا .. فقد اكتفوا هذا العام بالمعيدين الخمسة الذين عيِّنوا فى العام الماضى !
ــ قلت لك إن افتتاح صيدلية سيدر عليك أضعاف ما يمكن أن تحصل عليه كأستاذ فى كلية الصيدلة !
ــ ومن أين لى الحصول على الآلاف المؤلفة اللازمة لهذا المشروع ؟
قالها وجدى وذهب ليجلس على الذراع اليمنى للكرسى الأسيوطى وليحتوى كتفى خيرية العاريتين بذراعه اليسرى . نظرت إلى أعلى حيث عيناه الحادتان المشعتان .
ــ يمكنك العودة للعمل فى صيدلية خالى المسنّ المريض .. فهى قريبة من بيتك .. ولن تجد من يشرف عليها بعد وفاته .. ومن ناحيتى سأحاول ليجعلك شريكًا معه تمهيدا لملكيتك لها ..
ربت على كتفيها ومسحهما فى حنان بالغ :
ــ لا تنسى تجربتى الفاشلة معه .. كان يقتطع أجرى الهزيل من جلده .. مقابل عملى طوال اليوم فى الصيدلية .. ولولا هروبى بجلدى منه لكنت قد تعثرت فى دراستى .. والبركة فيك طبعا .. بدونك لم أكن أستطيع أن أواصل دراستى !
انحنى وقبَّل رأسها ففاحت فى أنفه رائحة الزيت المعطر الذى دهنت به شعرها الأسود الطويل . ربتت على ركبته الملاصقة لنهدها :
ــ لن أنسى أنك آنست وحشتى منذ وفاة المرحوم .. ووقفت بجوارى لدرجة أننى لا يمكن الآن أن أتصور الدنيا بدونك !!
رفع وجهها إلى وجهه وأطبق على شفتيها المكتنزتين الساخنتين حتى

شعر بلعابها الساخن فى حلقها . فتح عينيه فوجد عينيها مطبقتين على نشوة الأعوام الأربعة الماضية . غادر شفتيها فى رقة فنظرت إليه حالمة :

ـــ إن ثمنك فى سوق النساء لا يقدَّر بمال .. لدرجة أننى بدأت فى التفكير جديا فى الزواج منك !

أصابت وجدى صاعقة داخلية ، لكنه تماسك وابتسم :

ـــ ومعاش زوجك الضخم ؟!

ـــ إن الأيام تمضى كلمح البصر .. وسرعان ما سيأتى اليوم الذى أجد نفسى فيه عجوزًا وحيدة .. وأنا التى كنت أعيب على زوجى أنه يكبرنى بعشرين عاما .. ولولا وظيفته كرئيس لمجلس إدارة وعمارته هذه التى ورثتها عنه لما ضغطت أسرتى علىَّ للزواج منه !!

نظر وجدى من أعلى فوجد مفرق نهديها عميقا غائرا مظلما :

ـــ لكن دخلك من العمارة لن يكفيك .. فالعمارة قديمة والحكومة خفضت الإيجار أكثر من مرة !

شعر بحركة كتفيها وهى تتململ فى مقعدها :

ـــ إن المال ليس كل شىء فى الحياة !

ـــ تقولين هكذا لأنك لم تجربى مرارة الحاجة فى حياتك !

رفعت ذراعه من على كتفيها وتساءلت :

ـــ هل يعنى هذا اللف والدوران أنك ترفض الزواج منى ؟!

لم يتوقع وجدى أن يجد نفسه فى مواجهة مباشرة مع هذه الحقيقة ، لكنه تفادى الصدام كعادته :

ـــ لم أقصد هذا .. وإنما قصدت أنه من الصعب على ا لإنسان أن يتنازل عن مستوى معيشة اعتاده من قبل !

ـــ لقد تخرجت الآن .. وعليك بالكسب والعمل .. ومن دخلك

ودخلى يمكننا العيش فى بحبوحة !

تحسس وجدى كلماته ثم أخرجها هادئة رزينة متسائلة فى حنان :

ـــ وماذا عن كلام الناس عندما تتزوجين من يصغرك بأكثر من عشر سنوات ؟!

نظرت إليه متنمرة بعينين واسعتين تلاشت منهما النشوة :

ـــ لو كنت أضع كلام الناس فى الاعتبار لما تركتك تتردد على شقتى طوال السنوات الأربع الماضية .. وأنت أدرى بالمآزق والمخاطر التى كان يمكن أن أتورط فيها لو هبط علينا أحد أقربائى أثناء وجودك معى !!

ابتسم وجدى محاولا التخفيف من حدة الموقف . أحاط كتفيها مرة أخرى بذراعه :

ـــ إن الشفرة التى اتفقنا عليها لم تترك فرصة لوقوع مثل هذه المآزق والمخاطر ! كما أن سلم الخدم قام بدور لا ينكر !!

ـــ لكن الإحساس بالتهديد ظل يطاردنى .. آخر مرة أتيت فيها كانت ابنة خالتى فى زيارتى .. واضطررت إلى الاعتذار لك بأن العنوان خطأ .. لكنها كانت تجلس مكانى هذا وتنظر إلىَّ نظرات غير مريحة !!

ـــ لكنها لم تشك فى أى شىء !!

ـــ لم أعد واثقة من أى شىء !!

ربت على كتفيها مطمئنا :

ـــ فلنترك هذا الموضوع إلى أن أجد وظيفة وأستقر .. فلا يعقل أن تتزوجى من عاطل ؟!

احتشد صوتها ببحة عنيفة كامنة :

ـــ قلت لك إن خالى فى حاجة إلى من يساعده فى الصيدلية .. فقد

تكالبت عليه أمراض الشيخوخة .. ولم يعد قادرا على البقاء طوال اليوم فى الصيدلية ..

ــ سأبحث عن عمل فى مجالات أخرى .. فإذا لم أوفق .. فأنا تحت أمرك !

ــ أنت الآن خريج متفوق .. ولست مجرد طالب عادى .. ولا بد أن هذا سيكون فى اعتبار خالى !

ــ وأنت لا تكرهين أن أعثر على فرص أفضل ؟!

ــ كل ما أريده ألا تفرقنا الأيام عن بعضنا البعض !

ــ إننى لا أستطيع أن أتخيل حياتى بدونك !

رفعت رأسها مطبقة العينين فقبلهما فى حنان ثم أطبقت على كتفيه بذراعيها فأوشك على السقوط فوقها ، فى حين خرجت كلماتها لاهثة متقطعة :

ــ هيا بنا نحتفل بنجاحك الباهر .. وليدق جرس الباب ما شاء له الدق .. فأنا لست هنا طوال اليوم ..

نهضت ممسكة بذراعه فى طريقها إلى غرفة النوم . لا يعرف وجدى لماذا فكر فى الاعتذار والعودة إلى شقته لسبب أو لآخر ؟! لكنه تذكر شقته الخالية من الطعام ، واختبار القلق الذى سيجتازه هذا المساء مع مهجة ، فسار خلفها دون مقاومة تذكر .

عندما دقت ساعة الحائط الفاخرة الضخمة السادسة مساء ، كانت مهجة قد انتهت من ارتداء ملابسها التى لم تلق أى قبول من أمها التى ذهلت لفتاة تستعد لاستقبال من جاء يطلب يدها ببنطلون جينز أبيض يكاد يمنع ساقيها من التنفس ، وبلوزة سوداء تعلن عن بياض نهديها المشرب بالحمرة فى حين انسدل شعرها بلونه الذهبى والبنى اللامع على ظهرها وكتفيها بلا ضابط أو رابط . لكن الأم لم تقاوم كثيرا ، إذ شعرت أن قبضتها عليها أوشكت أن تتلاشى تماما .

أما الأب فلم يكن يهتم بهذه الشكليات بقدر تركيزه على النتائج العملية . كان دائم الحرص على أن يجنب قلبه المريض أية معاناة هو فى غنى عنها ، خاصة وأنه فى الوقت المناسب يشرع أسلحته الفعالة فيحسم الموضوع تماما دون الدخول فى متاهات الجدل العقيم . وكان الوحيد من بين أفراد أسرته ، الذى استطاع أن يتفادى ضربات ثورة يوليو وذلك من خلال صداقته لأحد الضباط الأحرار الذى كان ينبئه بقرارات تحديد الملكية والحراسات والتأميمات قبل صدورها ، مما جعل حجم الخسائر التى أصابته يصل إلى الحد الأدنى . وإن كان قد اكتشف فى مرحلة متأخرة خطط هذا الضابط للإيقاع بزوجته الجميلة ، مما اضطره إلى طرده من بيته وقطع علاقته به تماما . لكن الضابط لم ينس ثأره عندما أصبح عضوا فى لجنة تصفية الإقطاع التى شكلت قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ بعام واحد ، وإذا بالحراسة تفرض على جميع ممتلكات عبد الرحمن بك والد

مهجة ، ويصاب بذبحة صدرية نقل على أثرها إلى المستشفى حيث ظل هناك أكثر من شهر ، لكن الدمار الذى أصاب قلبه ترك آثاره التى ظل يعانى منها حتى الآن وتشعره دائما بدنو أجله . ومن هنا كان ارتياحه الشديد لتقدم يسرى ابن شقيق زوجة أخيه ، لطلب يد مهجة . فهو فى نظره مثال رجل الأعمال الأرستقراطى الناجح ، والذى يستطيع أن يصون ابنته ويوفر لها الحياة الكريمة من بعده .

كان عبد الرحمن بك يجلس مع زوجته فى شرفة عمارته التى تطل على شارع نادى الصيد ، حين دق جرس الباب . سارت مهجة متثاقلة إلى الباب ، لكن أخاها حلمى الشاعر الرقيق كان الطارق . كانت تسعد دائما بأخيها الذى حرمت من رؤيته أكثر من ثلاث سنوات متصلة عندما تزوج من إحدى راقصات شارع الهرم ، فحرمه أبوه من دخول البيت ، وكان على وشك أن يحرمه من الميراث لولا أنه اكتشف خيانتها له مع أحد الأمراء العرب المترددين على القاهرة من حين لآخر ، مما جعله أضحوكة زملائه فى الجريدة التى يعمل بها محررا لصفحة الأدب والفن ..لكنه واجه الموقف بشجاعة وطلقها فى هدوء ، بل ونشر قصيدة حول محنته هذه ، وإن كان أحدا لا يؤمن بموهبته كشاعر .

قبلت مهجة أخاها الذى سألها فى مرح ودعابة :

— أين الأسرة المثالية ؟!

— بابا وماما فى الشرفة فى انتظار المحروس !! لكن قبل أن تذهب إليهما .. أريد رأيك فى موضوع مهم .. فأنت تعرف كم أحب رأيك ؟!

— هل هو موضوع أهم من الموضوع الذى استدعيت لحضوره اليوم ؟

جذبته من يده إلى غرفة نومها ، فاستسلم لها تماما . وهناك قالت :

ـــ الموضوع باختصار أننى أحببت زميلا لى منذ السنة الأولى فى الكلية .. وهو متفوق لدرجة أنه أول دفعتنا .. وربما عين معيدا .. وهو يريد أن يتقدم لطلب يدى !! إنه نفس الشاب الذى قصصت عليك حكايته منذ سنتين !!

تساءل حلمى فى بساطة تعشقها مهجة :

ـــ ولماذا لم يتقدم ؟! يبدو أنه مصر على حبه لك ؟!

ـــ أسرته الفقيرة جعلته يشعر بحرج بالغ !!

ـــ الحب عالم لا يخضع لمعايير الفقر أو الغنى !

ـــ وهل يمكن أن يقتنع بابا وماما بهذا الكلام ؟!

ـــ المهم رغبتك وإرادتك .. إنها قضية مستقبلك أنت وحدك !! وسوف أساندك حتى النهاية !!

قبلته بسرعة فى وجنته وهى تتساءل :

ـــ هل أفاتحهما فى الموضوع قبل الزيارة ؟!

ـــ أفضل أن تكونى بعدها .. كى تستغلى أية ثغرات قد توجد فى شخصيته ! كما أريد أن تكونى فى منتهى الرقة والترحيب به حتى لا يبدو انحيازك المسبق ضده !!

ـــ أنت أروع أخ فى الدنيا !!

ربت على خدها :

ـــ هيا بنا لنخض المعركة الفاصلة .. فالنصر دائما للإرادة الصامدة !

ضحكت مداعبة فى تساؤل :

ـــ هل هى قصيدة جديدة ؟!

نظر حلمى إلى سقف الغرفة حيث علّقت نجفة صغيرة جميلة :

ـــ لا أحد يعرف ميعادا محددا للإلهام !

سار حلمى بين قطع الأثاث العريق الفاخر حتى بلغ الشرفة وفى أعقابه مهجة التى ارتفعت روحها المعنوية . استقبل أباه وأمه بالأحضان ثم جلس فى مواجهتهما إلى جوار أخته فى الشرفة الفسيحة التى تطل من الطابق العاشر على حدائق نادى الصيد وعلى الشارع الذى جرت فيه السيارات فى حجم العلب . لم يكن جمال مهجة نشازا فى العائلة ، فقد اشتركت مع أمها فى البشرة المرمرية المشربة بالحمرة ، وخصلات الشعر المتماوجة بين الأصفر الذهبى والبنى اللامع . ولا يزال جسد الأم يعلن عن بقايا أنوثة متفجرة . أما حلمى فلم يكن يحمل ثمة تشابه سواء مع أبيه أو أمه ، وإن كان يشاركهما فى البشرة البيضاء والوسامة . سأله الأب :

— ألا تزال شطحاتك كما هى ؟! أو أن العقل قد عرف طريقه أخيرا إليك ؟!

أجاب حلمى ضاحكا :

— أدام الله الجنون .. فلولاه ما كتب شاعر بيتا واحدا !

نظر الأب إلى أصص الزهور الموازية للسور . مسح شعره الأبيض الخفيف بيده دون أن يشاركه الضحك :

— كان الشعراء دائما حكماء عصرهم !

استمر حلمى فى مداعبته :

— خذوا الحكمة من أفواه المجانين !

أقحمت الأم نفسها فى الحوار :

— نريدك أن تكون أمام العريس مثالا للرزانة والوقار .. فهو رجل أعمال كبير لا يحب المزاح أو الطيش !

— سأكون فى منتهى التحفظ .. فأنا أعتبر نفسى فى مهمة رسمية أرجو أن تنتهى بأسرع ما يمكن .. فأنا لا أحتمل لبس الحلة فى هذا

القيظ !

لم تسكت الأم :

ـــ إن الشقة مكيفة الهواء !

ـــ التكييف لا ينفى أننى أرتدى الحلة التى تقيدنى !

كانت الأم على وشك أن ترد لكن الأب قاطعها :

ـــ لا داعى للجدل .. فلن تصلى معه إلى نتيجة !

نظر حلمى إلى أخته فوجدها تبتسم ابتسامة حرج وقلق ، لكنها جسدت غمازتها فى وجنتها اليسرى . غمز لها بعينه اليمنى ثم نظر إلى ساعته :

ـــ لقد تأخر السيد العريس عن ميعاده !! إنها السابعة والربع !

أشعل الأب سيجارة فى ضيق :

ـــ إن ربع ساعة لا تعد تأخيرا !

ـــ الدقيقة الواحدة لها حساب عند رجل الأعمال !

أطلق الأب سحابة خفيفة من الدخان :

ـــ ألا تسأم أبدا من الجدل ؟!

استمرأ حلمى المباراة الكلامية :

ـــ ألم يقل لك الطبيب إن التدخين ضار بالقلب ؟!

ـــ إن الجدل هو الوجع الحقيقى لقلبى !!

ـــ إذا كان صمتى هو علاجك الحقيقى .. فلأصمت إلى الأبد ؟!

اهتز الجفن الأيسر للأم وارتعشت يدها الممسكة بكوب شاى :

ـــ بعد الشر يا حبيبى !

كان الأب على وشك أن يفتح فمه لكن الدقات الموسيقية لجرس الباب جذبت أذنه.وران الصمت على الجميع حتى أطلت الدادة العجوز

بوجهها المترهل من الباب تعلن وصول « البك » الذى أدخلته الصالون .
نهض الأب فبدا رشيقا فى حلته الكحلية الأنيقة ، وإن كان بياض بشرته قد امتزج بصفرة خفيفة وهالتين داكنتين حول العينين . أما الأم فقد بدت أصغر منه كثيرا فى فستانها الوردى الذى واكب لون قميص حلمى تحت حلته ذات اللون النبيذى .

سار الأب وخلفه الجميع الذين احتواهم الصالون باستثناء مهجة التى أمرتها أمها بالانتظار خارجا ، فظلت تذرع المسافة أمام الباب جيئة وذهابا كأنها على وشك أن تخوض امتحانا .

حيا الأب الضيف برقة ودبلوماسية ثم أعقبه الأم وحلمى . لم يكن يسرى غريبا بين أفراد الأسرة ، فهو ابن شقيق زوجة الأخ الأكبر لعبد الرحمن بك . جلس الجميع . وضع يسرى ساقا على ساق . أنيق ، رقيق ، ناعم ، لامع ، مهذب ، تفوح حلته الحريرية البيضاء بعطر أخاذ . كان البياض هو اللون المسيطر عليه : الحذاء ، القميص ، أما رباط العنق فكان أحمر قانيا . عيناه خضراوان بلا بريق ، وشعره البنى الفاتح تساقط من مؤخرة رأسه . لاحظ حلمى فارق السن الكبير بينه وبين أخته برغم شاربه الحليق ووجهه اللامع وجسمه المائل إلى السمنة .

قال الأب مبتسما لأول مرة :

— كان المرحوم أبوك صديق عمرى ..

أجاب بصوت رقيق ناعم يحمل بين طياته لكنة أوروبية ، إذ حل حرف الغين على لسانه محل الراء :

— نحن أسرة واحدة !

قررت الأم أن تساهم بدورها :

— خطوة عزيزة !

رد فى اقتضاب أرستقراطى :

ــ مرسى ..

فى حين كان حلمى يظن أنه سيجيب « أعز الله مقدارك » . لاحظت الأم عدم الارتياح على وجه ابنها الصامت فأرادت أن تقحمه فى الحوار قائلة ليسرى :

ــ حلمى شاعر رقيق ينشر قصائده فى جريدته وفى مجلات أخرى !

تمنى حلمى أن يكون يسرى قد قرأ إحدى قصائده برغم عدم ثقته فى ذوقه الفنى لكن يسرى علق بنفس الاقتضاب :

ــ رجال الأعمال ليس لديهم وقت للشعر !!

لم يسكت حلمى :

ــ لا بد أن تكون حياتهم فى منتهى الجفاف !!

لم يسترح الأب لهذا الجدل العقيم فى نظره ، لكنه أغلق فمه ليمنح يسرى فرصة الرد :

ــ إن الشعر كلام فى كلام .. وفى حياتنا الكلمة الواحدة تعنى الآلاف المؤلفة .. ومع ذلك يسرنى أن تهدينى قصائدك !

هدأ غبار المعركة وبردت نار حلمى بعض الشىء :

ــ لم أنشر ديوانا بعد !

نهضت الأم وفتحت علبة بللورية فاخرة ضخمة فوق المائدة الذهبية الصغيرة ، ثم قدمتها ليسرى الذى تناول قطعة شيكولاته فحذا الآخرون حذوه . ران الصمت فقطعه يسرى :

ــ سأسافر غدا إلى لندن للتعاقد على آلات مصنع البطاطس الشيبس . فالشيبس فى مصر يصنع بطريقة ضارة بالصحة ..

نظر الأب إلى الزهرية الصينى الضخمة فى ركن الغرفة ، وقارن بين لونها

الكحلى ولون حلته . لكنه استدرك :

ــ وفقك الله يا بنى !

أراد حلمى أن ينتقم :

ــ وهل صناعة الشيبس تحتاج هى الأخرى إلى آلات مستوردة ؟!

ــ هذا إذا أردنا أن نتقدم !

ــ إننا فى حاجة إلى صناعات أهم من الشيبس بكثير !!

إلتفت يسرى عندما أدرك حجم التحدى :

ــ من يسمعك يقل إنك نشأت فى بيئة اشتراكية .. أو بالأصح شيوعية !!

ــ هذه الألفاظ لا تخيفنى .. لأننى أومن أن التقدم ليس له سوى طريق واحد هو الاعتماد على النفس ..

أطفأ الأب سيجارته بعصبية فى المنفضة أمامه وسأل زوجته :

ــ أين مهجة ؟!

لم ترد الأم بل نهضت فى رشاقة وخفة إلى خارج الباب المغلق . تشاغل يسرى بملاحظة الثريا البللورية المتلألئة ، ومقاعد الغرفة المذهبة التى تنتمى إلى طراز لويس السادس عشر ، والسجادة الشيرازى الحمراء مثل لون النسيج الذى افترش المقاعد .

فتح الباب ودخلت الأم مع ابنتها التى مدت يدها بالسلام وهى تنظر بعينيها المشعتين إليه . لم يسترح لهذا الوميض البنى الجرىء ، فقد كان يتوقع منها خفر العذارى . جلست فى مواجهته فبدأ فى تفحصها مليا . لم يعجبه بنطلونها الأبيض الضيق وبلوزتها السوداء ، فليست هذه ملابس تقابل بها فتاة عريسها . لكنه قرر فى قرارة نفسه أن يعلمها الذوق والأناقة بعد الزواج . أرخى عينيه فى ضيق عندما وجدها تتفحصه كما لو كانت

هى العريس . رسم على وجهه ابتسامة عريضة :

ـــ ألف مبروك النجاح يا دكتورة !

ـــ مرسى ..

ـــ وما مشروعاتك بالنسبة للمستقبل ؟!

لم تعرف مهجة عما إذا كانت سنه الكبيرة مدعاة لفرحها أم لخوفها أم لحزنها ؟! كذلك لم تستطع مقاومة عقد المقارنة بين رقته الأنثوية ووسامته الناعمة وبين رجولة وجدى الخشنة وحيويته المتجددة !

تضايق يسرى عندما لاحظ شرودها وعدم استجابتها فاستأنف :

ـــ يبدو أنك لم تستقرى بعد على أى مشروع ؟!

انتزعت مهجة نفسها من شرودها مستدركة :

ـــ لم أفكر فى أى مشروع بعد !!

ـــ إذاً .. يمكنك مساعدتى فى مشروعاتى !

يتكلم كما لو كان الزواج قد أصبح أمرًا محتما . قررت خوض المواجهة بكل رقة . نظرت إلى أخيها ثم إليه :

ـــ إننى لم أحصل على بكالوريوس الصيدلة كى أضعه ورقة فى دولابى .. لقد حجز لى بابا أحد المحال أسفل العمارة لإقامة صيدلية !

ـــ لا يصح لابنة أكابر مثلك أن تعمل بائعة فى محل !!

توهج التحدى داخلها . تذكرت وجدى فأصابتها لفحة من هجير الوجد :

ـــ إننى دكتورة صيدلية ولست بائعة فى محل !!

تراجع مسرعا وقد غطت حمرة الخجل وجهه كالعذارى :

ـــ لم أقصد هذا .. فالانتظار فى محل طوال النهار شىء ممل لا يطاق ! أما السفر ومشاهدة العالم فمتعة متجددة لا تجعلنى أشعر بعبء

العمل !!

لم يحتمل حلمى الصمت أكثر من هذا :

— والناس فيما يعشقون مذاهب !

أراد الأب أن يقطع خط الرجعة على ابنه :

— لكن الاتفاق فى الميول والاتجاهات ضرورة ملحة حتى ينهض الزواج على أساس متين !

تدعم موقف يسرى فقال للأب فى ثقة :

— هذا كلام العقل والحكمة .. فالزواج هو الهدف النهائى لكل فتاة !

— فى الخارج تعيش الفتاة بلا زواج دون أن يمسها أحد بكلمة !

التقط حلمى الخيط من أخته :

— هذا إذا كنا متحمسين لاستيراد كل شىء من الخارج ؟!

قدحت الأم زناد فكرها حتى يفتح الله عليها بما يفض الاشتباك الذى لم يكن فى الحسبان . ولم يخرجها من دوامتها سوى الباب الذى فتح ودخلت منه الدادة تدفع أمامها عربة مذهبة ذات دورين ، وضعت عليهما الأكواب البللورية المليئة بعصير التفاح والمانجو والفراولة والأناناس . دارت الدادة بالأكواب على الحاضرين ثم تركت العربة فى ركن قصى وخرجت مغلقة الباب خلفها .

انهمك الجميع فى ارتشاف الشراب المثلج اللذيذ . قطع الأب الصمت سائلا يسرى :

— يبدو أنك لا تدخن !

— كنت أدخن حتى خمس سنوات مضت .. لكننى تسلحت بالإرادة ومنذ ذلك الحين لم أدخن سيجارة واحدة !!

— أتمنى أن تكون لى مثل هذه الإرادة .. فقد حاولت الإقلاع عن

التدخين طوال أربعين عاما .. برغم النوبتين الحادتين اللتين أصابتا قلبى !!
بلغ يسرى قمة اعتزازه بنفسه فأبدل ساقا على ساق :
ــ إن الصحة رأسمال لا يمكن تعويضه !
ــ ما مررت به أوشك أن يأتى على ما تبقى من رأسمال !
ــ متعك الله بالصحة وطول العمر !
ــ البركة فيكم أنتم ! كل ما أريده .. أن أراكم مستقرين هانئين !
وضع يسرى الكوب الفارغة أمامه ثم نظر إلى ساعته :
ــ للأسف لن أستطيع الاستمتاع بهذه الجلسة طويلا .. لارتباطى قبل سفرى بميعاد مع أحد تجار الجملة الذى سيمد مصنعى بالبطاطس اللازمة ..
أخيرا وجدت الأم فرصة لإثبات وجودها :
ــ الشاى والكيك جاهزان ..
ــ زاد وزنى فى الفترة الأخيرة أكثر من خمسة كيلو .. ونصحنى الطبيب بالرياضة والريجيم .. ونظرا لضيق وقتى .. اكتفيت بالريجيم ..
ــ عبد الرحمن فى سنك لم يكن يحرم نفسه من أى طعام يفضله ..
ــ الظروف تغيرت والضغوط تضاعفت .. ولا بد أن نضاعف عنايتنا بصحتنا .. فالزمن لا يرحم ..
كان عبد الرحمن بك يتابع حديثه راضيا :
ــ عندما يزدان الشباب بالحكمة .. فإن الكمال يصبح فى متناول يده ..

انتفخت أوداج يسرى ، وازداد احمرار وجهه وترهل خديه . بلغ به الإحساس بالأهمية قمته ، فنظر فى ساعته مرة أخرى ثم نهض فبان قصره بعد أن بدا طويل القامة فى جلسته . نهض الباقون معه فى حين قالت الأم

ليسرى فى إلحاح :

ــ لا يصح هكذا !!

نظر يسرى سعيدا راضيا إلى مهجة التى بدت أطول منه قليلا ، وهى تحاول أن تكبت الحنق داخلها . أجاب الأم بالسعادة نفسها :

ــ الأيام أمامنا كثيرة !!

ثم التفت إلى مهجة ومد يده ممسكا بيدها :

ــ إننى سعيد جدا يا آنسة مهجة بهذا اللقاء الممتع .. سأبقى أسبوعا فى انجلترا .. وبمجرد عودتى سأتصل بكم !

نطق يسرى بالجملة الأخيرة وهو يتصفحهم جميعا بعينيه . لم ترد مهجة . كان حنقها أشد مما توقعت . فهو لم يطلب حتى الاستماع إلى رأيها بعد عودته . إنه يظنها إحدى صفقاته ، فلاذت بالصمت وأحنت رأسها للعاصفة لعلها تستطيع فيما بعد إعادة الأمور إلى نصابها .

ساروا معه لتوديعه حتى باب المصعد الذى تمنت أن يهبط به إلى سابع أرض . عادوا إلى الشرفة حيث شرع الظلام فى مد جناحيه على المدينة التى رصعت المصابيح الصفر شوارعها الملتوية كالحيات والأفاعى . وبمجرد أن جلسوا سأل الأب ابنته :

ــ ما رأيك يا مهجة ؟! إننى لم أر شابا من قبل فى مثل نجاحه وحنكته ؟

نظرت مهجة إلى بعض النجوم الخافتة البعيدة تبحث عن مدخل لإجابة تناسب ما يدور فى داخلها . امتزجت صورة يسرى بصورة وجدى وطار خيالها إلى مستقبل غامض لا يزال فى رحم الغيب .

ــ طبعا .. السكوت علامة الرضا !

عادت مهجة من التيه على صوت أبيها وهو ينطق كلمة « الرضا »

فاستدركت حتى لا تفلت الأمور من يديها أكثر من هذا :
ـــ إنه يكبرنى بسنوات عديدة !
ـــ إن الفارق بينك وبينه لا يزيد على الفارق بينى وبين أمك التى عاشت معى على أكف الراحة !
ربتت الأم على يده فى حنان جارف :
ـــ حفظك الله لى وصانك .. فالزوج الخبير المحنك خير ألف مرة من الشاب الطائش الذى يفنى زهرة شباب زوجته فى كفاح لا طائل من ورائه .. وإذا ظهرت بعض ثمرات هذا الكفاح يكون العمر نفسه قد أوشك على الانقضاء !
أدرك حلمى الجالس إلى جوار أخته أن التيار أقوى منها فقرر خوض اللجة معها :
ـــ الحياة يا ماما بدون كفاح لا معنى لها !
أجابت الأم وهى تنظر إلى الأب مستمدة منه التأييد :
ـــ إن رفض النعمة التى يرسلها الله إلى الإنسان كفر !
التقطت مهجة الخيط من أخيها :
ـــ لا أحب أن أكون مجرد عالة على زوجى أو دمية فى بيته يلعب بها كلما اشتاق إليها !
لاحظت مهجة العبوس الذى غطى وجه أبيها برغم الظلام المحيط بالشرفة . خرج صوته ممزوجا برهبة الظلام :
ـــ لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام الفارغ الذى لا يوجد إلا فى الروايات التافهة !
نظرت مهجة فى استغاثة صامتة إلى أخيها الذى هرع لإنقاذها :
ـــ كان هناك موضوع يا بابا أردت أن أفاتح حضرتك فيه .. لكننى

آثرت تأجيله لحين الانتهاء من زيارة يسرى حتى يكون حكمنا على الموضوع برمته موضوعيا .ــ

قاطعه الأب بلهجة مشحونة بكثير من الشك :

ــ وما هو هذا الموضوع ؟!

ــ لى صديق نابه تخرج هذا العام .. وسوف يعين معيدا فى كليته لأنه أول دفعته .. ويستعد من الآن لدرجة الماجستير ثم الدكتوراة .. وقد رأى مهجة معى ذات مرة فى النادى وأعجب بها للغاية .. وعندما نجح بالأمس جاءنى وعبر عن رغبته فى التشرف بطلب يدها من حضرتك !

سأله الأب بمنتهى الحسم والتحديد :

ــ من أى عائلة جاء ؟!

ــ إنه من عائلة مكافحة .. لكن أبناءها متفوقون نابغون !

ــ إننى أسأل عن الأصل .. قبل أى اعتبار آخر .. وطالما أنه من عائلة نكرة مغمورة فلا داعى لفتح الموضوع أساسا !

دارت الأرض تحت مقعد مهجة . إنها تسمع دبيب الكارثة يقترب منها . أمسكت بمسندى المقعد . حاولت أن تركز تفكيرها قدر طاقتها . لقد فتح حلمى الموضوع ولا بد أن تصل فيه إلى خاتمة . قالت لأبيها فى استماتة :

ــ لو رأيت يا بابا هذا الشاب الذى تكلم عنه حلمى لأثار إعجابك للغاية .. رقة .. أخلاق .. تفوق .. رجولة .. أى فتاة تتمناه !

صمتت وصدرها يعلو ويهبط فى عنف مكتوم . تساءل الأب فى سخرية :

ــ هل لمست كل هذا فى مجرد مقابلة عابرة معه ؟! أم أنها تكررت فى غياب حلمى الذى أعرف آراءه جيدا ؟!

واصل حلمى الصمود فى مواجهة أبيه العنيد العنيف :
ـــ لم تتكرر الجلسة أكثر من مرة .. لكنها استمرت أكثر من ثلاث ساعات ؟!
ـــ ومتى كانت هذه الجلسة ؟!
ـــ فى الصيف الماضى !
رفع الأب عينيه إلى القبة السوداء المحيطة بالشرفة وقال كمن يصدر حكما نهائيا لا رجعة فيه وهو يطلق دخان السيجارة :
ـــ إن ابنتى لا تتزوج إلا ممن يناسبها اجتماعيا واقتصاديا .. وأنا أرى أن يسرى هو خير من يناسبها .. فأنا لم أتعب فى تربيتها كى أرميها لأى عابر سبيل !!
لم تعبأ مهجة بالآفاق المرعبة التى يمكن أن يبلغها الحوار :
ـــ لقد بلغت من السن والعلم ما يؤهلنى لأن أتحمل مسئولية مستقبلى !!
وضع الأب يده على صدره كما لو كان خائفا على قلبه :
ـــ لم أكن أتصور أننى سأعيش لليوم الذى أسمع فيه مثل هذا الكلام !!
ربتت الأم على ذراعه فى حنان جارف :
ـــ حفظك الله لنا وصانك !
هدأ حلمى من إيقاع الحوار :
ـــ لم تقصد مهجة شيئا يجرحك يا بابا .. ويبدو أنها تريد أن تتعلم تحمل المسئولية منذ الآن .. ولا أعتقد أن هذا شىء يمكن أن يضايق حضرتك ؟!
ـــ طالما أننى على وجه هذه الأرض فلن أتركها تعبث بمستقبلها !

ـــ لو فشلت زيجتها بيسرى فسوف تلقى بالمسئولية أو اللوم عليك !
ـــ أنت بالذات لا تحاول أن تنصحنى !! كما أننى لن أترك ما أفنيت العمر فى المحافظة عليه وتنميته كى يستولى عليه دخيل طامع فى غفلة من الزمن !
واصلت مهجة التصعيد . فقد أصبح الطريق بلا رجعة :
ـــ ولماذا نفترض سوء الظن مقدما بالآخرين ؟!
رفع الأب سبابته محذرا مهددا :
ـــ لن أجبرك على الزواج من شخص بعينه .. لكن إذا كان هذا الشاب يحبك لذاتك .. فليتزوجك لذاتك !
قاومت مهجة الرؤية المعتمة أمام عينيها :
ـــ إنه لا يعرف شيئا عن ثروتنا وممتلكاتنا !!
ـــ وهو كذلك .. فليستمر الوضع هكذا !
ـــ لا أفهم !!
ـــ إن من يتقدم للزواج عليه أن يتحمل كل مسئولياته .. لا أن يسعى فقط لنوال متعه !
ـــ أى أنه يتحتم علينا أن نبدأ من الصفر ؟!
ـــ إنها لذة الكفاح التى تتكلمون عنها .. والتى تمنح حياتكم معناها !
لم تكن مهجة تعلم أن أباها بهذه الصرامة .. قبلت التحدى :
ـــ وهو كذلك .. سأطلب منه أن يتقدم على هذا الأساس !
ابتسم حلمى محاولا تلطيف الموقف :
ـــ بابا ليس من الآباء الصارمين الذين يقسمون بأن هذه الزيجة لن تتم .. كما أنه من الحنان بحيث لن يطيعه قلبه كى يترك وحيدته دون دعم !

ــ وهل قمت بدعمك عندما تزوجت من الراقصة إياها ؟!

أصابه فى مقتل فقرر التزام الصمت لحين مغادرة البيت فى أسرع وقت . لم تعرف مهجة هل تحزن أم تفرح ؟! لكن الشيء الواضح أمامها الآن هو أنها على استعداد لتبدأ مع وجدى من الصفر . فقد كتب عليها ألا تتزوج من غيره حتى لو كانت تمقته ، بعد أن وضعها أبوها أمام اختيارين لا ثالث لهما . تآمرت عليها النار التى لا يخفت أوارها داخلها مع تقاليد العائلة العريقة مع رقة يسرى التى تبلغ حد الأنوثة مع أستاذية وجدى فى دنيا ترويض الأجساد المتمردة ، فلم تجد مفرا من الانقياد مع مهب الريح وسط هذه الأمواج المتلاطمة .

وجد حلمى فى الاستئذان الحل الأمثل . نظر فى ساعته وحياهم مغادرًا . نهضت مهجة فى صمت حتى بلغت غرفتها فأغلقت الباب وارتمت فى فراشها وهى تجهش بالبكاء . تركت لنفسها العنان حتى شعرت ببرد الراحة يمس أطراف صدرها الملتهب . نهضت وخلعت بنطلونها وبلوزتها فبدا جسدها الأبيض الفارع بحمرته المتألقة عند قممه وفى منحنياته مثل تمثال قد من مرمر ، أحاطه إطاران دقيقان رفيعان ، الأول أحاط بالنهدين والثانى دار حول الردفين . استدارت أمام المرآة لترى جسدها الذى تعشقه من زوايا متعددة . ظهرت صورة يسرى باهتة مهزوزة الخطوط متراقصة الملامح على المرآة لكنها سرعان ما تلاشت تحت صورة وجدى التى انطبعت عليها فى عنف ، وانطبقت تماما على الخطوط الخارجية لجسد مهجة الذى يعرف وجدى كل أسراره ومفاتيحه .

امتدت النار المشتعلة فى صدرها إلى كل أطرافها فتمنت أن يحتويها وجدى لتذوب فى أحضانه . لكنها تذكرت لقاء الغد فانكمشت فى فراشها بعد أن أطفأت النور . استجدت النوم كى يزور جفونها ، لكنه

استعصى عليها . أغمضت عينيها وسألت نفسها : كيف تبدأ معه من الصفر الذى لم يكن له وجود فى حياتها من قبل ؟! بحثت عن إجابة لتنتشلها من حيرتها ، لكن يبدو أنها لم تخرج من رحم الغيب بعد .

ـ ٣ ـ

انطلقت مهجة بعربتها الصفراء فى شارع نادى الصيد حتى بلغت الشارع الموازى لقضبان السكك الحديدية إلى المكان الذى تواعدت فيه على لقاء وجدى . كان اليوم أشد حرارة من الأمس ، والشمس تلهب الشوارع والمارة بسياط محماة . وبرغم السيارة الفاخرة المغلقة على هوائها المكيف ، فإن مهجة استشعرت الجو اللافح من العرق المتصبب على الجباه والأعناق .

بلغت المكان المحدد لكن وجدى لم يصل بعد . أعلنت ساعة يدها الذهبية الدقيقة العاشرة إلا خمس دقائق . خلعت نظارتها الشمسية فلاحظت احمرار عينيها فى مرآة السيارة ، فأعادتها إلى مكانها مرة أخرى . جرفتها موجة عارمة من الكآبة ، لكنها سرعان ما رأت وجدى يكاد يلهث فوق الطوار ليلحق بها . عادت القهقهرى مسرعة ثم فتحت له الباب فى اللحظة التى مر فيها قطار الصعيد مثيرا سحابة من الغبار الكثيف الذى ملأ السيارة . أسرع وجدى بالجلوس مغلقا الباب .

طوت مهجة الطريق تحت إطارات العربة المجنونة فعرف وجدى دون أن تنبس ببنت شفة وقائع الأمس ، فرتب أفكاره على هذا الأساس حتى لا يبرز احتمال جديد لم يكن فى الحسبان . سألها على سبيل جس النبض :

ـــ إلى أين ؟!
ـــ إلى أى مكان نستطيع فيه الحديث بهدوء !
ـــ أرجو أن تكون الأمور قد سارت على ما يرام ؟
ـــ لم تخرج عن الاحتمالات التى توقعتها !!
عبرت السيارة كوبرى الملك فيصل ثم انحرفت يسارا إلى شارع الهرم ، فقال وجدى :
ـــ أعرف مكانا هادئا بين الأهرامات وأبى الهول يصلح لنقاش كل الموضوعات الساخنة !
لم تسترح مهجة لتعليقه فلزمت الصمت ولم يسمع سوى حفيف الإطارات فوق الطريق حتى مطلع هضبة الهرم التى صعدتها السيارة ثم دارت حول الهرم الأكبر إلى أن استقرت بجوار أبى الهول ، وبتوقف الحركة ساد السكون المطبق . لم يكن هناك سوى بعض السياح فوق ظهور الجمال ، فى حين سار البعض الآخر إلى متحف مراكب الشمس . عكست الرمال الملتهبة الأسهم المنطلقة من القرص الأصفر الذى يعمى الأبصار . ابتسم وجدى :
ـــ اخلعى هذه النظارة .. أريد أن أمتع البصر بعينيك الجميلتين !
لم تستجب للغزل الذى كان يذيبها من قبل وجدًا :
ـــ وافق بابا على زواجنا بشرط أن نعتمد تماما على أنفسنا !
لم يذهل كثيرا فقد كان الاحتمال فى اعتباره :
ـــ هذا ما كنت أخشاه تماما !
ـــ ألسنا مثل كل الذين يتزوجون ويبدءون حياتهم من الصفر ؟!
ـــ تقولين هذا الكلام ببساطة لأنك ولدت وفى فمك ملعقة من ذهب .. أما أنا فمن أين لى أن أحصل على شقة وعلى الأثاث المناسب لها ؟!

— لا أريد شقة فاخرة ؟!

— إن شقتى فى بولاق الدكرور هى أقصى ما أستطيع الحصول عليه !!

— إنها ليست شقة على الإطلاق .. وإنما مجرد غرفة على السطح !

— سأصارحك بكل شىء كما صارحك أبوك .. وأنا على استعداد لتنفيذ القرار الذى تتخذينه ..

توجست مهجة خيفة لكنها استسلمت :

— تفضل !

— إنك لا تعرفين شيئا عن ظروفى وعائلتى سوى أننى من بيئة فقيرة .. برغم علاقتنا الحميمة التى زادت على أربع سنوات —

قاطعته فى حدة لم تستطع أن تخفيها :

— هل هى مجرد علاقة حميمة أم حب حقيقى ؟!

— إن حبى العميق لك هو الذى يدفعنى الآن لأقول لك هذا الكلام .. فأنا كما تعلمين من بلدة أبى رواش المشهورة باصطياد الحيات والعقارب . لاستخلاص السموم منها وبيعها للمعامل الكيميائية لاستخراج الترياق المناسب منها . وكان أبى قد أفنى حياته فى هذه الحرفة التى لم تدر عليه سوى ما يسد رمقه ، ومع ذلك ورثها لأبنائه الستة . وكنت أشاركهم العمل فى الأجازات الصيفية لحرص أبى على إتمامى لدراستى العليا بعد أن لمس نبوغى فى الشهادة الإعدادية ثم الثانوية العامة بحيث أهلنى مجموعى للالتحاق بكلية الصيدلة . وكان أبى يقتطع من رزقه لأواصل دراستى بالكلية ، لكن القدر لم يمهله . ففى منتصف السنة الأولى لدغته إحدى الحيات ذات السم الذى يقضى على الإنسان فى لحظات ، وبذلك فقدت المصدر الرئيسى لرزقى ولاستمرارى فى الدراسة .

ــ وكيف استطعت إكمال دراستك بدون مصدر للتمويل ؟!
ابتسم وجدى محاولا التخفيف من الجو المأساوى :
ــ كانت هداياك خير عون لى !
ــ لكنها لم تكن لتكفى الاستمرار فى الدراسة لأربع سنوات ؟!
ــ فى تلك الأثناء دلنى أهل الخير على صاحب صيدلية عجوز فى حينا .. كان فى حاجة إلى مساعد بأجر هزيل .. فعملت معه نصف الوقت معرضا نفسى للمساءلة القانونية .. لكنه كان يطمئننى دائما بأننى مجرد صبى عند بقال أفرنجى .. ولست مساعد صيدلى ..
ــ لكننى لم أشعر بكل هذه المتاعب التى عانيت منها !!
ــ لم أرد أن أضايقك بها .. خاصة وأن وجودك فى حياتى كان أكبر عامل مخفف من ثقلها ومرارتها .. فالله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن يقع لى لولاك ؟!
ــ وأنا بدونك .. ما كان فى استطاعتى الحصول على البكالوريوس !
ــ إذا كان هناك أى فضل فإنه يرجع إليك أولا وأخيرا .. المهم أن كل ما خرجت به من هذه الدنيا .. هو البكالوريوس بتقدير امتياز برغم كل الأهوال التى خضتها .. ومع ذلك لم يهتم أحد أن يعرف كيف استطعت أنا الفقير المعدم الحفاظ على تفوقى كل هذه السنوات ؟! بل إن مكافأتى هى عدم تعيينى معيدا لأننى لا أعرف من يوصى به خيرا مثل المعيدين الخمسة الذين عينوا فى العام الماضى ، وقد نصحنى البعض مساء أمس أن أرفع قضية إذا لم أعين .. لكننى لا أحب أن أنطح الصخر .. فالكلية يمكن أن تخترع ألف سبب وسبب لعدم تعيينى ..
لم تحتمل مهجة الإنصات أكثر من هذا . خلعت نظارتها الشمسية فى عصبية والتفتت إليه بعينين حمراوين :

ـــ أنا متفقة معك فى كل ما قلته .. لكن ماذا عن مستقبلنا سويا ؟! هل يعنى كلامك هذا أنك قررت التخلى عنى ؟!

أجاب بتأثر بالغ طفح على نبراته :

ـــ إننى على استعداد أن أتخلّى عن عمرى ولا أتخلى عنك .. لكن ما العمل بعد أن تخلّى عنك أبوك ؟! هل أتزوجك وآخذك ببساطة إلى غرفة على السطح كى أقضى عليك ببطء ؟! إن الحب الذى بيننا عميق وراسخ .. لكن هل يمكن للسمكة أن تعيش على الحب إذا أخرجت من الماء ؟!

ـــ إن المحب إذا لم يضحِّ من أجل حبيبه .. فإن حبَّه وهم خادع !

ـــ لا أريد أن تخدعى نفسك بهذا الكلام المعسول .. فالهبوط من الغنى إلى الفقر..مثل الهبوط من الجنة إلى الجحيم !!

ملأ أبو الهول عينيها بوقاره ورهبته وغموضه ، لكنها شدت نفسها من لجَّة حيرتها :

ـــ أنت تعرف جيدا أننى لا أستطيع أن أتزوج غيرك !!

ـــ إياك أن تظنى أننى تخليت عنك .. سأساندك حتى آخر لحظة من عمرى ! فحبِّى لك يحتِّم علىَّ التضحية بقلبى أولا !!

امتزج الإحباط بالمرارة داخلها :

ـــ كيف ؟! لا أكاد أفهم شيئًا !

ـــ سآخذك بنفسى إلى طبيب أعرفه .. ولن تستغرق العملية أكثر من دقائق تعودين بعدها عروسا رائعة فى انتظار ليلة زفافها !

ارتعشت شفتاه واغرورقت عيناه بالدموع التى لم يستطع منع جريانها . أخرجت منديلها ومسحت وجنتيه ، ولكنها أجهشت بالبكاء هى الأخرى بحيث خرجت كلماتها متقطعة متناثرة :

ــ أهكذا ينتهى كل شيء بيننا .. كأن لم يكن ؟!

ــ لا تقولى مثل هذا الهراء .. فى داخلى صوت يؤكد لى دائما أن مصيرنا واحد .. وهو صوت لم يكذب عليَّ من قبل !

ــ أشعر كما لو كنت أعيش كابوسًا حيًّا !

ــ هل يمكن أن يكون ضغط أبيك مجرد مناورة طارئة سرعان ما تنتهى ويعود إلى أبوَّته الحانية ؟!

ــ بابا عاش حياته كالسيف .. لا يحب المناورة أو اللف أو الدوران .. وموقفه من زواج أخى وطلاقه أكبر دليل عملى على ذلك ! فلولا طلاقه لكان قد حرمه من الميراث تماما !! إنه يعتبرنا مجرد أطفال لا نعرف مصلحتنا !

ــ يبدو أن الظروف كلها قد اتحدت لتتآمر ضدنا .. ويجب أن نواجه الحقيقة المرَّة التى تؤكد لنا أن التيار أقوى منا !!

ــ إن حياتى يمكن أن تكون جحيما فعلية مع هذا البارد المغرور !!

ــ لن أتركك أبدا .. سأداوم الاتصال بك سواء بالتليفون أو بأية طريقة أخرى .. حتى أعرف أحوالك أولا بأول !!

ــ وما فائدة التليفون ؟! إنه لن يخمد لهيبى !!

أمسك بيدها وانحنى عليها ليقبلها فى حنان جارف . رفع رأسه ونظر حوله فلم يجد فى الهجير المحيط به أحدا سوى أبى الهول ينظر إليه فى غموض أزلىّ . اقترب بشفتيه من شفتيها فلم تتحرك ، أطبق عليهما حتى سال لعابها فى استسلام يائس . انتزع شفتيه لاهثا :

ــ إذا كان المجتمع يعاقبنا لجرائم لم نرتكبها .. فسنعرف كيف نعاقبه لجرائم ارتكبها فعلا فى حقنا !!

ابتعدت مهجة عنه فى شيء من الخوف :

ـــ ماذا تقصد ؟!

أمسك بيدها مرة أخرى مربتًا عليها :

ـــ يا حبيبتى .. إن الحقد الذى يكنُّه لى الناس لن يزيد على الحقد الذى أشعلوه داخلى تجاههم !! هذا وعد منى !!

ـــ ماذا تنوى أن تفعل ؟!

ـــ لا شىء فى الواقع سوى أننى سأسعى للحصول على سلاحهم الذى يحاربوننى به ! فالبكالوريوس والتفوق والنبوغ أسلحة لا قيمة لها عند الفقير .. فالفقر جريمة لا تغتفر .. وعلى الفقير أن يكفِّر عنها حتى آخر لحظة فى عمره .. برغم أنه لم يرتكبها !!

ـــ إذا كنت تستشعر قدرتك على الثراء السريع .. فيمكننى الانتظار ؟!

ـــ لا أستطيع أن أضمن لك أى شىء فى المستقبل القريب .. لكننى أعدك بأن أبدأ حياتى اليوم بقيم جديدة غير تلك التى عشت عليها حتى حصولى على البكالوريوس !

نظرت إلى أبى الهول فوجدته رابضًا بكل ثقله على الأرض :

ـــ وما هذه القيم الجديدة ؟!

ـــ إنها نفس القيم القديمة الراسخة التى جعلت العميد يقول لى بمنتهى البساطة إنه لا يوجد مكان لى وسط المحاسيب والأحباب .. هى نفس القيم التى مكّنت رجلا مثل يسرى كى يأتى ويشتريك من أبيك .. هى نفس القيم التى خلقت من أبيك ديكتاتورًا أرستقراطيًّا لا يرى فى الفقراء إلا طامعين فى ثروته ..

ـــ هل يمكن أن يملأ الحقد قلبك الذى لم يعرف سوى الحب ؟!

ـــ إذا كنت قد أحببت الناس من أجلك .. فإننى سأحقد عليهم من أجلك أيضا !..

ـــ لا أعرف ماذا أقول لك !! وإن كنت ألتمس لك العذر فى كل ما قلت !!

ـــ تعلَّمت فى أبى رواش أن الحسد نار لا بد أن تلتهم صاحبها فى النهاية .. لكننى اكتشفت أنها لم تحرق كل الذين سدُّوا منافذ المستقبل فى وجهى ..

لم ترد مهجة فى هذه اللحظة التى أدركت فيها أكذوبة الإرادة الإنسانية . نظرت فى ساعتها ثم أعادت وضع نظارتها الشمسية على عينيها . أدرك وجدى بدوره أنه لم يعد هناك ما يمكن أن يقال :

ـــ فلنعد الآن .. وكفانا بكاء على الأطلال .. سأتصل اليوم بالطبيب .. وسأرتب لك ميعادًا معه .. لن أذكر له اسمك الحقيقى .. وسيبقى كل شىء فى كتمان شديد .. فليس هناك ما تخافين منه !!

لم ترد مهجة بل أدارت محرك العربة وغادرت المكان مخلفة وراءها سحابة كثيفة من الرمال الناعمة فى حين كان أبو الهول رابضًا فوق أسرار الحياة الغامضة المحيرة الملغزة .

كانت سعادة عبد الرحمن بك لا توصف عندما جاءته ابنته تعترف له برأيها الذى جانبه الصواب فى مسألة زواجها من ذلك الشاب الفقير المغمور ، فقد تأكد أن حساباته الدقيقة لا يمكن أن تخيب ، وإن كان الشك قد أقلقه نتيجة لرميه القفاز فى وجه ابنته وتهديدها بحرمانها من كل شيء إذا ركبت رأسها وتزوجت من هذا الشاب الذى لم يعرف حتى اسمه . ماذا لو أصرَّ الطائشان على التحدى والإقدام على الزواج بأى ثمن ؟! هل كان من الممكن أن يخسر ابنته إلى الأبد ؟! مهما كان فالظفر لا يخرج من اللحم !! لكن هل من السهل تقبل الهزيمة من شاب نكرة لا ينتمى لأية عائلة مرموقة ؟! فى حين أنه طرد من بيته صديقه الذى ينتمى إلى جماعة الضباط الأحرار وهو فى عنفوان قوته وبطشه ، وواجه كل ما جرى له على أيدى لجنة تصفية الإقطاع !! لم يكن التراجع من خصاله . كان دائما مسئولا عن قراره حتى لو وضعوا السيف على رقبته . أما وحيدته فموضوع محيِّر تمامًا !.

ظلت هذه الأسئلة والهواجس تطارده ليل نهار لدرجة ركبه فيها الندم لسماحه لابنته بالزواج بشرط حرمانها من كل شيء ! كان المفروض أن يرفض ما تراه وأن يفرض ما يراه ، لكن هذا الجيل المتمرد يختلف تماما عن جيله وحتى عن الأجيال التى تلته . لم تنحسر هذه الدوامة إلا بعودة ابنته نادمة فعادت ثقته كاملة فى حساباته وبعد نظره . ويبدو أن الموضوع برمَّته لم يكن سوى زوبعة فى فنجان ، أو مجرد شطحة من شطحات حلمى استطاع أن يضحك بها على مهجة لفترة وجيزة . لكن مهجة التى

ورثت عن أبيها ثقته فى نفسه ، وقوة شخصيته ، لم تكن لتستمر طويلا فى الاقتناع بهذا التافه .

لكن عبد الرحمن بك لم يتخلص من قلقه على ابنته تماما ، فقد قصَّت عليه زوجه أنها لاحظت اكتئابا دفينا يسيطر على سلوكها مما أفقدها كثيرا من حيويتها . بل إنها اعتادت فى الأيام الثلاثة الأخيرة أن تذهب إلى نادى الصيد سيرا على الأقدام ، ومنذ يومين عادت — على غير عادتها — فى الساعة الحادية عشرة مساء ، وكانت منهكة تماما لدرجة أن حمرة وجهها المشهورة بها تركت مكانها لصفرة غريبة ، بل إن زوجه غالت فى خوفها على ابنتها لدرجة أنها قالت له إنها شمَّت رائحة غريبة منبعثة من بشرتها ذكَّرتها برائحة التخدير التقليدية المميزة لغرفة العمليات الجراحية فى المستشفيات .

ابتسم عبد الرحمن بك فى نفسه لهذه المبالغة فى الخوف على مهجة ، فهى فتاة قوية ولم تكن تمر بأزمة عاطفية أساسًا ، وسوف تعود إلى قمة حيويتها بمجرد انهماكها فى الإعداد للزواج السعيد ، بدليل أنها أجابت أمها بأنه مجرد تعب تقليدى مما جعل الأخيرة تعتقد أن الدورة الشهرية هذه المرة كانت مضطربة بعض الشىء نتيجة للتوتر النفسى الذى مرَّت به ، وسرعان ما تعود المياه إلى مجاريها .

بمجرد أن أعلنت مهجة موافقتها على يسرى ، سارت الأحداث بسرعة لم تكن تتوقعها أبدا . كان أملها أن تطول فترة الخطبة عسى أن يستجد ما يغيِّر مسار الأحداث وأن تعود مرة أخرى إلى أحضان وجدى التى تموت شوقًا إليها . لكن لسوء الحظ كان كل شىء ميسَّرًا ،. الشقة محجوزة مقدمًا فى الطابق الثانى من عمارة أبيها ، والأثاث يمكن شراؤه من أفخر الأنواع والطرز فى يومين أو ثلاثة . كما أن يسرى كان عجولًا للغاية لكثرة

أسفاره ، فأراد أن ينتهى من الزواج قبل رحلته القادمة إلى أوروبا كى يصطحب معه مهجة حتى يمزج العمل بشهر العسل ، ويضرب بذلك عصفورين بحجر . ولكى يتم المهمة بأسرع ما يمكن وضع اثنين من أشهر مصممى الأزياء فى خدمة مهجة حتى يتمَّا لها ثوب الزفاف وملحقاته وغيره من ملابس العُرس وأزياء شهر العسل . وكان قد أحضر معه قماش الثوب وجواهره من لندن مما أثار حنق مهجة لدرجة الاختناق . فقد صوَّر له غروره أن ترحيبها به حقيقة واقعة لا تقبل الشك أو الجدل ، وأن رفضها إياه أمر لا يفكر فيه إنسان منحه الله نعمة العقل .

لا تعرف مهجة لماذا كانت تصر دائمًا على اصطحاب أمها معها فى كل مرة كانت تخرج فيها معه فى عربته للمرور على معارض الأثاث وشراء ما يلزم الزفاف والحياة الزوجية ؟! لكن حيرتها تضاعفت عندما وجدته سعيدًا بوجود حماة المستقبل معه ، ولم تجد تفسيرا لهذا السلوك سوى أنه أعجب بتحفظها الذى يدل على أخلاقها القويمة ، فى حين أنها لم تكن مستريحة للانفراد به . كان دائما فى موضع مقارنة بوجدى الذى كان يفوز عليه فى كل مرة : وجدى الذى لا يملك شيئًا فى حين يملك هو كل شىء حتى أصبحت ضمن ممتلكاته . لكن إحساسًا غامضًا غريبًا كان يؤكد لها أنها ملك وجدى جسدًا وروحًا ، وهو إحساس لم يعد له أساس واقعى ، ومع ذلك أثار فى داخلها نوعا من النشوة التى لم تدْر كنهها ، والتى لم تقاومها كثيرا ، ففى قرارة نفسها لا تريد أن تقلع عن الإدمان القديم بعد أن جرى فى عروقها مجرى الدماء . حتى العملية التى أجرتها أخيرا بمساعدته لم تجلب لها السعادة ، فقد كانت تعشق كل بصماته التى ازدان بها جسدها ، والتى لا تزال تستشعرها حتى الآن . إن ما فعله لها فى الفترة الأخيرة برهن على عمق حبه لها ، وتمنَّت حلول اليوم

الذى تثبت له فيه أن حبها له لم يكن أقل عمقا . حتى اللقاءات العابرة والاتصالات التليفونية حرَّمها على نفسه حتى لا يثير حولها أية شبهة ، وإن كان قد وعدها باستئنافها بطريقة خفيَّة بعد أن تنحسر الموجة .

إنها تدرك جيدا أن مجرد هذه الأحاسيس ليس من حقها ، ولكنها تدرك أيضا أنه لا حيلة لها فيها . ولولا دوامة الإعداد للزفاف لمزَّقها الحنين لوجدى الساخن الملتهب المتجدد المنطلق المتحفز دائمًا ، تدفعها إلى ذلك برودة يسرى الثلجية ونعومته التى تكاد تذوب رقة ، وكثيرا ما سألت نفسها : كيف قبلت الزواج منه بهذه البساطة ؟! هل هى صرامة أبيها ؟ هل هو خوفها من حياة الفقر التى لم تجربها من قبل ؟! هل هو تراجع وجدى أم تضحيته كما يسميها ؟! ألم يعد الحب قيمة مطلقة فى حد ذاته ؟ أم أن الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية أصبحت السياج الحديدى الذى لا يمكن للعشاق تخطيه ؟! وكيف يولد الحب بين اثنين يشترط أن يكونا داخل هذا السياج ؟! كانت تؤمن بأن الحب بطبيعته لا يمكن أن يخضع لأية شروط ، لكن يبدو أن الإنسان قد ابتكر من الشروط ما يحتم قتل الحب فى مهده ؟! أما الذى يصر على رفض هذه الشروط ، فعليه أن يعيش طريد المجتمع !! وقد هربت من هذا المصير بمساعدة وجدى نفسه !! أما وجدى فتكمن مأساته فى أنه طريد المجتمع دون ذنب سوى فقره ونبوغه !! وسيظل هكذا سواء رضخ لشروط المجتمع وضغوطه أو رفضها !!

لم تجد مهجة إجابة مقنعة على أى من هذه الأسئلة ! ولذلك كفَّت فى النهاية عن التساؤل ، فربما حمل المستقبل إجابات لم تكن فى الحسبان ، وطالما أنها تخوض الآن هذه الأحراش من الأسئلة المتشابكة المعتمة ، فلا تملك سوى أن تترك نفسها للتيار الذى تدفق فجأة وبمنتهى

العنف ، منذ تخرجها . لكن الخاطر الذى استكانت له كطفل استكان لصدر أمه ، أن وجدى كان أول رجل فى حياتها وربما أصبح آخر رجل فيها !! أما يسرى فمجرد قنطرة للعبور بين عهدين !!

وسرعان ما حلّ حفل الزفاف الذى عقد فى فندق فاخر سمّى بـ « أبى الهول » لإطلاله على التمثال الخالد . احتشدت القاعة بعيون القوم ونجوم المجتمع المخملى : عيون جريئة لامعة مبتسمة ، وصدور نافرة من فساتين السهرة الداكنة المتألقة ، وخواتم وعقود وأقراط تنافس المصابيح فى لألائها ، وعطور تفوح وتتلاقى فتحدث مزيجًا من عطر ليس له مثيل فى نشوته المسكرة ، وقهقهات مترعة بالشبع والاعتزاز بالنفس ، وابتسامات بعضها برىء وبعضها الآخر يحمل من شحنات الكلمات فى لحظات ما يعجز عنه حديث فصيح مسهب فى ساعات ، ونظرات وإيماءات وتحيات طغت عليها دفقات الموسيقى الصادحة من فرقة تعزف كل ما هو مستورد من ألحان .

أما الضجيج داخل مهجة فكان أعلى صخبًا من ضجيج الموسيقى ، منذ أن لمحت أبا الهول قابعا على البُعد خلف الجدار الزجاجى للقاعة ، تذكّرت لقاءها المصيرى مع وجدى فى صباح ذلك اليوم القائظ المشبَع بالرمال والأتربة ، كان اللقاء قبل الأخير الذى اصطحبها فيه إلى عيادة الطبيب الذى أجرى لها العملية إياها ! هل يدرى هذا الجالس المترهل البدين ذو الكرش المترع ما فعلته بنفسها منذ عشرة أيام فقط ؟! إن ثقته البالغة بنفسه والتى زادت من وزنه فى الفترة الأخيرة ثلاثة كيلو جرامات كما قال لها ، هذه الثقة لا يمكن أن تسمح لخاطر مثل هذا أن يمر على ذهنه ، ولو مر الكرام !.

ودّت مهجة لو سمع يسرى تعليق بعض الفتيات الساحرات اللاتى

لاحظن فارق السن الكبير بينه وبينها ! لكنها سرعان ما أيقنت أن غروره كفيل بمقاومة أية هجمة من هذا النوع . ومع ذلك فإن الخبرة التى تعلمتها على يدى وجدى لا بد أن تسلحها بما قد لا يملكه من أسلحة ، وخاصة بعد أن علمت بطرقها الخاصة أنه سبق له الزواج من ابنة عمه ، التى سرعان ما طلّقت منه برغم التقارب فى السن بينهما ، وهى المعلومة التى أخفاها عنها أبوها الذى ينظر إليها الآن سعيدًا راضيًا منتصرا . ولم يخرج تفسير مهجة لهذا الطلاق المبكر عن عجزه عن مجاراة زوجته التى سرعان ما تزوجت بآخر وعاشت معه سعيدة قريرة العين حتى الآن !

لم تنزعج مهجة لهذا الخاطر ، بل على النقيض من ذلك تماما ، سعدت له ، لأنه لو ثبتت صحته فإنه سيمنحها المبرر لعودتها إلى وجدى ولو فى الخفاء ، دون تأنيب من ضمير . ففى النهاية كل إنسان مسئول عن أفعاله . إنه يجلس الآن سعيدا ، تضاعف التهانى والتحيات والأحضان والقبلات من غروره . لكنه — دون أن يدرى — كشف عن نقطة ضعف فى شخصيته عندما كانوا يتجولون بين محال الأثاث ، إذ قال لأمها مبتسمًا إنه تجاوز الثلاثين بقليل ، وجارته أمها على سبيل مسايرة الأمور ، لكنها كانت تؤمن أنه اختصر من عمره عشر سنوات على الأقل ، عمره الذى أخفى حقيقته مثل النساء ولم يبرز أى مستند يثبت حقيقته ، ولو كانت ثقته بنفسه حقيقية لما كان عنده ما يخفيه عن الآخرين .

انتهى حفل الزفاف فى الثانية صباحا حين وجدت مهجة نفسها لأول مرة منفردة به فى جناح يقع فى أعلى طابق من طوابق الفندق ويطل على أبى الهول الذى بدت خطوطه المهيبة فى ضوء القمر . جلست على حافة الفراش لا تستطيع إبعاد عينيها عن التمثال . استأنف يسرى سلوك الأرستقراطى المهذب فابتسم مستأذنًا وذهب ليرخى الستار الأبيض الذى

غطّى الزجاج تمامًا . جلس إلى جوارها . قبّل جبينها بحركة مهذبة ، فلم تستجب أو تنفعل بل ظلّت قابعة فى مكانها تنظر إلى السجادة الحمراء التى غطّت أرض الغرفة من الجدار للجدار .

سعد يسرى لخفر العذارى الذى انتابها . يجب أن يؤكد لها بسلوكه أنه ليس من النوع المتوحش الذى يفترس مثل هذه النضرة المبكرة والفتنة الناعمة . أزاح الطرحة والتف بذراعيه حول خصرها مقبّلا وجنتيها . طفح غروره مرة أخرى فأغرقه حتى أذنيه . إن استكانتها هذه تدل على سلبيتها المريحة ، فهى لم تطلب منه أكثر مما يحتمل . تذكر زوجته السابقة وجرأتها فى المطالبة بحقوقها الزوجية كما لو كانت تتحدث عن طعام مفضّل لها . وعندما شعر بتذمرها المكتوم طاردته أشباح الخيانة ، ففاتحها فى موضوع الطلاق وكانت دهشته بالغة لترحيبها الدبلوماسى بالفراق . أما هذه العصفورة المستكينة أو الحمامة الوديعة فلا خوف منها . كان يخشى أن ترفضه ، لكنه لم يجد أية مقاومة على الإطلاق . سار كل شىء كالنهر المتدفق دون عوائق . إنها الفتاة التى كانت تراوده فى أحلام صباه . أخيرًا عثر عليها فليهنأ بها .

بدأ فى فك أزرار فستانها وهى مستسلمة له تماما ، لكن اللقاء بين العيون لم يتم . قرّر أن يجنّبها المزيد من الخجل والحرج ، فمزج الشهامة بالفتوة وأطفأ أنوار الغرفة . تحسس أزرار فستانها الذى اشتراه لها من لندن وعندما فك الأزرار الثلاثة تحت شعرها المتهدل ، فتح السوستة حتى أسفل الظهر ، وكلما واصلت استكانتها ، اشتعلت رغبته برغم إجهاد اليوم الطويل . لكنه لن يفتح شهيتها لكل الملذات حتى يتفادى الخطأ الذى ارتكبه مع زوجته السابقة ، هذه الشهية بالوعة إذا فتحت واتسعت ، فإن سدّها يتحول إلى عبء ثقيل ينفرط تحته عقد المتعة .

جرَّدها تماما من ملابسها . وأدركت وهى تنظر فى الظلام اللانهائى أنه أصبح كما ولدته أمه من ملامسة جسده لها . سرت فى جسدها قشعريرة اهتز لها ، فظن أنها بداية الاستجابة الوجلى . كانت الرطوبة المنبعثة مع طراوة جسده قد أوحت إليها بأنها تنام مع ثعبان سمكى فقد الحياة بمجرد خروجه من الماء ، ولذلك سيطر عليها إحساس قاتل بالبلل ، منع النوم من التسلل إلى عينيها الآخذتين فى الاتساع .

— ٥ —

قضى وجدى أسبوعين على قدميه باحثًا عن وظيفة مرموقة تليق بامتيازه ونبوغه . لكنه فى نهاية البحث تأكد أن ما قاله له العميد يوم تخرجه لم يكن استثناء من القاعدة بل كان القاعدة نفسها ، تذكرِ المثل الذى سمعه فى صباه فى قريته أبى رواش : مَن له ظهر لا يضرب على بطن ، ثم المثل الذى عرفه فى شبابه : يا بخت من كان النقيب خاله . اكتشف أن ظهره عار تماما وأن النقيب لا ينتمى إلى أسرته بِصِلة من قريب أو بعيد .

أوصدت شركات الأدوية أبوابها فى وجهه ، وإن كان بعض المسئولين قد طلب بياناته فى رقة متناهية لاستدعائه عند وجود الوظيفة الشاغرة . لكن وجدى كان واثقا أن صندوق القمامة هو مصير هذه البيانات بمجرد أن يدير ظهره للمسئولين . كان يسبح ضد التيار بشخصه الضعيف المحتاج إلى شخص كبير قوى يلبس خاتم سليمان الذى يفتح له الأبواب الموصدة بمجرد مكالمة تليفونية أو بطاقة توصية .

فى الأسبوع الثانى من البحث أصبح أكثر تواضعا وحفيت قدماه فى التردد على الصيدليات ، لكن العروض التى تلقاها مقابل العمل طوال

النهار فى الصيدلية لم تزد إلا قليلا عن العرض الذى نقلته خيرية على لسان حالها إلى وجدى فى المرة الوحيدة التى شهدت لقاءهما طوال الأسبوعين . وهذا الفرق القليل سيضيع فى المواصلات بالإضافة إلى الجهد اليومى المبذول فيها ، ولذلك بدت صيدلية خال خيرية القريبة من منزله كالقدر المتربص به بعد أن ظن أنه لن يعود إليها .

التحق وجدى « بصيدلية النجدة » مرة أخرى ، لكن العجوز تركها له ساعات طويلة بعد أن اطمأن لوجود وجدى الشرعى وذهب ليستريح فى بيته أو شقته التى تقع فوقها . ومع ذلك لم تكن ثقته به على ما يرام إذ ترك معه طوال النهار صبيًّا ، تتمثل وظيفته ظاهريًّا فى مساعدته وتلبية طلباته ، أما فى حقيقة الأمر فكان يرصد حركاته وسكناته ، بل ويحاول أن يسترق السمع كى يحفظ عن ظهر قلب المبالغ التى يدفعها الزبائن . وقد حاول وجدى مرارًا الضغط عليه وإرهاقه ، لكن الصبى صمد فى إصرار عجيب جعله يشعر أنه يقف فى طابور الذين ابتلى بهم ، طابور العميد وعبد الرحمن بك ويسرى وكل الذين أوصدوا الأبواب فى وجهه .

لكن الوضع الجديد الذى أقلقه فعلا هو التحول الذى طرأ على خيرية ، إذ يبدو أن تخرجه قد جعلها تفكر مليًّا فى الزواج منه ، وأن معاش زوجها الضخم الذى تضاءل مع ارتفاع الأسعار ، لم يعد مغريا بما فيه الكفاية حتى تقضى بقية عمرها دون زواج . فإذا كانت مغرية ومطلوبة الآن ، فإن الأيام لن ترحمها ولن تجد فيما بعد من يدق جرس بابها ! إنها تحب وجدى بل وتعشقه ، لكن ما فائدة كل هذا إذا كان هو نفسه أول الفارين عند نضوب معينها ؟! إنها امرأة خبرت الحياة وتحب مواجهة حقائقها مهما كانت مرَّة .

اتصل بها وجدى مرارا بالتليفون فى غيبة صبى الصيدلية ، إذ أن الدكتور

بيومى صاحبها لا يعرف سوى أن وجدى مجرد أخ لجارة ابنة أخته فى العمارة . كانت خيرية فى كل مرة تعتذر له عن لقائه بسبب استضافتها لأختها الصغرى المعارة للسعودية والتى جاءت لقضاء إجازتها فى مصر ، وهى الإجازة التى لا تعرف متى تنتهى ؟! وكان فى الإمكان أن ينتظر وجدى ، لكن الذى أقضَّ مضجعه تغيُّر نبرة خيرية وأسلوبها الذى بدا عليه التحفظ لأول مرة ، وعدم استعجالها لسفر أختها . وتذكر فى السنوات الخالية عندما زارته فى غرفته على السطح هربا من ابنة عمتها التى ظلّت فى ضيافتها مدة تزيد على الشهر .

لم يجد وجدى تبريرًا لهذا السلوك سوى أن خيرية تضغط عليه حتى يتزوجها . وقد انتهزت فرصة وجود أختها لتتخذ منه ذريعة لاختبار حقيقة نواياه تجاهها . أدرك أخيرا كم كان غبيًّا عندما ذكر أمامها فارق السن بينهما ! وإذا طارت من يده فلن يبقى له إنسان فى الدنيا بعد فراق مهجة التى لا يعرف متى سيستردها ، هذا إذا كان فى إمكانه أن يستردها على الإطلاق ، فربما استراحت لحياتها الجديدة ونسيته تماما . صحيح أنه منحها من الحب والمتعة ما لا يمكن أن يقدمه لها هذا الكهل المتصابى ، لكن من يعرف ما يمكن أن تأتى به الأيام ؟! ومع ذلك يتحتم عليه أن يكون دقيقا فى حساباته قدر الإمكان ، وأن يسير على كل الحبال الممكنة حتى إذا انقطع أحدها استطاع السير على آخر . ولذلك قرَّر الزواج من خيرية ، فهى تملك شقة وميراثا لا بأس به ، وسوف يعوضها بكدحه وكفاحه عن معاش زوجها الراحل ، أما فارق عشر سنوات بينهما ، فمن السخف أن يقف فى طريق انتمائه إلى إنسان لم يعد له غيره على وجه هذه الأرض ، فإذا كان قد خسر معركة الامتلاك ، فلا بد أن ينتصر فى معركة الانتماء .

حزم أمره أخيرا وقرر لقاءها بأى ثمن . قبل إغلاق الصيدلية وقت الظهيرة أرسل الصبى لشراء طعام الغداء له . اتصل بها تليفونيا فقابلته بتحفظ متزايد وكررت على مسامعه الأعذار نفسها ، لكنه أصر على اللقاء لأنه لن يناقش معها أى موضوع فى التليفون . ويبدو أنه نجح أخيرا فى إثارة حب استطلاعها فوافقت على اللقاء الطارىء السريع ، لكن خيبة أمل غامضة أصابته عندما اعتذرت عن لقائه بمنزلها ، وقبل أن يسأل عن السبب حدَّدت له مكان اللقاء فى كازينو صغير يقع فى قلب حديقة الأورمان ، فذهل لقدرتها على التفكير السريع وإدارة دفة الأمور بثقة .

أغلق الصيدلية دون أن ينتظر عودة الصبى بطعام الغداء . فقد كان الميعاد فى تمام الرابعة ، أى أنه لم يتبق لديه سوى ساعة واحدة كى يكون فى حديقة الأورمان . أسرع فى الطريق المترب الضيق الموازى لقضبان السكك الحديدية غير شاعر بلهيب شمس أوائل سبتمبر التى لم تبشر بعد برقة الخريف .

بلغ بيته وبلا وعى حرص على أن يبدو مهندما . حلق ذقنه فى دقائق وعطَّرها بزجاجة كولونيا أخذها من مندوب إحدى الشركات على سبيل عيِّنة للدعاية . ارتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديًّا بعد أن قام بتلميع حذائه الأسود . وقبل أن تصل الساعة إلى الثالثة والنصف كان يعبر قضبان السكك الحديدية . أدرك أنه لو اعتمد على الأتوبيس فلن يصل فى الميعاد ، خاصة وأنه لا يوجد أتوبيس مباشر حتى حديقة الأورمان .

استقل سيارة أجرة اخترقت شارع بين السرايات وسرعان ما وجد نفسه وهو يخطو داخل حديقة الأورمان باحثا بعينيه عن الكازينو المحدد . رأى بعض المقاعد والموائد المتناثرة حول بحيرة أو بركة صغيرة تتهادى فوق سطحها الراكد جماعات قليلة من الأوز والبط . لم يكن هناك إنسان ،

فالمقاعد شاغرة ، تلفَّت حوله فلم يجد حتى أثرًا للنادل .. جلس على حافة البركة يتابع مواكب الأوز والبط الصامتة لولا بعض الدوامات الخفيفة على السطح . نظر فى ساعته فوجد أنه جاء مبكرا قبل ميعاده بربع ساعة . انتابه إحساس بالعزلة . فالمكان يبدو كما لو كان البشر كلهم قد هجروه .

لم ينتشله من إحساس العزلة سوى سؤال قبع أمام مخيلته كأبى الهول الذى رآه آخر مرة مع مهجة : لماذا اختارت خيرية هذا المكان بالذات ؟! يبدو أن لها خبرة سابقة به ، وأنها تعرف أنه خير مكان لمناقشة الموضوعات المغرقة فى الخصوصية دون إزعاج من أحد ، وصمم أن يسألها عن السر فى اختيارها له ؟! فربما كانت على علاقة برجل آخر فى حين أنه قرر أن يتزوجها وأنه طلب هذا اللقاء خصيصًا لهذا الهدف ؟! أليس من المحتمل — وهى المرأة الذكية القوية — أن تكون على علاقة برجل آخر طوال الأربع السنوات الماضية ؟! لا .. هذا غير محتمل .. لأنه كان من السهل عليه أن يعرف هذا من سلوكها وكلامها دون أن تتورط فى الحديث الصريح عنه ! لكنه فعل نفس الشىء معها ولم تعرف شيئا عن علاقته بمهجة التى استمرت المدة نفسها ؟!

لم ينتشله من موجات التساؤل والإحباط المتلاطمة سوى صوت النادل الذى أفزعه قليلا عندما وجده واقفا أمامه فجأة وفى صمت مستمد من سكون المكان :

— تحت أمرك !!

اهتز وجدى قليلا لكنه استدرك :

— عصير ليمون من فضلك !

انحنى النادل فى رقة وأدب ثم ذهب إلى حال سبيله . اكتشف وجدى

العرق المتصبب على جبينه فمسحه بمنديله ، فلم تخفف كل هذه الخضرة من قيظ الظهيرة التى أسلمت نفسها للعصر . كانت ساعة يده القديمة تعلن الرابعة وعشر دقائق . نظر فى اتجاه البوابة الحديدية الكبيرة لكن أحدا لم يهل . رثى لحاله ، فحتى المرأة التى كانت تحت أمره دائما أصبح ينتظرها ملهوفًا قلقًا ذليلًا كسيرا ! لعن نفسه حين فرَّط فى مهجة ! كان من الممكن أن يكسر أنف أسرتها المتعالية ويعلن أمامها أن الابنة الرقيقة المهذبة الأرستقراطية قد فرَّطت فى شرفها تماما من أجله دون أن يجبرها على ذلك ، وأن مستقبلها ضائع لا محالة إذا لم يتنازل ويتزوجها متفضلا عليهم درءًا للفضيحة . لكن ثقته السخيفة فى نفسه أكَّدت له أن مصير مهجة إليه إن آجلا أو عاجلا !! هذه الثقة اهتزت الآن وهو فى جلسته هذه فى انتظار قدوم خيرية ! فى حين تتجول مهجة الآن بين ربوع أوروبا بعد أن قدَّمها بيديه إلى الرجل الذى يرافقها !! إنه يقدم شهر العسل للآخرين وهو الذى يتجرع المر قطرة قطرة ، ولحظة بلحظة .

لمح على البعد شبح امرأة قادمة ترتدى ثوبا كحليًّا آية فى الحشمة التى لا تلائم هذا الهجير . فى لحظات أدرك أنها خيرية التى سارت صوب الكازينو دون الالتفات يمنة أو يسرة . لا شك أنها تعرفه جيدا ولا بد أن يسألها عن السبب . لم يسترح لملامحها الجادة التى تقترب من حد الصرامة ، بل لاحظ بعض التجاعيد الخفيفة حول عينيها ورقبتها فى ضوء الهجير الذى يفضح ما لا يظهره ضوء الكهرباء بين جدران الشقة !.

حيَّته فى اقتضاب وهى تجلس ناظرة حولها وكأنها تخشى أن يراهما أحد سويا . رسم ابتسامة على شفتيه :

— لم أشعر بالوحشة قدر ما شعرت بها فى الفترة الأخيرة التى لم أرك فيها سوى مرة واحدة !

لم تستجب لابتسامته بضحكة رقيقة كما عوَّدته :
ـــ ليس كل ما يتمناه المرء يدركه !
ـــ لم أسمعك تقولين مثل هذا المثل من قبل ؟!
ـــ اكتشفت أنك كنت على حق تماما عندما قلت لى إن الفارق فى السن بيننا يجعل زواجنا غير متكافىء !!
أصابته فى الصميم وهو الذى جاء ليبشرها بقراره للزواج منها :
ـــ بل على النقيض من ذلك .. فقد اكتشفت خطل رأيى تماما .. ولذلك طلبت مقابلتك لحسم هذا الموضوع !
ـــ لا داعى لخداع أنفسنا .. فالفارق فى السن بيننا يزيد على خمسة عشر عاما .. أى أننى عندما أبلغ الخمسين ستكـــون أنت فى الخامسة والثلاثين !!
جاء النادل بكوب الليمون أمام وجدى وظل منحنيا فى رقة فقال وجدى لخيرية :
ـــ ماذا تفضِّلين ؟!
نظرت إلى النادل :
ـــ ليمون أيضا !
بمجرد أن غادر النادل المكان لاحظ وجدى أن وجهها الخمرى أصبح داكنا أكثر من اللازم :
ـــ طالما قلت لى إنك لا تتصورين الدنيا بدونى .. فماذا غيَّرك ؟!
ـــ شعرت أننى سأظلمك لأنك ستضيع شبابك مع امرأة على عتبة الكهولة !!
حاول الاستلطاف :
ـــ إن الشباب شباب القلب !!

— مجرد كلام للمجاملة !

لم يجد بدًّا من أن يلقى آخر ما فى جعبته من سهام :

— هل هناك رجل آخر فى حياتك ؟!

لم تهتز للسؤال المباشر بل فتحت شفتيها المكتنزتين فى هدوء :

— لم أعد أنظر إلى هذا الموضوع من هذه الزاوية .. لكن الفرصة تأتى إلى الإنسان مرة واحدة فقط .. فإذا لم يمسك بها ضاعت منه للأبد !!

مسح شعره الأكرت القصير بيد مرتعشة :

— وهل يمكننى أن أعرف هذه الفرصة ؟!

— تقدم مقاول مصرى يعمل فى السعودية طالبا يدى من خالى !

جاء النادل بكوب الليمون أمام خيرية لكنها لم تمسه مثل وجدى :

— يبدو أنه جاء من طرف أختك المعارة هناك ؟!

— ليس هذا المهم .. وإنما المهم أنه رجل مناسب ويكبرنى بخمس سنوات !!

— وثرى طبعا ؟!

— له مشروعات فى كل من مصر والسعودية .. وعندما رفضت زوجته أن تصطحبه إلى السعودية .. بحث عن زوجة ترعاه هناك !

— لم أكن أعرف أنك نويت على السفر أيضا ؟!

— هناك يمكننى أن أرسل إليك عقد عمل !

— لكننى لن أستطيع رؤيتك أو لقاءك ؟!

قالت بمنتهى الحسم وهى تبعد قطة سوداء حاولت التمسح بساقيها :

— إننى إذا كنت قد أخلصت لك دون أى رباط بيننا .. فمن باب أولى أخلص لزوجى !

لم يعد هناك ما يدعوه إلى الحرص على مشاعرها :

ـــ وهل يمكنه أن يصبح ندًّا لك ؟!
ـــ إنه فى منتهى الحيوية والنشاط ! وإلا لما أقدم على الزواج ثانية !!
آه .. لم يعد معبود النساء ! ولا بد أن تكون مهجة قد بلغت هذه القناعة قبلها ! إذًا فليتحدث حديث العمل :
ـــ وماذا عن وعدك لى بجعلى شريكا فى صيدلية خالك ؟!
ـــ ولا زلت عند وعدى .. وإن كنت أظن أن خالى لن يوافق !
حبست بين شفتيها المكتنزتين كلمات كانت على وشك النطق بها :
ـــ وما الذى دعاك إلى هذا الظن ؟!
ـــ اشتكى خالى من أنك تستولى على عيِّنات الأدوية والعطور لنفسك دون علمه !! كما أن الحساب فى بعض الأيام لم يكن مضبوطا !!
تحفَّز وجدى وقال بنبرة لا تحمل أية عاطفة ودية :
ـــ إذا كان خالك يعتمد فى مراقبتى على هذا الصبى اللعين .. فأنا لن أسمح لمخلوق أن يمس أمانتى من قريب أو بعيد .. إننى أعمل من أجله طوال النهار .. وإذا أخذت عيِّنة من زجاجات الكولونيا أصبحت مجرما أستحق الحرق . فهو لم يدفع مليما واحدا فى هذه العينة ! أما إذا كان يشك فى دقة حساباتى فيمكنه الاعتماد على صبيه .. وليترك لى عملية بيع الأدوية أو تركيبها !
توقف وجدى عن الكلام لالتقاط أنفاسه إذ شعر أن رطوبة الجو أصبحت خانقة عندما امتزجت بالهجير الذى عجزت الأشجار والحشائش والبحيرة عن تخفيف حدته . تابعت خيرية الأوز والبط محاولة تفادى عينيه فاستأنف ولسانه يقطر مرارة :
ـــ رضيت بالغلب والغلب لم يرض بى !!

قالت ولا تزال تتابع الأوز والبط :

ـــ يبدو أنك أصبحت تمقت الصراحة ؟!

ـــ إننى أحب الصراحة كما تعلمين .. ولذلك أسألك الآن : هل ينوى خالك أن يفسخ عقدى معه ؟!

ـــ لم يصل الأمر إلى هذا الحد .. فقد شهد هو نفسه بكفاءتك وخاصة فى الأدوية التى طلب منك تركيبها .. فإن ما قلته كان ملاحظة عابرة عندما ذكرتنى بوعدى بجعلك شريكا فى الصيدلية !!

حسد جماعات الأوز والبط على الطمأنينة التى تجسَّدت فى سباحتها الهادئة . تضاعف إحساسه بالمرارة :

ـــ يبدو أنه حكم علىَّ أن أخرج من هذه الدنيا كما أتيت إليها تماما ؟!

ـــ لا تكن متشائمًا هكذا .. فأنت شاب قوى ومتفوِّق والمستقبل أمامك عريض ومفتوح على مصراعيه !

لمعت فى عينيه ومضات إصرار مخيف :

ـــ لا أوافقك على أنه مفتوح على الإطلاق .. لكننى سأفتحه عنوة .. لن أندب حظى بعد اليوم مثل اليتامى والأرامل !!

نظرت فى عينيه متسائلة فى دهشة :

ـــ ماذا قررت أن تفعل ؟!

ـــ قررت أن أختار طريقى وأسير فيه كما فعلت أنت تماما !!

شعرَت أنه سد طريق الحوار فى وجهها :

ـــ على كل حال أتمنى لك التوفيق !!

نظرت إلى ساعتها فنهضت مستأذنة :

ـــ قلت لأختى إننى لن أتغيب أكثر من نصف ساعة .. وقد أصرَّت

على أنها لن تتناول طعام الغداء إلا معى !!

نهض بدوره مادًّا يده ومعلقًا :

ـــ لم تتناولى الليمون ؟

ـــ شكرا .. لا أحب تناوله قبل الغداء !!

سلَّمت بطريقة تدل على خوفها من أن يسير معها ، لكنه أدرك فى الحال ما يدور داخلها :

ـــ يبدو أن طريقينا لا يسيران فى نفس الاتجاه .. تفضلى أنت مصحوبة بالسلامة .. وسأذهب أنا لدفع الحساب !!

رسمت ابتسامة على وجهها وعادت من حيث أتت ، فى حين ذهب وجدى إلى مبنى الكازينو الصغير . لم يعرف سر القوة والراحة التى سرت فى عروقه ، بل إنه لم يدرك السبب فى منحه النادل بقشيشًا كبيرا . خرج عائدا إلى البركة فوجد كوبى الليمون كما هما . تجرعهما وراء بعضهما البعض . وجد القطة السوداء التى طردتها خيرية بساقها ، تلتهم عصفورًا صغيرا بكل ريشه ، لكنه لم يرث له كما تعود من قبل فى صباه الذى قضاه فى أبى رواش .

ـ ٦ ـ

عادت مهجة من رحلة شهر العسل التى استمرت فى الواقع شهرين ولم تخرج عن حدود لندن . كانت تظن أن زوجها أعد لها برنامجا حافلا يشمل عدة مدن متفرقة فى أنحاء أوروبا . لكنه شرح لها فلسفته فى مزج العسل بالعمل حتى لا يفقد العسل طعمه ، وحتى لا يصبح العمل سخرة متصلة . كان يتركها وحيدة فى بعض الأحيان فى الصباح لمقابلة المسئولين عن توريد قطع الغيار لمصنع البطاطس الشيبس الذى يقيمه فى القاهرة . وفى المساء كان يتردد معها على الأماكن السياحية والأندية الليلية حتى تحولت المسألة إلى روتين ممل جعلها تترقب اليوم الذى تعود فيه إلى مصر .

أما الليل فكان مرتعا لذكرياتها مع وجدى . فقد عادت الذكريات لتهاجمها بعنف بمجرد الاستقرار فى لندن ، واستسلمت لها تماما عندما وجدت فيها إشباعا لم يوفره لها ذلك النائم المطمئن إلى جوارها الذى كثيرا ما يدعى الإجهاد نتيجة لعمله الشاق طوال اليوم ، فحياة رجل الأعمال تختلف عن حياة الموظف التقليدى الذى لا يحتاج إلى إعمال فكره . لكن كل هذه الحجج التى تلفحت بأردية الرقة والنعومة الحريرية لم تنطل على مهجة التى لم تتفق معه فى أن هدف الجنس هو الإنجاب قبل المتعة . فقد أحست أنه يسعى سعيا حثيثا لدفعها إلى الإنجاب . كانت تنوى استخدام وسيلة من وسائل منع الحمل ، فهى لا تزال صغيرة والحياة أمامها طويلة ممتدة ، لكنه ظل يرهبها فى حديث متكرر حول الآثار الجانبية المدمرة لهذه الوسائل .

كانت تعتقد فى أول الأمر أن شعوره بأنه تخطى الأربعين يدفعه إلى الإنجاب بأسرع ما يمكن ، لكنها اكتشفت ـــ بالإضافة إلى هذا العامل ـــ رغبته فى أن تنشغل بمتاعب الحمل والولادة ورعاية الطفل . فعلى الرغم من أنها لم تطلب منه تلبية رغبة معينة لها بعد أن عرفت حدود إمكاناته ، فإنه كان يشعر فى مواجهة عينيها الواسعتين اللامعتين باللون البنى الفاتح بنقص ممزوج بإحباط . كانت أخته الصغرى هبة قد دفعته إلى الزواج منها حتى يجدد شبابه بها ، لكنه أدرك خطأه الآن بعد أن أصبح همه الأساسى مقاومة دبيب الشيخوخة المبكرة داخله . لم يكن يليق به أن يستمع إلى نصيحة أخته التى لم تتجاوز سن المراهقة بعد .

أقبل على تناول الفيتامينات والمقويات بنهم بالغ دون استشارة طبيب . لكنها عادت عليه بنتيجة عكسية تماما . فقد أصابته باضطراب فى المعدة والأمعاء أوشك أن يقضى على البقية الباقية من رغبته فى الجنس . وأخيرا وجد حلا لا بأس به فى التعلل بالإجهاد فى العمل كلما تسربت الرغبة من بين أصابعه . لكنها لم تضغط عليه أو تطارده ، بل وجدت ملجأ ممتعا فى اجترار ذكرياتها مع وجدى لدرجة أنها كانت تستيقظ فى بعض الأحيان وهى تستشعر لمساته على أجزاء متفرقة من جسدها .

بمجرد عودتها إلى مصر فى أواخر أكتوبر الذى كان حارا جدا إذا ما قورن بأكتوبر لندن ، اجتاحت جسدها رغبة قاتلة للقاء وجدى بأى ثمن . لكن كيف ؟! هناك من المحاذير الاجتماعية ما يجب عليها أن تحسب له ألف حساب خوفا على نفسها وعليه فى الوقت نفسه . بحثت عن محاذير كامنة فى ضميرها فكان نداء جسدها أعلى من صوت ضميرها . بل إنها آمنت بأن زوجها لم يراع ضميره يوم فرض نفسه عليها ودفع أباها إلى تزويجها منه قسرا . وها هى الآن سجينته ، تتقلب على

جمر من نار أعجزه عن القيام بعملية الإطفاء ! لو وجدت الإشباع مع زوجها ، فربما كان صوت ضميرها أعلى من ذلك . لكن ماذا تفعل بالبركان الذى أوشك على إطلاق حممه من فوهتها ؟! فى حين استعد له يسرى بكوب من الماء المثلج والبللور الفاخر !!

لم تكن تعرف شيئا عن وجدى بعد آخر لقاء بينهما فى اليوم الذى أجريت لها العملية فيه . كان كل ما قاله لها هو رغبته فى البحث عن عمل ، مع نصيحته بعدم الاتصال به إلى أن تتضح الأمور . وها هى وقد عادت إلى مصر منذ أسبوعين ولم يتصل بها برغم أنها كتبت له رقم تليفونها الجديد بخط يدها بعد عودة الوعى إليها فى أعقاب العملية . هل يمكن أن تكون قد أخطأت فى كتابته وهى لا تزال تحت تأثير بقايا المخدر ؟! كانت تهرع إلى التليفون ملهوفة مع كل رنين جرس ، لكن سرعان ما يحط عليها الإحباط عندما تسمع صوت أمها أو أبيها أو أن المكالمة خطأ ! كما أن أخاها حلمى لم يتصل لها منذ عودتها ، وهو الوحيد الذى تأتنس برأيه .

أما الذى ضايقها بالفعل فهو تردد هبة ، الأخت الصغرى لزوجها ، عليها بصفة شبه منتظمة . كانت تحاول اكتساب صداقتها ، لكن مهجة — وإن بدت رقيقة فى معاملتها لها — إلا أنها لم تشعر داخلها بأى ميل حقيقى تجاهها . كانت قد نجحت فى الثانوية العامة وحصلت على مجموع يؤهلها للالتحاق بالكلية التى ترغبها . فنصحها أخوها بالالتحاق بكلية الصيدلة حتى تجد عند مهجة المساعدة اللازمة فيما يستعصى عليها من دروس ومحاضرات . كان كل هم يسرى أن يشغلها بأى شكل لحين وصول الوليد الذى يتمناه من الأعماق . وطالما أنه لم يشرفهما حتى الآن ، فلتنشغل مهجة بهبة التى التحقت فعلا بكلية

الصيدلة .

لكن عقل مهجة تفتق عن فكرة جديدة تماما ، وهى التى تعلمت على يدى وجدى تحويل الظروف المتاحة لتلائم هواها ! فطالما أن يسرى مهموم بشغل وقت فراغها ، فلماذا لا تطلب منه الموافقة على إنشاء الصيدلية فى المحل الشاغر المحجوز لها أسفل العمارة ؟! إنه اقتراح رفضه عندما تقدم لها ، لكن الظروف تغيرت ولا بد أن آراءه العتيدة تكون قد تغيرت بدورها ! وهى بدورها كانت تبحث عن متنفس لطاقتها المكبوتة حتى لا تنفجر داخلها ، طالما أن وجدى لم يبد فى الأفق بعد . لكن هل يمكن ألا يبدو على الإطلاق ؟! إحساس ممض وثقيل كاد أن يطحنها تحت وطأته .

لاحظت هبة لهفة مهجة على الرد على المكالمات التليفونية بحيث كانت تأتى لاهثة من أى مكان فى الشقة ، مهما كان بعيدا ، كى لا تترك لها فرصة الإمساك بالسماعة . وذات مرة أمسكت بها لكنها لحقتها وانتزعتها منها . كانت مهجة آذانا صاغية للجرس برغم أنها اتفقت مع وجدى فى آخر لقاء على شفرة معينة تمنع أية شبهة . فإذا تصادف ورد على التليفون يسرى أو غيره فإنه سيسأل عن شخص يدعى توفيق بك ورقمه قريب جدا من رقم مهجة بحيث تعلم أن وجدى اتصل ، إذ عندما يسأم يسرى من كل هذه المكالمات الخطأ ، لا بد أن يعبر لها عن ضيقه من هذا الشخص المصر على طلب توفيق بك حيث لا يوجد توفيق بك . لكن حتى الآن لم تسمع أحدا طلب هذا الاسم ، إذ أن الاتفاق كان ينص على طلب توفيق بك حتى فى حالة رد مهجة عليه وذلك زيادة فى الحيطة . فإذا كان يسرى أو غيره موجودا فسترد بأن الرقم خطأ وتضع السماعة ، أما إذا كانت بمفردها والجو خال فستسأله : توفيق بك من ؟! يرد عليها :

توفيق بك توفيق ثم تبدأ المكالمة .

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث ، لدرجة أنها فكرت فى زيارته فى شقته والسؤال عنه بعد أن انتابها شعور بأنه من المحتمل أن يكون قد سافر للعمل بأى بلد عربى . ركبت عربتها ذات صباح وانطلقت حيث اعتادت لقاءه عند قضبان السكك الحديدية ، لكنها لم تجرؤ على عبورها إلى حيث يقطن ، وعادت بحنين يكاد يقتلها إليه : صورته الساخنة فى مخيلتها ، كلماته المغرية والحكيمة تطن فى أذنيها ، لمساته الحانية والضاغطة تنفذ من مسامها . كانت السيارة تنطلق فى جنون أدهش قائدى السيارات المحيطة لهذه الجميلة الجريئة التى تنافس سائقى الأجرة فى لهفتهم على التخلص من الزبائن . لم تكن تدرى أى فستان ارتدت ، لكنها بمجرد دخولها الشقة اكتشفت أنها كانت ترتدى فستانها الأحمر ، وحذاءها وحزامها اللذين ينافسان حقيبتها الصغيرة فى لونها الذهبى اللامع ، فتذكرت أنها لم ترتد هذا الزى منذ ظهور نتيجة البكالوريوس ، لدرجة أن يسرى لم يره قط .

أما يسرى فقد أدرك خطورة الفراغ الذى تعيشه زوجته والقلق الذى ضاعف من عصبية تصرفاتها لدرجة أنها بدأت تدخن وهو الذى يخاف على صحته من التدخين . طلب منها أن تصعد لقضاء بعض الوقت مع أمها فرفضت . أصر على ملازمة هبة لها بصفة شبه منتظمة فلم ترحب بها . طلب حلمى فى بيته عدة مرات كى يأتى لزيارتهما ، لكن أحدا لم يرد . وعندما اتصل بجريدته علم أنه فى جولة صحفية فى الخارج . أحضر لها مجموعة شائقة من الأفلام التى يمكن أن تسليها ، لكنها لم تجلس أمام جهاز الفيديو أو التليفزيون إلا للحظات ثم انتابها السأم .

ذات ليلة شعر بها تتقلب فى عصبية فأدرك أن الظلام لم يبث النوم فى

جفونها . سألها دون أن يلمسها :
ـــ ألم تنامى بعد يا مهجة ؟!
ـــ لا تشغل بالك .. سرعان ما أنام !
ـــ أهناك ما يقلقك ؟!
نضحت نذر السخرية المريرة على قمم نبراتها :
ـــ يبدو أن سبب قلقى أنه لا يوجد ما يقلقنى !!
ربت على كتفها فى حنان رقيق :
ـــ سرعان ما يرزقنا الله طفلا يملأ فراغ حياتك !
ـــ لم يخطر على بالى هذا إطلاقا !
ـــ أرجوك .. قولى ماذا بك ؟! حتى أعرف كيف أساعدك !!
ـــ لا تحمل همى .. فإن لديك ما يكفيك من المسئوليات والمشاكل !
ـــ لقد نجحت فى حل المشاكل التى واجهتنى .. ولا يعقل أن أفشل فى حل مشاكلك البسيطة العابرة !!
حانت اللحظة المناسبة لما امتنعت عن قوله من قبل :
ـــ إن البكالوريوس الذى حصلت عليه لا يساوى الحبر الذى كتب به !!
ـــ إذا كان العمل كفيل بشغل وقت فراغك .. فليس عندى مانع !
ـــ لم ترحب من قبل بفكرة إنشاء الصيدلية ؟!
ـــ كنت أربأ بزوجتى أن تقف فى محل لتبيع لكل من هب ودب !
ـــ إننى لا أزال وسأظل صيدلية كيميائية !!
ـــ إنشاء صيدلية ليس بالأمر السهل !
ـــ سأستشير أهل الخبرة فى هذا المجال !

ــ للأسف فإن إمكاناتي وخبراتي ليست لها علاقة بهذا المجال !

ــ لا تحمل همي .. فالمسألة بالنسبة لي مجرد تسلية لشغل الفراغ !

ــ كما تريدين !!

فكرت في أن تقبله شاكرة لكنها رفضت الفكرة . فهو لم يرضخ لرغبتها إلا بعد أن تكشفت حقيقة قدراته أمامها . سرى الحماس في عروقها للمشروع الجديد . يكفي أنه سيمنحها حرية حركة لم تكن متوفرة لها من قبل .

ــ لماذا لا تردين ؟! هل نمت أخيرا ؟!

راقتها الفكرة فقالت وهي تدعي مغالبة النوم :

ــ تصبح على خير !

ــ وأنت من أهله !

ساد سكون عميق ثم علا صوت شهيقه وزفيره دون أن يصل إلى حد الشخير . رثت له من أعماق قلبها . زرع نفسه في مأزق كان في غنى عنه . تذكرت المثل المفضل لأبيها : رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه . ثم بدأت في الاجترار الليلي لذكريات وجدي وهي تحتضن الوسادة تكاد تعتصرها . فكم تمنت أن يعتصرها وجدي حتى لو أزهق روحها !!

لا يعرف وجدى لماذا تردد كثيرا فى الاتصال بمهجة ؟! جرب مرة حظه فلم يرد أحد ، فترسب داخله شعور قاتل بأنه سيدفع ثمن تفريطه فيها غاليا . فليس من المستبعد أن تكون قد طارت من يده كما أفلتت خيرية منه !! لم يشعر بالانتماء لأحد مثلما شعر تجاهها ! عندما عزم على الاتصال بها كان العجوز قد أكثر من وجوده فى الصيدلية بحيث لم يعد التليفون تحت أمره كما كان فى فترة خوفه من الاتصال بها وعدم العثور عليها .

مرت الأيام وأصبح تواجد العجوز شبه منتظم طوال اليوم لدرجة أن وجدى فكر فى الذهاب إلى عمارة مهجة والمرابطة حولها انتهازا لفرصة لقاء لكنه خشى ما لا تحمد عقباه . عاش أياما مملة لا طعم لها بين الأتربة المتصاعدة من الطريق الضيق الذى تقع فيه الصيدلية ، والزبائن المرضى المترددين لشراء الأدوية المطلوبة ، ومندوبى شركات الأدوية ومخازنها . وكان انفصاله عن خيرية قد شغل فكره بعض الوقت بعد فراقها ، إذ يبدو أن تجربته معها كانت مجرد تجربة جسدية عابرة برغم استمرارها ومواكبتها لنفس الفترة التى عرف مهجة فيها ، مما علمه أن تجربة الحب الحقيقى العميق تقاس بالكيف لا بالكم . فقد امتلكته مهجة جسدا وروحا وعقلا ووجدانا ، وتمنى فى أعماقه أن يكون قد امتلكها بالقدر نفسه ولا يزال . فإذا لم يكن قد امتلك شيئا فى حياته ، فيكفيه امتلاكه لهذه المخلوقة الباهرة برغم زواجها .

ذات صباح تخلف العجوز عن الحضور إلى الصيدلية فى موعده

التقليدى . دقت ساعة الحائط القديمة الحادية عشرة ولم يهل بطلعته الكئيبة بعد . كان الصبى منهمكا فى تلميع الخزائن الخشبية ذات اللون البنى الداكن الذى فقد لمعانه منذ سنوات عديدة ، والتى تغطى الجدران المتآكلة برفوف العلب والزجاجات ، ولم يكن أحد من الزبائن قد جاء بعد . انتهز وجدى الفرصة وحمل التليفون إلى غرفة السموم والمخدرات التى اقتطعت ركنا صغيرا ، أغلق بباب زجاجى دهن باللون الأسود ورسم عليه جمجمة فوق عظمتين متقاطعتين . وضع الجهاز على المائدة الصغيرة دون أى ضجيج فى الغرفة المظلمة التى حرص على عدم إضاءتها . أدار القرص بقلب واجف ، ومع الرقم الأخير بدأ الجرس فى الرنين ، لكن أحدا لم يرد مثلما حدث فى آخر مرة حاول الاتصال بها .

لا يمكن أن تكون فى أوروبا حتى الآن ! هل يمكن أن تكون قد كتبت رقم التليفون خطأ وهى لا تزال تحت تأثير المخدر ! لماذا لا ترد وتدفع عنه موجات اليأس والاحباط التى تكاد تغرقه ؟! لقد ملأت ذكرياتها حياته لدرجة أنه لم يفكر فى الاتصال بامرأة جديدة بعد فراقه لخيرية ، أو فراق خيرية له . هذا برغم البركان الهادر فى صمت داخله . ابتسم عندما تذكر أنه على الأقل يملك هذه الفحولة الجنسية التى لا ينضب لها معين ، والتى مكنته من الحصول على العون المالى لاكمال دراسته ، سواء على شكل إعانات وسلف من خيرية أو هدايا وهبات من مهجة .

كان الجرس لا يزال يرن فقرر وضع السماعة خوفا من قدوم العجوز ، لكن فى اللحظة التى فقد فيها كل أمل وهم باقفال السكة ، سمع من يرفع السماعة على الطرف الآخر ويقول بصوت لاهث لم يميزه لأول وهلة :

ـــ ألو !

كان قلبه على وشك أن يقفز من بين ضلوعه :

ـــ توفيق بك موجود !

ـــ توفيق بك من ؟!

عرف صوتها فأمسك صدره بيسراه حتى يمنع قلبه من القفز :

ـــ توفيق بك توفيق !

ـــ مستحيل !! أخيرا ! لا أكاد أصدق أذنى !!

ـــ كنت على وشك أن أضع السماعة بعد أن رن الجرس طويلا !

ـــ كنت فى الخارج وفتحت باب الشقة على جرس التليفون !

ـــ كنت أموت شوقا إليك !

ـــ أما أنا فلا أستطيع أن أعبر عن مدى شوقى إليك !

ـــ هل يمكننى أن أراك ؟!

ـــ طبعا ..

ـــ كيف ؟! ومتى ؟!

ـــ الآن !!

ذهل وجدى للمفاجآت المتتابعة التى لم تكن فى الحسبان بعد كل هذه المدة من الفراق اليائس . استدرك وهو يتبين ساعته فى ظلام الغرفة الضيقة :

ـــ الساعة الآن الحادية عشرة وعشر دقائق !

قالت فى حسم لم يعهده فيها من قبل :

ـــ سأراك فى الثانية عشرة فى المكان نفسه بجوار القضبان !

ـــ سأكون فى انتظارك يا روحى !!

ـــ وهو كذلك يا حبيبى !!

ـــ مع السلامة !

ـــ إلى اللقاء !

وضعت مهجة السماعة ففعل وجدى الشىء نفسه ، وخرج حاملا الجهاز حيث وضعه فى مكانه فوق المكتب فى المدخل . كان الصبى يتصنت عليه وأسرع بالتشاغل بكنس البلاط . كان وجدى على وشك أن يحسم الموضوع معه هذه المرة ، لكن ميعاد الثانية عشرة ظهرا ملأ عليه كيانه تماما . لم يكن العجوز قد وصل بعد . أصبح وصوله الآن أمنية عمره وإلا اضطر إلى غلق الصيدلية والذهاب للقائها وليكن ما يكون . إن السير إلى مكان اللقاء لن يستغرق على الأقدام أكثر من خمس دقائق ، فهو لن يحاول الرجوع لعبور المزلقان بل سيخترق القضبان مباشرة إليها . ولذلك فإنه لا يزال أمامه حوالى ثلثى ساعة .

بدأ الزبائن فى التوافد على الصيدلية ، فلبى وجدى طلباتهم بطريقة آلية سريعة فى حين كانت عيناه على ساعة يده تارة وعلى ساعة الحائط تارة أخرى ، وأحيانا يلقى ببصره عبر الباب والقضبان الحديدية حيث السيارة الحبيبة على وشك الوصول . عندما دقت ساعة الحائط الثانية عشرة إلا ربعا ، دخل زبون يسأل عن دواء أنكر وجدى وجوده برغم توافره . فهو لن يظل بعد هذه اللحظة تحت رحمة الآخرين . فى اللحظة نفسها دخل العجوز سائلا الزبون الذى كان على وشك الخروج :

ــ ماذا كنت تريد ولم تجده ؟!

قبل أن يفتح الزبون فمه قال وجدى للعجوز :

ــ لم يكن متأكدا من اسم الدواء الذى يريده !

سأل العجوز الزبون الذى كان يرتدى زى أولاد البلد :

ــ ماذا تريد يا بنى ؟!

ــ سلفا جوانيدين !!

نطقها الرجل بوضوح زاد من حنق وجدى الذى أمره العجوز بإحضار

المطلوب فأطاع فى صمت توفيرا للوقت . فكر فى ادعاء الدوار أو المغص كعذر للاستئذان لكنه احتقر نفسه . لم يتبق سوى عشر دقائق . وقف فى المدخل قائلا للعجوز :

ـــ أستأذن لعذر عائلى .. وسأعود بعد الظهر !

ـــ وهل لك عائلة هنا ؟!

ـــ سأذهب إلى المحطة لإحضار أخى !

ـــ يبدو أنها المرة الأولى التى يصل فيها إلى القاهرة !

ـــ فعلا .. عن إذنك !

ودون انتظار لرد انطلق وجدى عبر القضبان الحديدية وهو يمسح الأفق بعينيه لعله يعثر على سيارة صفراء . كان قطار الصعيد قادما من أسوان لكن وجدى لم ينتظره بل أسرع لعبور القضبان أمام القاطرة التى لم تكن بعيدة عنه إلا للحظات . واصل القفز فوق القضبان المتوازية والمتداخلة حتى وجد نفسه فوق الطوار فى انتظار الحلم الذى عاش على أمله . كانت ساعة يده تشير إلى الثانية عشرة إلا دقيقتين ، وطلائع نوفمبر تنشر نسيما رقيقا فى حين كانت بعض السحب الشفافة تداعب الشمس وتوشك أن تحتضنها مع وصول العربة الصفراء التى تحمل فى داخلها الوجه الصبوح الساحر الناطق بعشق الحياة وبهجتها .

انجذب لابتسامتها التى افتقدها كثيرا ، وعندما مد يده لفتح الباب ، فُتح من الداخل فركب إلى جوارها وهو يكاد يشم رائحتها المثيرة للنشوة . عبرت عن بهجتها بانطلاقة عربتها فى اتجاه كوبرى الملك فيصل :

ـــ أتعرف وجهتى ؟!

ـــ نعم !!

ـــ إلى أين ؟!

— إلى أبى الهول الذى شهد أخطر لحظات حياتنا !

— برغم كل شيء فإننى حتى الآن لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت وأنت تدرك تماما ما يربطنى بك ؟!

رقص قلبه طربا لكنه لبس أردية الحكمة :

— المستقبل هو قضيتنا الوحيدة الآن !

— ليس قبل أن أعرف ما جرى لك فى الشهور الماضية ؟!

انطلقت العربة فى شارع الهرم وشعور بالميلاد الجديد يجتاحه :

— ما جرى كان الحلقات الأخيرة فى سلسلة الآمال الخائبة التى بدأت بظهور النتيجة الباهرة !!

شعرت مهجة بالسخرية المريرة التى نضحت على كلماته الأخيرة :

— لكنها ستكون الحلقات الأخيرة فعلا .. فنحن سويا يمكن أن ندك الجبال !!

— وسنزيح كل من يعترض طريقنا !!

قالها بصوت خافت بعض الشيء لكن مهجة سمعته ولم ترد . استأنف :

— حفيت قدماى فى التردد على شركات ومعامل الأدوية وعلى الصيدليات فاكتشفت أن موقف عميد الكلية منى لم يكن استثناء من القاعدة .. وأخيرا رست مركبى المحطمة على شاطىء الصيدلية التى عملت بها لفترة فى أيام الدراسة !

— تصور أن قلبى حدثنى بأنك كلمتنى منها !!

— هل قلبك دليلك إلى هذا الحد ؟!

— كنت تتكلم كما لو كنت تخشى أن يسمعك أحد ؟! كما استمعت إلى ضجيج القطار فى المكالمة ولذلك حددت لك نفس

المكان السابق للقاءات دون تفكير !

ـــ يبدو أن الاتصال الروحى بيننا لم ينقطع أبدا ؟!

ـــ وطبعا .. فإنك لا تزال ناقما على الدنيا كلها ؟!

ـــ النقمة لن تعود عليّ بشيء سوى تدمير نفسى .. ومن الآن فصاعدا لن أسمح لمخلوق أن يدفعنى لتدمير مستقبلى !

ـــ وماذا نويت أن تفعل ؟!

ـــ هذا ما أريد أن أناقشه معك الآن !

صعدت العربة هضبة الهرم ، ثم دارت حوله حتى توقفت مطلة على أبى الهول . سكن المحرك . لا حظ وجدى أن حركة السياح والزائرين قد تضاعفت كثيرا عما كانت عليه فى المرة السابقة . لم تستطع مهجة أن تشد عينيها بعيدا عن وجه التمثال الغامض المهيب . ابتسم وجدى متسائلا :

ـــ فيم شردت ؟!

ـــ كان أبو الهول شاهدا على زفافى الذى تم فى فندق قريب منه هنا !

أدرك وجدى أنها تزيل الحواجز التى برزت بعد زواجها :

ـــ يبدو أنها كانت ليلة لا تنسى ؟!

ـــ فعلا !

تدفقت موجات القلق داخله حتى غمرت قلبه :

ـــ أتمنى لك السعادة من كل قلبى !

فجأة ضحكت مهجة وألقت برأسها على ظهر المقعد فتناثرت خصلات شعرها الذهبية والبنية ، وازداد عمق غمازة وجنتها اليسرى التى تمنى أن يقبلها لكنه كان مشغولا بأفكاره القلقة التى انتزعه منها صوتها :

— كانت ليلة تنافس الغرفة المكيفة في برودتها برغم لهيب الصيف !

انداحت موجات القلق داخله وتأكد أنه لا يزال المتربع الوحيد على عرش قلبها وجسدها :

— عجيب أمر بلدنا .. نتكلم ليل نهار عن الحب والوفاء والمساواة — والاشتراكية والديمقراطية .. وعند التطبيق نسلك كما سلك أجدادنا فى أشد عهود الاقطاع ضراوة حين لم تكن للإنسان قيمة فى حد ذاته .. ولذلك فإن كل ما بيننا بعمقه واتساعه ليس له قيمة .. بل ليس له وجود على الإطلاق فى نظر الآخرين !

تساءلت مهجة فى دلال أنثوى غامر فكره بالذى مضى :

— هل سنقضى الوقت فى مناقشة قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية ؟! ونترك الذى أتينا من أجله بعد طول فراق ثقيل ؟!

— حكيت لك كل شيء ولم أسمع منك شيئا حتى الآن ؟!

— ليس هناك شيء يحكى سوى الملل والسأم .. حتى عندما كنت فى لندن مت شوقا لمصر .. وعندما عدت لم أستطع الهرب من الملل لولا إحساس غامض أوحى إلى بأنك قريب منى !

أمسك بيدها وانحنى يقبلها فى حب خاشع :

— كل ما يهمنى ألا تفرقنا الأيام بعد هذه التجربة المريرة .. صحيح أنك متزوجة لكن ما بيننا لا يمكن أن يتلاشى هكذا فى غمضة عين !!

شردت مرة أخرى ناظرة إلى وجه التمثال الغامض المهيب :

— لعل الشيء الإيجابى الوحيد أننى أقنعت يسرى بافتتاح صيدلية فى المحل الشاغر أسفل العمارة !

ومض فى عينيه بريقها المخيف الذى لم تلحظه عينا مهجة المتشبثتين بأبى الهول :

ـــ إنه نبأ عظيم .. يمكنني العمل معك وبذلك يكون ارتباطي بك رسميا أمام كل الناس ؟!

انتابتها هزة خفيفة في مقعدها :

ـــ وكيف سيتركني يسرى معك في مكان واحد ؟!

انفجر ضاحكا ومنظر الصحراء المترامية فيه متسع لعينيه ، ونسيم نقي لرئتيه عبر النافذة المفتوحة :

ـــ تتكلمين كما لو كانوا يعرفونني !! أنسيت أنهم لا يعرفون حتى اسمي ؟! سأكون مجرد صيدلي في نظرهم !!

ابتسمت في حرج :

ـــ ها قد عدت يا وجدى إلى حنكتك القديمة ؟!

استأنف حديثه كما لو لم يكن قد سمع شيئا :

ـــ إن افتتاح صيدلية في حاجة إلى خبرة أنا على دراية بها تماما .. فأنا أعرف مندوبي كل شركات الأدوية المصرية وتوكيلات الأدوية الأجنبية .. كما أن مهارتي في تركيب الأدوية لا يعلى عليها .. كما أنني سأبقى إلى جوارك بصفتي الصيدلي المسئول !!

ابتسمت مهجة للجملة الأخيرة التي نطقها وجدى في حنان هامس كالفحيح الزاخر بالنداء والاغراء :

ـــ ستكون مغامرة مثيرة لنا ؟!

ـــ لكنها ستكون مشروعا جادا محترما بالنسبة للآخرين !

ـــ لكنك لم تشرح لي كيفية إدخالك في المشروع دون أية إثارة لشبهات نحن في غنى عنها !

ـــ الموضوع في منتهى البساطة .. فقد عثرت على زميل فقير مخلص بائس .. ليس له أي نصيب من الأناقة والوسامة .. وإن كانت

مهارته وتفوقه موضع إعجاب جميع الزملاء فى أيام الدراسة .. وهو لا يزال يبحث عن عمل !! إن زوجك الأرستقراطى لن يشعر بالغيرة من هذا البائس !

امتزجت الدهشة بالإعجاب فى وميض عينيها :

ـــ وهل فكرت فى كل هذا من وحى اللحظة ؟!

ـــ يبدو أنك نسيت مواهبى وقدراتى منذ تلك النتيجة المشئومة ؟

ـــ والآن عادت لياقتك كأفضل ما تكون !

ابتسم ابتسامة زاخرة بالمعانى وهو يعود للإمساك بيدها :

ـــ أنت أدرى الناس بلياقتى !

انحنى وقبل يدها بحنان ساخن أعاد جريان الدماء المشتعلة فى عروقها بعد شهور الصقيع . رفع عينيه فى ابتهال :

ـــ لولا الناس المحيطين بالعربة لأخذتك فى أحضانى وأطبقت على شفتيك اللتين عشت لهما عمرا بأكمله !!

لم تجد ألفاظا تعبر بها عما يجتاح كيانها ، فلم تملك سوى أن تترك عينيها لتلتهمهما عيناه فى شبق متصل .

لم يرفض يسرى فكرة افتتاح الصيدلية كما لم يرحب بها . فقد اعتبرها مجرد مرحلة انتقالية لحين وصول الطفل الذى يعيش على أمل استقباله . فلم يكن يعرف أن زوجته تتناول حبوب منع الحمل بانتظام ، برغم مشاركتها المتصاعدة لمعظم اهتماماته . وهو الأمر الذى سعد له كثيرا بعد طول صد ونفور . وعندما أخبرته أنها اتصلت بصديقة لها زاملتها سنى الدراسة وعملت بعد ذلك فى صيدلية أبيها ، وذلك لاستشارتها فيمن يساعدها فى مشروع الصيدلية ، فأشارت عليها بزميل كان يبحث عن عمل ، ويبدو أنه لم يجد عملا بعد نظرا لأنه لا يملك الواسطة أو التوصية اللازمة برغم مهارته وتفوقه فى الدراسة . فهو من أسرة متواضعة ، لكن أمانته شهد لها الجميع ، لدرجة أنه عمل أمين صندوق اتحاد الطلبة فى الكلية .

طلب يسرى أن يراه ، فاستراح لتواضعه وبؤسه وعينيه اللتين لم يرفعهما فى كل إجاباته المختصرة الزاخرة بالخجل والحياء . وعندما ناقشه فى الأجر رفض أن يخوض فى مثل هذا الموضوع مع أكابر مثلهم ، فأى أجر يحصل عليه منهم شرف كبير له . كان وجدى على وشك أن يعانى من تأنيب الضمير فى حضرته ، لكن عنجهيته الأرستقراطية المتعالية أحالت بوادر التأنيب إلى رثاء ثم إلى تفوق فى كل شىء . وكانت مهجة تتابع تطور الموقف بانبهار شديد تظاهرت بأنه موجه لزوجها ونابع منه . كانت تقارن بين إحساس يسرى الكاذب بالتفوق الظاهرى وسيادة وجدى الكاملة الكامنة التى ظنها زوجها ضعفا وخضوعا وذلة . فقد تضاعف إعجاب يسرى بثرائه وطبقته ورقته وجاذبيته الأرستقراطية ، بعد أن اندثرت بوادر

الغيرة التى انتابته عندما سمع باسمه لأول مرة من مهجة وقبل أن يراه . كانت المقابلة بردا وسلاما على قلبه القلق الحائر .

لم يعد تردد وجدى على صيدلية النجدة منتظما كما كان من قبل . فبعد أن استأذن العجوز يوم قابل مهجة ، اضطر إلى التغيب دون إذن لمقابلة يسرى . وكان العجوز قد اكتفى بالنظرات الموحية بالاستنكار والضيق بالتسيب الذى طرأ فجأة على تصرفاته ، بالإضافة إلى الضيق القديم بحصول وجدى على بعض العينات المجانية للأدوية وأدوات التجميل . لكنه عندما غاب المرة الأخيرة ، فاض الحنق بالعجوز وقرر أن يحسم الأمر مع هذا الملعون الذى لم يصن الجميل ، وبدأ فى التغيب دون ضابط ولا رابط . فقد قبله للعمل عنده ، بعد أن رفضه الجميع ، إكراما لخاطر خيرية ابنة أخته العزيزة حتى يجنبها إلحاح جارتها المستمر . فهو وإن كان فى حاجة إليه ، لكنها ليست ملحة . إذ أن صحته لا تزال على ما يرام وتمكنه من الإشراف المباشر على الصيدلية . كذلك فإن تطابق الحساب فى بعض الأيام لم يكن مضبوطا بفارق ربع وأحيانا نصف جنيه بأكمله . ثم زاد الطين بلة استخدامه للتليفون فى تحديد مواعيد غرامية غامضة ، أى أن الأمر لم يقتصر على زيادة عدد المكالمات التى سيدفعها ، بل امتد لتشويه سمعة الصيدلية التى ظلت أربعين عاما مثل الفل . وكان قد فكر فى وضع قفل على التليفون ، لكن الملعون فى إمكانه أن يطلب الأرقام التى يريدها عن طريق دق زر التليفون بعدد الأرقام المطلوبة دون إدارة القرص .

وطالما أن خيرية قد تزوجت وسافرت إلى السعودية ، فليس هناك من يعمل حسابا لخاطره . ولقد آن الأوان للتخلص من هذا الكسول الذى يريد أن يحصل على أجر دون جهد يذكر . يكفى أنه ترك الصيدلية بالأمس دون

أن يفتحها ، ولولا أن العجوز مر عليها فى حوالى السابعة مساء وفتحها ، لما كانت قد فتحت المساء بطوله . ولذلك بكر إلى فتحها فى صباح اليوم التالى لدرجة أن الصبى ذهل عندما جاء ووجد العجوز بمفرده يجلس إلى مكتبه المعتاد ، وينظر إليه فى صمت خلف نظارته التى تضاهى قاع الكوب فى سمكها . ألقى عليه بتحية الصباح وهرع لرش المياه أمام الصيدلية حتى يخمد التراب الذى يغطى الطريق .

دهش وجدى عندما وجد الصيدلية مفتوحة والعجوز مرابطا على غير عادته . فقد كان فى الجو لسعة برد مبكرة والعجوز دائم الشكوى من الانفلونزا . ألقى بتحية الصباح فكان رد الدكتور بيومى :

ــ أين كنت بالأمس ؟!

ــ كنت فى مهمة عائلية !

ــ مهمة عائلية أم مهمة غرامية ؟!

ذهل وجدى للسؤال الصاعق . هل بلغ تجسس الصبى عليه هذا الحد ؟! كان الصبى قد انتهى من رش المياه فأرسله العجوز لشراء إفطار له ، وذلك على سبيل فتح باب المواجهة على مصراعيه :

ــ لم ترد على سؤالى !

ــ إننى لا أسمح لأى مخلوق أن يتدخل فى شئونى الخاصة !!

اهتز حاجب العجوز الأيمن فى عصبية رصدها وجدى :

ــ عشنا وشفنا شئونك الخاصة يا سيادة الدكتور الصيدلى !!

لم يجد وجدى بدا من تصعيد الموقف :

ــ ليس لك سوى عملى الذى أقوم به على خير وجه !

ــ ما دمت تتكلم فى العمل .. فسوف أخصم منك مرتى الغياب !!

ــ يمكنك أن تخصم مرتبى كله .. فهو ليس مرتبا على الاطلاق !

ندم العجوز على أن الملعون انتزع من يده زمام المبادرة ، بعد أن كان في نيته أن يفاجئه بالاستغناء عنه . من أين جاء بهذه الثقة الطارئة بالنفس ؟! حذره :

ـــ جاء اليوم الذى ترفع فيه صوتك فى وجهى !! لكنك ستندم على عضك اليد التى امتدت إليك فى وقت لم تجد فيه لقمة العيش !!

ـــ أنت الذى ستندم !! فلن تجد حمار شغل يحتمل العمل فى هذه المقبرة مثلى !!

ـــ الآن أصبحت مقبرة ؟! لماذا لا تغادرها بلا عودة ؟!

فوجىء العجوز به يخرج مفتاح الصيدلية من جيبه ويلقيه فى استخفاف أمامه على المكتب :

ـــ ها هو مفتاح كنوز الملك سليمان ؟! فلتهنأ به !!

خرج وجدى من الصيدلية وسط ذهول العجوز الذى خمن جاهدا السبب أو السر فى تحوله الطارىء هذا ، لكنه عجز عن التفكير تماما.

انطلق وجدى كأنه ألقى بأثقال من رصاص خلفه . فهو لن يطالب بالأيام التى عملها فى هذا الشهر الذى انتصف ، لأنه لم يعد يلهث وراء الفتات المتساقط من موائد الآخرين . من الآن فصاعدا سيتصدر المائدة وسيصبح سيد القوم بلا منازع . كان فى إمكانه أن يذل العجوز ويصارحه بعلاقته الغرامية الطويلة بأبنة أخته خيرية التى كانت تشترى شبابه بمعاش المرحوم زوجها ، لكنه أبى على نفسه مثل هذا الموقف ، إذ أنه لم يلق على يديها سوى كل خير . وإذا كانت قد تزوجت وسافرت ، فإنها بذلك تكون قد فعلت ما يفعله هو تماما : البحث عن المصلحة الشخصية ولا شىء سواها .

استقل سيارة أجرة نقلته إلى موقعه الجديد فى نادى الصيد . كان عمل

النجارين الذين اتفق معهم قائما على قدم وساق . وقف وسطهم سعيدا منشرحا منطلقا . يداعب هذا وهو يقوم بنشر ألواح الخشب ، ويوجه ذلك وهو يبطن الجدران بالألواح تمهيدا لتثبيت الرفوف التى ستحمل الأدوية . أما الركن القصى إلى اليسار فقد خصص لمعمل السموم والمخدرات بالإضافة إلى تركيب الأدوية المطلوبة .

ومن حين لآخر كانت مهجة تهبط من شقتها لمباشرة تأثيث الصيدلية فى الظاهر ، وللاستمتاع بصحبة وجدى فى الواقع . لم يفكرا فى تصعيد مستويات اللقاء بينهما فى تلك الفترة لانهماكهما فى مشروعهما المشترك . وإن كانت الرغبة لم تخفت ، إلا أنها ظلت كامنة متطامنة فى انتظار نشوة الاشباع القديم . كان وجدى غاية فى الحرص حتى لا يفقد مهجة ومستقبله فى آن واحد . فقد أدرك أن حبه لنفسه قد يزيد فى بعض الأحيان على حبه لمهجة التى يعبدها فى الواقع . لكنها على أية حال لا تزال زوجة لرجل آخر ، فهى ليست ملكه تماما كما قد تصور له رغبته العارمة الجامحة أحيانا . أما نفسه فهى ملكه حتى آخر لحظة فى حياته ، وعليه أن يحبها بقدر ما يستطيع من طاقة وقوة ، فهى فى المقدمة عنده تليها مهجة .

ولذلك لم يتضايق من وجود هبة الفتاة الجميلة المدللة المرفهة عندما كانت تتردد من حين لآخر على شقة أخيها ومن ثم على الصيدلية وهى فى مرحلة الإنشاء حتى تكون فى صحبة مهجة التى لاحظ عليها ضيقها الواضح بوجودها ، لكن لم يكن بيدها حيلة . كانت هبة تخطو خطواتها الأولى فى كلية الصيدلة التى يبدو أنها التحقت بها لمجرد تقليد مهجة وليس بناء على اقتناع بنوعية الدراسة نفسها . لم يشارك مهجة نفورها من هبة بل سعى إلى التقرب منها برقة ولطف بالغين ، وخاصة فى غياب

مهجة . برر لنفسه هذا المسلك بأنه يريد اكتساب ود كل الأطراف الممكنة ، لكنه فى أعماق أعماقه السحيقة آمن بأنه يهدف إلى أشياء أخرى لم تتبلور بعد ، وربما لا تخرج إلى الوجود أبدا ، ومع ذلك لا مانع من المحاولة طالما أنه لن يخسر شيئا لحرصه الشديد .

وعد وجدى هبة بمساعدتها فى فهم محاضراتها ومراجعها ، وأنه رهن أية إشارة من أصبعها الجميل . لكنها كانت متحفظة معه للغاية ، وتحيط نفسها بأسوار من البرود والعنجهية الأرستقراطية التى ذكرته بأخيها . ومع ذلك استمر فى ملاطفتها التى لم تسترح لها مهجة التى برر لها مسلكه هذا بأنه يريد أن يبعد عن ذهن هبة أية شبهة قد تدور حولهما . لكن وجدى لم يترك الغيرة تنهش قلب مهجة ، ذلك أنه أقام حياته الجديدة على توازنات غاية فى الدقة ، لدرجة أنه اصطحبها ذات مرة إلى شقته المتواضعة فى يوم سافر فيه زوجها إلى الأسكندرية ، وقضى معها ساعة جعل فيها جسدها كتلة متأججة بالشهوة التى افتقدتها منذ زواجها . وعندما كان تعلقها به يزيد على الحد الذى رسمه لها ، كان يطيل من فترات غيابه بحجة الاتصال بالمسئولين فى وزارة الصحة لإجراءات الترخيص وخلافه ، وزيارة شركات الأدوية وأدوات التجميل للاتفاق معهم على توريد اللازم .

وكانا قد اتفقا على تسمية الصيدلية « صيدلية الحياة » . وبمجرد الانتهاء من تأثيثها ، علقت لافتة ضخمة أعلى بابها تضيء اسمها بأنوار حمراء وزرقاء ساطعة ، وبين كلمة « صيدلية » وكلمة « الحياة » رسمت الكأس التقليدية بالضوء الأبيض ، والتفت حولها الأفعى وهى تقطر سمها فيها بالضوء الأحمر . ولم تعرف مهجة لماذا لم تسترح لمنظر الأفعى المخيفة ، كما لم تسترح من قبل لمنظر الجمجمة المرسومة باللون الذهبى فوق عظمتين متقاطعتين على الزجاج المطلى بالأسود فى باب

غرفة السموم والمخدرات !! وعندما عبرت عن إحساسها لوجدى ضحك وتساءل : أنسيت أصول مهنتنا وأسرارها ؟!

— ٩ —

مع بداية العام الجديد تم افتتاح الصيدلية . وسعد يسرى عندما وجد الحيوية القديمة تعود إلى زوجته بإنشغالها فى عملها الجديد ، بحيث يتفرغ هو بدوره لمشروعاته دون قلق أو حرج . وكان يسرى قد اكتشف أنه عندما يتعلق الإنسان بأمل يرى فيه أمنية عمره ، فإن هذا الأمل نادرا ما يتحقق ، وإذا تحقق فليس كما يشتهى . ولذلك كان تفاؤله شديدا بافتتاح الصيدلية ، إذ أن جزءا أساسيا من لهفته على الانجاب ، كان نتيجة لحرصه الشديد على شغل وقت فراغ زوجته التى تصغره بعشرين عاما . وطالما أن هذه المشكلة قد حلت بافتتاح الصيدلية ، فإنه يأمل أن تحل المشكلة الأخرى ويصل الطفل . وإن كانت حدة المشكلة قد خفت ، فإنه لا ينكر أنه طالما فكر كثيرا فى عرض مهجة على أحد أطباء الأمراض النسائية ، ولكن ما العمل إذا اتضح أنها صالحة تماما للانجاب ؟! كان هذا التساؤل وحده كفيلا بأنه يجعله يتراجع فى مجرد مفاتحتها فى الموضوع برمته ، ويتمنى أن تحمل الأيام القادمة فى بطنها الحل السعيد !

أما وجدى فكانت سعادته بالصيدلية لا تقدر ، فقد كانت أول فتح له . وإن كانت فكرة أنه صيدلى أجير تؤرقه . صحيح أنه سعد باسمه المكتوب على الباب الزجاجى للصيدلية المكيفة الهواء من الداخل ، بصفته الصيدلى المسئول . وكان قد اختار اسم الشهرة الذى التصق باسم

أبيه فى قرية أبى رواش ، وهو « الحنش » لبراعته فى اصطياد الأفاعى والثعابين ، فبدلا من « وجدى عبد المحسن » كتب « وجدى الحنش » حتى يبدو وكأنه ينتمى إلى عائلة عريقة . وعندما سأل يسرى عن السبب فى استخدام هذا اللقب الذى يثير فى نفسه بعض الفزع ، أجابه وجدى بمنتهى الثقة بل والفخر إنه لقب عائلته التى يمكن تتبع شجرتها إلى العصور الأخيرة لحكم المماليك ، قبل الحكم العثمانى لمصر ، وأضاف إنها كانت أسرة ثرية أرستقراطية ، لكن الولاة الأتراك وجباة الضرائب لم يتركوا لها شيئا ، فلم تجد مهنة سوى اصطياد الأفاعى والعقارب ، وكأنه كتب على أبيه وأجداده أن يكونوا اسما على مسمى .

تحول وجدى إلى شعلة من النشاط . أقام علاقات وثيقة بمندوبى شركات الأدوية سواء المصرية أو الأجنبية ، وحرص على توافر الأدوية التى لا توجد فى الصيدليات الأخرى حتى يكتسب المزيد من الزبائن . كانت الصيدلية بالنسبة له معركة حياة أو موت ، لدرجة أنها شغلته إلى حد ما عن الانكباب على مهجة التى غفرت له هذا الأسلوب الجديد ظنا منها أن الأمور سرعان ما تعود إلى سيرتها الأولى ، خاصة وأنها كانت فى صحبته معظم اليوم ، وكثيرا ما كانت تستمتع بلمساته وقبلاته العابرة عندما تخلو الصيدلية من الزبائن . لكن وجدى وجد فى غرفة المخدرات والسموم مكانا أكثر أمنا لبابها المعتم المغلق دائما ، وإن كانت مهجة قد لاحظت أن لهفته القديمة قد خفت إلى حد كبير مما جعلها تلعن الصيدلية التى لم تكن غاية فى نظرها بل مجرد وسيلة للتواجد المستمر مع وجدى . وذات مرة طلبت منه الذهاب إلى شقته حتى يكونا على حريتهما ، لكنه أطاعها طاعة تفتقر إلى حماسه القديم المشتعل .

وإذا كانت مهجة قد صبرت على عدد الزبائن المتزايد باستمرار ،

وعلى تردد هبة شبه المستمر وتفانى وجدى فى شرح ما استغلق عليها من محاضرات برغم عنجهيتها الفارغة وتعاليها عليه ، فإنها لم تصبر على التغير الذى طرأ على وجدى تجاهها . صرحت له بأنها علمت من يسرى نفسه أن هبة كانت وراء دفعه للزواج منها ، خاصة وأن مشروعاته ومسئولياته شغلته تماما عن الزواج ، ومع ذلك لم يخفف وجدى من حماسه تجاه مساعدة هبة متظاهرا بأن كسبه لكل الأطراف المعنية مكسب لهما فى الوقت نفسه . نصحته بأن يقلل من اهتمامه بالصيدلية وخاصة سعيه الدائم لاحضار الأدوية غير المتوافرة ، فكانت إجابته أن الصيدلية أمانة فى عنقه ولا يمكن أن يفرط فيها . وأخيرا لم تجد بدا من أن تسأله مباشرة عن السر فى التغير الذى طرأ عليه ، فإذ بها تصعق وهو يقول لها بمنتهى البساطة إنه بعد أن قابل زوجها اجتاحه إحساس بالذنب تجاه الرجل الذى فتح له بيته .

ذهلت مهجة وهى ترتدى ملابسها فى غرفة نومه ذات السرير الحديدى المتآكل ، والفراش الذى لم يعرف النظافة منذ أسابيع ، والتراب الذى يغطى كل الأشياء حتى أصبح من العسير التعرف على لون محدد للغرفة التى لم تعد تتميز إلا بضجيج القطار الذى لا يهدأ . سألته فى وقفتها إلى جوار الفراش :

ـــ منذ متى ويسرى كان فى اعتبارك ؟!

تراجع وجدى وهو يرتدى قميصه المتواضع وسروا له الداكن :

ـــ كل هذا بدافع خوفى عليك يا حبيبتى !!

ـــ وهل يمكن أن يستمر هذا الخوف حتى يقضى على كل ما بينى وبينك ؟

تهدج صوته بطريقة أعادت إلى وجدانها الأحاسيس القديمة :

ـــ ما بينى وبينك لن يقضى عليه سوى الموت !

ـــ لكننى أفتقد حماسك المشتعل القديم !

ـــ لو تركنا العنان لعواطفنا .. فإنه من المحتمل أن نهدم كل ما شقينا فى بنائه .. لا بد أن نوازن بين مصلحتنا وحبنا .. إنهما وجهان لعملة واحدة .. إن الاندفاع قد يلد لحظة متعة عابرة يمكن أن تؤدى إلى انفصال كامل بيننا .. عندئذ لن نفوز ببلح الشام أو عنب اليمن .. فحبنا فى أشد الحاجةِ إلى الحرص .. فمجرد وجودى إلى جوارك بهذا الشكل حلم لم يعرفه منامى من قبل .. والظروف أصبحت إلى جانبنا الآن .. فزوجك مشغول دائما بين مشروعاته وأسفاره .. وليس هناك من يرانا وأنت قادمة معى إلى هنا .. فالطابقان الأول والثانى .. كما تعلمين .. مخزن لأحد محال البقالة الكبيرة فى الجيزة .. والعمال لا يأتون لأخذ السلع المطلوبة إلا فى الصباح الباكر .. مرة كل عشرة أيام أو أسبوعين .. كذلك فإن البيت كله يطل على قضبان السكك الحديدية حيث لا توجد عيون متلصصة .

اهتز البيت كله مع ضغط عجلات القطار العملاق فوق القضبان . علا ضجيجه فتوقف وجدى عن الكلام ، لكن مهجة لم تتوقف عن نظراتها التى عاد إليها وميض الحنين والتعاطف . اقتربت منه فى جلسته على حافة الفراش ، وربتت على رأسه ومسحت جبهته قائلة مع ابتعاد القطار :

ـــ إن كل ظنونى وقلقى ناتجة عن خوفى من أن أفقدك يوما !!

ـــ لا تتركى الأوهام والهواجس لتعكر عليك صفو حبنا !

أجلسها على ساقيه ، واعتصر نهديها بصدره ، وظهرها بيده ، وشفتيها بشفتيه ، فأطبقت جفنيها وذابت بين أحضانه فى قبلة نارية

قضت على برد فبراير داخلها ، وبزغت كأروع لحظة فى اللقاء الذى ظنت أنه سينتهى بخيبة أمل لم يسبق لها مثيل . مسح شعرها ففاح منه العطر الأخاذ ممتزجا بلمعانه الذهبى والبنى ، ربت على ظهرها فى حنان بالغ ثم نهض بها ناظرا فى ساعته :

ــ لم يتبق سوى نصف ساعة على فتح الصيدلية .. كما أرجو أن تكونى أكثر حرصا بعد عودة يسرى غدا من أوروبا !!

ــ وهل من الحرص أن تعامل هبة بهذا الحماس المنقطع النظير ؟!

ــ أخشى أن يكون يسرى قد وضعها عينا علينا .. من هنا كان اهتمامى بها خاصة فى وجودك !

ــ لم يعرف الشك طريقه إلى قلب يسرى منذ زواجنا ! كما أرجو ألا يزيد اهتمامك بها عن هذا الحد فى غيابى !!

ابتسم وجدى فى ثقة واعتزاز بنفسه :

ــ أرجو ألا تعرف الغيرة طريقها إلى قلبك !!

ــ لا أحب أن أخفى عليك كل ما أشعر به !!

ــ تعلمين أن كل الحواجز قد تلاشت بيننا إلى الأبد منذ أول لقاء هنا !

نظر إلى ساعته مرة أخرى ، فهندمت شعرها بيدها وقبلته قبلة سريعة فى شفتيه :

ــ ربما لا أراك هذا المساء إذا جاءت هبة لزيارتى !

ــ تصرفى بحرية مطلقة .. فليس بيننا أية حساسيات !

قبلته مرة أخرى وخرجت هابطة على درجات السلم الخشبى المتآكل الذى حفظت أنينه تحت وقع أقدامها . نظرت فى الشارع يمنة ويسرة فلم تجد سوى امرأة عجوز افترشت الطوار المترب ونادت عليها لقراءة طالعها

فى الأصداف أمامها ، لكنها أسرعت هربا منها ومن الصقيع حتى بلغت سيارتها التى تركتها أمام مكتب التلغراف بالقرب من المزلقان . تلفتت يمنة ويسرة مرة أخرى ثم ركبتها وقادتها فى اتجاه شارع نادى الصيد .

هبط وجدى بدوره . سار بحذاء الطوار المترب أمام « صيدلية النجدة » فتذكر خيرية والدكتور بيومى والصبى الذى تقطر نظراته سما . لم يصل نداء قارئة الطالع إلى أذنيه لانشغاله بخواطره وذكرياته المتشابكة التى وجد أن خير طريقة لتنظيمها هى فى السير على الأقدام إلى الصيدلية ، تلك الرياضة الوحيدة التى يمارسها والتى لا تستغرق من وقته أكثر من ساعة ، خاصة وأن انتظار أتوبيس أو تاكسى فى هذا الصقيع قد يستغرق هذا الوقت .

عبر المزلقان وسار بحذاء قضبان السكك الحديدية فوق الطوار الممتد بطول الشارع العريض المزدحم بالسيارات التى تسابق القطار . لكن ضجيج العجلات والمحركات والأبواق لم يطغ على صوت أفكاره المتشبثة بملامح المستقبل التى لم تتضح بعد . فهو لا يزال كما هو فى هذه الغرفة القابعة على السطح فى العراء والتى يسميها تجاوزا شقة . قد يكون المرتب الذى يحصل عليه الآن أضعاف أضعاف مرتب صيدلية النجدة ، لكنه اكتشف أنه — على ضخامته — لا يصل إلى أجر شقة واحدة فى عمارة مهجة . وحتى لو كان قد عين معيدا فى الكلية ثم حصل على الماجستير والدكتوراه ، فإن مرتبه لم يكن ليزيد على مرتبه الآن . كما أن الحصول على مثل هذه الشهادات العليا لا بد أن يستغرق وقتا تكون فيه تكاليف المعيشة قد بلغت حداً لا يحتمل . والعجيب أن الدول العربية التى تعلن عن طلبات إعارة للصيادلة المصريين ، تشترط مثل هذه الشهادات ، كما لو كان البكالوريوس الذى يعمل به الصيادلة فى مصر

غير كاف ولا يتساوى مع المرتبات العربية العالية .

أما مهجة فعجيب أمرها . إنها تسعى لامتلاك كل شيء : الزواج والحب والمال ، في حين أنه لا يزال تحت رحمة الآخرين . لو غضب زوجها عليه لسبب أو لآخر ، فسيجد نفسه في الشارع مرة أخرى ، ولن يقبله الدكتور بيومي هذه المرة . كما أن الخطر يكمن في علاقته بمهجة التي لن يصيبها على أسوأ الفروض — إذا وقعت الواقعة — سوى الطلاق ، في حين أن أي شاب يتمناها لمالها وجمالها . قد تستمر على علاقتها به ، لكنه سيظل مجرد ذكر يلبي نداء الأنثى المستعرة داخلها . إنه لا ينكر المتعة التي يحظى بها معها ، لكن الزمن يجرى ، والأيام تمر وسيأتي اليوم الذي لن يجد فيه شبابه لبيعه .

تنتابها الغيرة كلما جاءت هبة إلى الصيدلية ، فهل معنى هذه الغيرة أن ارتباطه بهبة أمر محتمل الوقوع ؟! الفتاة جميلة وجذابة وأرستقراطية وثرية ، لكن تعاملها معه لا يخلو من ترفع وعنجهية !! ومع ذلك فهو أستاذها ومعلمها وفضله عليها لا يمكن نكرانه ! إنه لم يحصل منها على أي مقابل لتفوقها الذي شهد به أساتذتها في النصف الأول من العام الدراسي . وبمرور الوقت زاد اعتمادها عليه ، فلماذا لا يجس نبضها لعل الطريق مفتوح أمامه أو على الأقل يمكن فتحه ؟! هل زواجه منها مستحيل ؟! إنه الآن صيدلي أثبت جدارته في انجاح المشروع ، وأصبحت الصيدلية من أفضل صيدليات الحي . فهل تشفع له كفاءته في امتلاك قلب هبة ؟! لكن ما موقف مهجة في هذه الحالة وهي التي تحاسبه الآن على مشاعر لم تمس قلبه من قريب أو بعيد ؟! هل يمكن أن تنقاد لاندفاعها وتهورها وتطرده من الصيدلية ؟! قد يبدو هذا أمرا غير محتمل الوقوع ، فهي — حتى الآن — مدمنة له تماما ! لكن إلى متى يستمر

الإدمان ؟! فما دام الأمر أصبح قضية ذكر وأنثى ، فإن أى ذكر آخر فى فحولته يمكن أن يحل محله ؟! فليس لديه ما يمكن لمهجة أن تحبه من أجله مدى العمر ! فقد حرمه الدهر من المال والوسامة والأصل العريق ، ولم يمن عليه سوى بهذه الطاقة والمهارة فى تلبية نداء الأنثى إلى حد الشبع والارتواء . لكن هل هذه هى نظرة مهجة إليه فقط ؟! لقد كانت على استعداد لتحدى أبيها الصارم من أجل الزواج منه ، لكنه هو الذى دفعها إلى الزواج من يسرى ! فما قيمتها لديه إذا أتت إليه دون ثرائها وميراثها ؟!

إذاً .. فالمسألة فى حقيقتها صفقة ! هو يريد ثروتها وهى تطلب فحولته !! لكنه لم يحصل على أية ثروة بل يعمل أجيرا لديها مثل أعمامه وأخواله الذين قضوا عمرهم أجراء فى أبى رواش ، فى حين أنها تحصل منه على ما تشتهى فى الزمان والمكان اللذين تحددهما ، سواء أكان هذا فى غرفة السموم والمخدرات أو غرفة السطح المتهالكة ؟! الموضوع برمته فى حاجة إلى إعادة النظر قبل أن تسرقه السكين ! وأفضل ورقة للعب بها الآن هى هبة ! وطالما أن مهجة متزوجة وفى الوقت نفسه عاشقة له ، فلماذا لا يتزوج هو أيضا ويستمر فى عشقه لها ؟! إذا كان لا يشعر بالغيرة تجاه يسرى ، فليس من حقها أن تحسها تجاه هبة !

لم يسمع وجدى ضجيج السيارات المنطلقة فى شارع نادى الصيد بأبواقها ومحركاتها ودخان العادم من مؤخرتها . كان الدفء قد سرى فى جسده وهو يمد الخطى فوق الطوار المؤدى إلى الصيدلية . فلا تزال ملابسه من النوع الذى لا يساعد على التدفئة السريعة . وقطعة الصوف الإنجليزى الفاخر التى أهدته إياها مهجة لا تزال قابعة فى كيسها ، لأنه خاف عليها من مقص ترزى الحى المتواضع الخبير فى حياكة الجلباب والقفطان والقميص فقط ، وعندما سأل عن أسعار الحياكة خارج الحى

آثر الانتظار حتى يتجمع لديه ما يمكنه من هذا .

فتح الصيدلية مسرعا إلى إدارة جهاز التكييف الذى سرى بالدفء . استرخى فوق مقعده شاعرا بتعب لذيذ فى ساقيه . تكاثفت السحب الداكنة خارج الباب الزجاجى فأوشك الظلام أن يسود الصيدلية . أضاء وجدى الأنوار على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز الخامسة والنصف . إنه يشبه جو لندن على حد قول مهجة له ، لكنه لم ير هذه البلاد ويبدو أنه لن يراها طالما أنه يتبع مبدأ « محلك سر » . إنهم يتكلمون عن لندن وباريس ونيويورك كما يتكلم هو تماما عن « أبى رواش » . هل يصدق أحد أنه لم ير الإسكندرية حتى الآن ؟! إنه لم يعرف فى حياته سوى « أبى رواش » والجيزة والقاهرة !

مع هبوط الظلام مبكرا ، وتناثر قطرات الرذاذ على الباب الزجاجى بدا الشارع لامعا تحت حفيف عجلات السيارات المارة فى الاتجاهين ، والتى أضاءت كشافاتها البيضاء والحمراء قبل أن تشع مصابيح الشارع بخيوطها الصفراء المبهرة . توقفت أمام الطوار عربة بيضاء صغيرة فدق قلب وجدى بعنف . هبطت منها هبة وهى ترتدى معطفا أبيض من الجلد الواقى من المطر . ظن أنها ستدخل العمارة لزيارة مهجة ، لكنها اتجهت مباشرة إلى الباب الزجاجى لتفتحه وتحييه بابتسامة مقتضبة لكنه وجدها غاية فى العذوبة . خلعت معطفها ليكشف عن فستان أنيق من الصوف الأخضر . وضعته على مسند المقعد الذى ألقت بجسدها الرشيق الصغير عليه فى حين ألقت بحقيبتها على المائدة الزجاجية أمامها :

ـــ يوم بارد مطير غائم مثل أوروبا تماما !

سر وجدى فى أعماقه لتباسطها ، لكنه لم يشأ أن يضيع الفرصة فى الحديث عن الطقس :

ــ قالت لى مهجة إنها فى انتظارك هذا المساء ؟!

ردت كأنه لم يقل شيئا :

ــ الورقة التى قدمتها كبحث فى الآثار والمضاعفات الجانبية للمضادات الحيوية نالت أعلى تقدير !!

زقزق العصفور المنتشى داخل قلبه . عيناها الخضراوان تذكرانه بعينى أخيها ، لكن الوميض الأخاذ الذى يفتقر إليه ، ينعكس على فستانها الجميل ، فى حين يحيط شعرها البنى الفاتح وجهها الأبيض المرمرى بإطار من البهاء والرواء. أجاب دون أن يرفع عينيه عن « الحسنة » التى تتوسط أسفل وجنتها اليمنى :

ــ أنت ذكية ونابهة وتستحقين كل خير !!

مسحت علب الأدوية تحت السطح الزجاجى بعينيها :

ــ الفضل كله يرجع لك .. جعلتنى أحب الصيدلة فضلا عن تفوقى فيها !

انتشى وجدى عند ذكر كلمة « الحب » :

ــ الحب يصنع المعجزات !

لم تتوغل معه فى الموضوع كما توقع ، وإنما فتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة قدمتها إليه :

ــ مطلوب منا إيجاد نتيجة التفاعل الكيميائى لهذه العناصر !

قرأ وجدى الورقة ثم سألها بمنتهى الجدية :

ــ لا يمكن بلوغ هذه النتيجة دون إجراء التجربة المعملية وتسجيل مراحلها خطوة بخطوة !

ــ المعمل لم يعد يحتمل العدد المتزايد للطلبة .. كما أن بعض العناصر غير متوافرة !!

ركز وجدى عينيه فى عينيها ثم ابتسم فى ثقة بالغة :
ــ هذه العناصر أحضرتها كلها لمعمل الصيدلية .. ويمكننى إجراء العملية كلها أمامك !
ــ إننى أثقل عليك كثيرا !
ــ أرجو أن تثقلى علىّ أكثر من هذا .. فأنا لا أحلم بسعادة غامرة أطمع فيها أكثر من وجودك إلى جوارى !!
قال الجملة الأخيرة بهمس غامر كفحيح الأفعى لكنها أجابته ببساطة لم يعرف إذا كانت متعمدة أو تلقائية :
ــ أريد أن أجرى التجربة بنفسى تحت إشرافك !
ــ طبعا .. حتى يمكنك استيعابها تماما ! هيا بنا !
ربت على كتفها فأحس بطراوته ورقته ، وغزا أنفه العطر النفاذ الصادر من تحت شعرها وأذنها ، وتساءل فى نفسه عما إذا كانت استخدمته خصيصا لاغرائه ؟! سار بها إلى غرفة السموم والمخدرات دون أن يرفع يده من على كتفها . فى الداخل أضاء النور وانهمك فى ترتيب الزجاجات والقوارير والقنينات التى سيخرج منها العناصر اللازمة للتجربة ، فى حين قرأت هبة الكلمات اللاتينية المكتوبة على كل زجاجة ، وتابعت فى حرص شديد يدى وجدى السمراوتين وأصابعه الدقيقة التى ذكرتها بأصابع عازف كمان زنجى شاهدته فى أحد الأندية الليلية فى نيويورك عندما كانت تزورها مع أخيها . أعادها صوته الأجش العريض إلى مصر :
ــ أخاف على فستانك الأخضر الجميل .. والكيميائى مهما كان ماهرا لا يمكن أن يستغنى عن معطفه الأبيض !
ابتسمت هبة فى سعادة تخلت عنها عنجهيتها السابقة :
ــ أحضرت معى اليوم معطفا أبيض !

بادلها الابتسام وهو يقرب وجهه من وجهها :

ــ لا أقصد معطفك الجلدى الأنيق الغالى !

ــ سأحضر معى المرة القادمة معطف المعمل ! لكن أين معطفك أنت ؟!

استدار وجدى سعيدا مبتسما نحو مشجب خلفه علق عليه معطفه . واصل زحفه فأخذ المعطف وفتحه محتويا به جسد هبة الرقيق الدقيق . شعر بأنفاسها الدافئة وهى تضع ذراعيها محرجة فى الكمين . تخلصت منه برقة دون أن تبتعد عنه . عاد إلى أستاذيته فرفع أمام عينيها قنينة بنية داكنة :

ــ لنبدأ بكربونات الصوديوم !

قبل أن يفتح القنينة دق جرس التليفون ، فإذ بهبة تخرج مسرعة لترد ، لدرجة أنه ظن أنها كانت فى انتظار مكالمة لها . رفعت السماعة وإحساس غامض بالكآبة يجتاحه :

ــ أهلا .. كيف حالك ؟!

ــ ... ...

ــ أنا هنا مع الدكتور وجدى .. فهو يجرى لى تجربة مطلوبة فى الكلية .. وبمجرد الانتهاء منها سأصعد إليك .. هل تريدين محادثته ؟!

ــ ... ...

ــ وهو كذلك .. باى باى !!

وضعت هبة السماعة مبتسمة ابتسامة نفذت إلى قلب وجدى كالسهم . عادت إليه فإذ به شاردا حائرا حيرة جعلتها تتساءل :

ــ هل نبدأ التجربة ؟!

أجاب دون أن يتخلى عن شروده :

ـــ أخاف أن تأتى مهجة فترانا سويا فى هذه الغرفة الضيقة !!
ـــ لا أرى أى سبب يبرر مثل هذا الخوف !!

قبل أن يفتح فاه باحثا عن رد مناسب ، رأى مهجة تفتح الباب الزجاجى فى عصبية وهى ترتدى معطفا أحمر فوق بنطلون أسود ضيق . أعلن شعرها المتناثر حول عنقها وكتفيها عدم اعتنائها به . خرج مسرعا لاستقبالها وكأنه ينفى أية شبهة عن نفسه المضطربة :

ـــ أين هبة ؟!

أجابها دون تفكير :

ـــ فى المعمل !!

خرجت هبة وهى لا تزال ترتدى المعطف الذى تعرفت مهجة عليه فى الحال . أجاب طوله واتساعه على كل التساؤلات التى قد تتراقص علاماتها فى ذهنها . انتهز وجدى فرصة دخول زبونين فأسرع لتلبية طلباتهما ، فى حين قالت هبة لمهجة عند باب المعمل :

ـــ كنا على وشك اجراء التجربة !!
ـــ وما الذى أوقفها ؟!

أجابت هبة فى منتهى البراءة :

ـــ مكالمتك !

استمرت فى استجوابها دون أن تعبأ بنظرات وجدى الحائرة الموزعة بينهما وبين الزبائن الذين بلغ عددهم خمسة :

ـــ كيف ؟!
ـــ أبدا .. سنستأنفها بمجرد خلو الجو !

قالتها بالبراءة نفسها وهى تشير من طرف خفى إلى الزبائن ، لكن مهجة استمرت بنفس اللهجة الصاروخية :

ـــ إذا كان وجودى سيعكر عليكما جو التجربة .. فيمكننى الانسحاب إلى شقتى مرة أخرى !!

ـــ أبدا .. أبدا .. وجودك ضرورى للغاية .. فمن سيرعى الصيدلية فى أثناء إجراء التجربة ؟!

ـــ لم أعد أهتم بالصيدلية ؟!

حل الذهول داخل هبة محل القدرة على الفهم فلزمت الصمت الذى اخترقته مهجة بسؤالها :

ـــ كان ميعادك معى فى الخامسة والنصف .. ثم أكتشف أنك مرابطة هنا دون أى اعتبار لى !! .

ابتسمت هبة فى حرج :

ـــ أنت أختى .. ولا تكليف بين الأخوات !!

استاء وجدى للحوار الدائر بينهما بصوت عال سمع الزبائن كل كلمة فيه . بمجرد خروجهم أراد أن يمسك بزمام الموقف كعادته دائما :

ـــ ما هذا الحوار الذى دار بينكما على مسمع من الجميع ؟! الأمور الخاصة والشخصية ليس مكانها هنا !

أدركت مهجة أن اندفاعها كان حادا أكثر من اللازم ، فخافت أن تصل بهبة إلى آفاق خطيرة من شك هى فى غنى عنه ، خاصة وأن نظرات وجدى ألمحت إليها بذلك فقالت له مستدركة :

ـــ مادار بينى وبين هبة مجرد عتاب رقيق بين الأخوات .. لا يحمل أية أسرار شخصية !!

استعاد وجدى ابتسامته مع سيطرته التامة على الموقف :

ـــ سأدخل مع هبة لاجراء التجربة .. وعليك تلبية طلبات الزبائن لحين الانتهاء منها !

ادعت مهجة المرح والدعابة :

ــ هيا إلى المذاكرة بدون مطرود .. كفاكما لعبا !!

سار وجدى إلى حيث اختفت هبة داخل المعمل ، لكن النار المتأججة فى قلب مهجة لم تخمد . حدثها قلبها أنه يلعب لعبة خطيرة ، لكن أين الدليل ؟! لن تعدم الوسيلة ، فعندما تتعرى الأجساد فى الفراش ، تتعرى معها النفوس ، وتعجز العيون عن اخفاء الأسرار ، وربما أفلتت عن اللسان كلمات وآهات لم تكن فى القاموس المشترك من قبل .

هرعت مهجة للقاء الزبائن وتحركت فى همة أمام الرفوف ، لكنها عجزت عن إبعاد عينيها عن باب المعمل المفتوح الصامت تماما .

ــ ١٠ ــ

قرر حلمى أن يزور أسرته أخيرا . بعد زفاف أخته إلى يسرى كان قد أقسم ألا يرى وجهه لأحد منها إلا بعد أن يثبت مكانته كشاعر له دواوين متداولة فى السوق . فكفاه سخرية وخاصة من أبيه الصارم الذى لا يرى فى هذه الحياة سوى حقائقها المادية البشعة . ويبدو أن زواجه من راقصة شارع الهرم وطلاقه منها بعد اكتشافه لخيانتها له مع أمير عربى ، قد شوه صورته تماما . لكن صورته المشوهة لم تكن مأساته الحقيقية . فقد اكتشف أن المجتمع لا يسمح لأحد بتحسين صورته ويصر على أن يعامله على أساس الصورة القديمة وكأنها القدر الذى لا فكاك منه . إن الله يغفر ذنوب الإنسان مهما ارتكب منها ، لكن البشر يرفضون المغفرة وكأنهم يجدون فى إذلال الآخرين تعويضا عما يدور فى داخلهم خفية . فإذا ارتكب الإنسان هفوة فى بداية حياته ، فإن عليه أن يكفر عنها حتى

نهايتها .

لكن حلمى شاعر ونظرته إلى الأمور لا بد أن تختلف . لم يجد فى زواجه سوى تجربة خصبة فى مجال المشاعر الإنسانية ، سجلها فى قصيدتين نشرهما بالفعل فى الجريدة التى يعمل بها دون أن يخجل منها ، لأنه قرر أن يترك الخجل الغبى للتقليديين الذين يعيشون تحت رحمة الآخرين. وجد فى زواج أخته من كهل يكبرها بعشرين عاما على الأقل مأساة لا تقل فى بشاعتها عن مآسى بيع الجوارى فى أسواق النخاسة القديمة . فلم يعد الإنسان هدفا فى حد ذاته ، بل أصبحت قيمته تقدر بسعر العملة الراهنة . فكيف يعيش الحب فى ظل هذه الظروف ؟! من هنا كان عنوان ديوانه الأول : « الأرض التى يموت فيها الحب » . وهو نفس عنوان قصيدته التى استلهمها من قصة أخته .

بمجرد خروج النسخة الأولى من المطبعة ، قرر أن يهديها إلى أبيه بالذات حتى يدرك قيمة ابنه الشعرية . إنه يريد دليلا ملموسا لا يقبل الجدل ، وها هو الدليل قد جاء أخيرا ليبطل كل سخرية ومكابرة . صحيح أن الديوان لن يعود عليه بأى مكسب مادى ، لكنه سيخفى هذه الحقيقة عن أبيه الذى لا يقيس أى شىء فى هذه الحياة إلا بمقياس العائد المادى . لكن الشىء المحير لحلمى إصراره على انتزاع اعتراف أبيه به كشاعر برغم عدم وجود أية علاقة له بالشعر ، سوى أنه يعرف أن شوقى بك أمير الشعراء قد تربى فى بلاط الخديوى ، وأنه درس فى المدرسة الثانوية كتابا اسمه « الشوقيات » .

كان مارس قد جاء بطلائع الدفء بعد صقيع فبراير . لم يخل الجو من لسعة برد لكن السحب رحلت تاركة للشمس عرشها الذهبى المبهر ، وأصبحت الشوارع والبيوت والأشجار مشعة بأضواء وصادحة بأصوات

تعزف افتتاحية قدوم الربيع الذى يعشقه حلمى لأنه يجد فيه النغمة التى يفتقدها المجتمع الذى فقد كل عناصر الحيوية والتجدد والانطلاق . ولعل هذا هو التفسير الذى استراح إليه حلمى وبرر به لنفسه قيادته لسيارته بسرعة تكاد تكون مجنونة . فإذا كان يفتقد انطلاقة الحياة ، فليس أقل من الاستمتاع بانطلاقة السيارة والموسيقى المدوية داخلها .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد ظهر ذلك اليوم عندما توقفت سيارة حلمى السوداء الصغيرة أمام الباب الزجاجى للعمارة الضخمة . وقعت عيناه لأول مرة على « صيدلية الحياة » التى كانت قد أغلقت أبوابها التى لن تفتح قبل الخامسة والنصف مساء كما هو مكتوب على بابها الزجاجى . وفوق مواعيد العمل قرأ حلمى اسم « وجدى الحنش » المدير المسئول وتعجب فى نفسه : كيف يجتمع الوجد والحنش فى اسم واحد ؟!

صعد حلمى على درجات السلم فى حلته التى تشبه زى جنود الميليشيا فى مزجه الرمادى بالأصفر بالبنى . بلغ باب شقة أخته فيما يشبه القفز . فقد قرر أن يصطحبها من الطابق الثانى إلى الطابق الأعلى حتى تكون عنصرا ملطفا لاحتمالات احتكاك متوقعة فى أول لقاء بعد ما يقرب من نصف عام . ضغط على زر الجرس وسرعان ما فتح الباب عن أخته فى بيجاما حمراء تختفى تحت روب من نفس لونها . لم تصدق عينيها فهجمت عليه بأحضانها التى خبر قوتها من قبل ، وتبادلا عبارات العتاب المتقطعة بين القبلات التى جاء يسرى على صوتها ووقف مبتسما فى روبه الكحلى اللامع الفاخر عندما رأى حلمى بعد غيبة طويلة .

تخلص حلمى من ذراعى أخته برفق ، فرحب يسرى به محتضنا إياه حتى لا يقل فى مظاهر حفاوته عن أخته . جلس ثلاثتهم على مقاعد

الأنتريه ، فى حين جلست مهجة على مسند حلمى قائلة فى دعابة :

— حماتك تحبك .. كنا على وشك تناول طعام الغداء !!

كم عشق مجاراتها فى دعاباتها :

— أولا .. ليست لى حماة .. ثانيا .. لا أريد أن أثير أزمة دبلوماسية أنا فى غنى عنها !!

تساءلت مهجة بنفس الدعابة المرحة :

— ألم يكن غيابك الطويل كافيا لإثارة مثل هذه الأزمة ؟!

— لى عذرى .. كانت فترة كلها أسفار ومهام صحفية .. لكن لن يكون لى أى عذر إذا تناولت الغداء هنا ثم صعدت إلى الطابق الأعلى دون قدرة على تناوله مرة أخرى !

ضحك يسرى وهو يضع ساقا فوق ساق :

— إذاً .. نقسم البلد نصفين .. نصف هنا ونصف هناك !

لاحظ حلمى التجاعيد المحيطة بعينيه وبرقبته والتى كشفها ضوء الظهيرة :

— إن كل وجبتى لا تزيد على نصف واحد فقط !

أدرك يسرى أن روح الدعابة عنده لا تقل عنهما :

— إذاً .. نقسم البلد ربعين !!

استدركت مهجة عندما وجدت أخاها على حق :

— سأعتبر مجيئك اليوم وعدا منك أو دعوة منا كى تتناول معنا الغداء فى يوم آخر مخصص لنا !

أطلق حلمى ضحكته المدوية :

— وعد ودعوة .. تتكلمين الشعر مثل أخيك تماما !! ولهذا السبب فقط سآتى خصيصا !

ثم نظر إلى ساعته :

ـــ هيا بنا الآن .. قبل أن يفوتنا ميعاد الغداء !!

لم يحرك يسرى ساكنا ، فقالت مهجة لأخيها :

ـــ أما يسرى فيتبع نظاما خاصا للأكل قد لا يتوافر فى البيت الكبير !

ـــ خيراً !

استدرك يسرى قائلا :

ـــ أبدا .. مجرد محاولة لإنقاص الوزن !

ـــ يمكنك أن تأكل قليلا !

تدخلت مهجة :

ـــ نظامه لا يقتصر على الكم .. بل على الكيف أيضا !

سعد حلمى لانفراده بمهجة لكنه ادعى الأسف :

ـــ كنا نريد الاستمتاع بصحبتك !

علق يسرى فى اقتضاب :

ـــ سنستمتع بصحبتك عندما تخصنا بتشريفك !

تدخلت مهجة قائلة لحلمى :

ـــ لحظة واحدة .. سأغير ملابسى لأصعد معك !

اختفت مهجة فلم يجد يسرى شيئا يفعله سوى تبادل الابتسامات والتحيات مع حلمى الذى اخترع بدوره بعض الأحاديث حول الطقس والدفء الذى حل بعد موجة من الصقيع والأمطار ، لكنه تحاشى حديث السياسة والاقتصاد والمجتمع لأنه لن يصل معه إلى اتفاق فى وجهات النظر .

خرجت مهجة من غرفة نومها فى بنطلون جينز ضيق وبلوزة صوفية حمراء تكشف عن مفرق صدرها . لاحظ حلمى عدم ارتياح زوجها لكنه

استأذن منه وسرعان ما كانا فى المصعد يسألها :
ـــ هل كل شىء على ما يرام ؟!
أجابت معجبة بنفسها فى مرآة المصعد :
ـــ اكتشفت أنه مصاب بقرحة فى المعدة يحاول إخفاءها عنى بادعاء ريجيم خاص .. لكنه يتناول نفس أدوية بابا !
حاول تخفيف النبرة الآسية :
ـــ معذور .. فجمالك يمكن أن يصيب أى زوج بالقرحة والضغط والسكر .. والقلب طبعا !
توقف المصعد عند الطابق الأعلى . خرجا منه لتضغط على زر الجرس عدة مرات قبل أن تفتح المربية العجوز الباب وهى لا تكاد تتبين وجه حلمى خلف نظارتها السميكة فعاجلها :
ـــ كيف حالك يا دادة ؟!
ـــ الحمد لله يا بنى !
قالتها واختفت فى المطبخ فى حين جلس حلمى على أول مقعد فى الأنتريه . اختفت مهجة وبعد لحظات عادت مع الأم فى روبها البنى الداكن . احتضنها حلمى وهى تكاد تبكى :
ـــ ما هذه الغيبة الطويلة يا حبيبى ؟! أليست لك أسرة تسأل عنها ؟!
ـــ كنت كلما أنوى المجىء .. تُطلب منى مهمة عاجلة غالبا ما تستدعى السفر .. كما أن وجودى فى البيت كان نادرا بالنسبة لمن يطلبنى فى التليفون !!
ـــ كل هذه أعذار واهية !!
ـــ كما أننى قررت أن آتى ومعى أول ديوان لى !!
ثم أخرج من جيب جاكتته التى لم تعجب أمه بشكلها شبه

العسكرى ، كتيبا صغيرا على غلافه خطوط تجريدية تجمع بين الأحمر والأسود ، قدمه لأمه بمنتهى التيه والفخر ، لكنها نظرت إليـه دون أن تمسك به :

ــ زار الطبيب أمس أباك وطلب رسما للقلب .. وتحليلا لتشخيص ما يعانيه فى كليته !!

ــ لم يشك بابا من الكلى من قبل !

ــ لم يعد كما كان .. صحته فى تدهور مستمر .. وابنه الوحيد لا يهتم بمجرد السؤال عنه !!

أعاد حلمى الكتيب إلى جيبه مرة أخرى :

ــ وأين بابا ؟!

ــ ينفذ نصيحة الطبيب بالجمع بين الاسترخاء والحركة الخفيفة !! إنه فى فراشه الآن !

دخل حلمى غرفة نوم أبيه وخلفه أمه وأخته . وجده مسترخيا فى بيجاما صوفية بيضاء يحملق فى السقف وعندما رأى ابنه نهض جالسا حيث احتضنه بعنف لدرجة أن طاقيته أوشكت على السقوط خلف رأسه :

ــ سلامتك يا بابا .. ألف سلامة !

رد الأب بعتاب لا يخلو من صرامته القديمة :

ــ هل نسيت أباك ؟!

لاحظ حلمى أن تنفسه يعانى بعض الصعوبة فابتعد قليلا ، فى حين جلست الأم على الحافة الأخرى من الفراش ، ومهجة على مقعد صغير مواجه لأخيها الذى وجد الإجابة أخيرا :

ــ وكيف أنسى الذى ربانى وعلمنى ؟!

أجاب الأب وهو يشيح بوجهه بعيدا فى وهن :

ـــ لا زلت تنمق الكلام وتبيعه دون أن تفعل شيئا مفيدا !

ابتسم حلمي كمن يخفي شيئا . وضع يده في جيبه وأخرج الكتيب الصغير وقدمه إلى أبيه :

ـــ وهذا لكي أثبت لك عمليا أنني فعلت أخيرا شيئا مفيدا !

أمسك الأب بالكتيب وهو يقرأ الغلاف بعينين مجهدتين :

ـــ « الأرض التي يموت فيها الحب » .. ما هذا ؟! ألا زلت تتاجر في الحب والكلام الفارغ ؟!

اجتاحه الإحراج لكنه لم يتخل عن ابتسامته :

ـــ ولهذا السبب قلت إن الحب مات .. حتى لا تغضب مني !

أعاد إليه الكتيب دون أن يفتحه :

ـــ كنت أتمنى أن تكون رجل أعمال ناجحا مثل يسري .. حتى تحمل المسئولية بعدي ! لكن يبدو أن أوان هذا الكلام قد فات ؟!

وضع حلمي الكتيب في جيبه والمرارة تقطر من كلماته :

ـــ متعك الله بالصحة والعمر الطويل !!

ـــ لم يبق في العمر ما يجعلني أحرص عليه !

لم تحتمل مهجة هذه اللهجة المأسوية . نظرت إلى أمها ثم اصطنعت ضحكة قالت على أثرها :

ـــ يبدو أننا سنقضي وقتنا في البكاء على الأطلال حتى نموت كلنا جوعا ؟!

نهضت الأم وخرجت للحظات صمت ثقيلة ثم عادت لتعلن :

ـــ المائدة جاهزة في انتظار تشريفكم !!

نهضت مهجة ومعها حلمي في انتظار الأب الذي وضع روبا رماديا على كتفيه وسار متثاقلا حتى غرفة المائدة التي تصدرها وإلى يمينه

زوجته ، وإلى يساره حلمى ومهجة . مسح حلمى بعينيه الغرفة الأنيقة العريقة ذات اللون البنى الداكن التى لم يدخلها تقريبا منذ هجره للبيت مغضوبا عليه من أبيه ، وسكنه فى شقته الصغيرة بشارع عماد الدين ، والتى عشق فيها وحدته وعزلته بعد تجربة الزواج الفاشلة . إنه يحن إليها حتى لو كان بين أهله كما هو الآن .

دار عم بسيونى الطباخ عليهم بالحساء وفواتح الشهية . انهمك الجميع فى الاحتساء فى حين شرب الأب كوبا من الماء ليبتلع ثلاثة أقراص من زجاجات مختلفة قائلا لابنه :

ــ لولا مهجة لما كان من السهل الحصول على قرصين من هذه الأقراص !! لو كانت عاشقة للشعر مثلك .. لكان من الممكن أن أموت بحثا عن دواء غير متوفر !

لم يجد حلمى كلاما مناسبا لكن أخته أنقذته :

ــ الفضل فى ذلك يرجع إلى وجدى .. فلو كان صيدليا عاديا تقليديا لما تمكن من احضار الأدوية النادرة .. فعلاقاته قوية ومتشعبة بشركات الأدوية ومندوبيها .. وهو الآن يفكر فى انشاء مكتب للاستيراد والحصول على توكيلات لتوزيع منتجات الشركات العالمية !

سألها أخوها :

ــ يبدو أنه صيدلى طموح .. كيف عثرت عليه ؟!

أجابت بعفوية مطلقة :

ــ كان زميلى فى الكلية .. وبرغم أنه كان أول الدفعة فقد رفضوا تعيينه معيدا لأنه لم يكن محسوبا لأحد .. فهو فقير ومتواضع للغاية !

نظر حلمى إلى أخته نظرات زاخرة بالتساؤل الشائك لكنها لم تلتفت إليه إلا عندما قال :

ــ كنت أود أن يكون يسرى معنا !!
أجابت مهجة فى اقتضاب :
ــ إنه مشغول دائما !
أخيرا وجدت الأم ما يمكن أن تقوله :
ــ كان أبوكم على حق .. فهى فى منتهى السعادة والاستقرار معه .. ولا ينقصهما سوى مجىء الطفل .. وإن كنت أفضل أن تعرضى نفسك على طبيب لأمراض النساء !

تبادلت مهجة نظرات مشحونة بالمعانى مع أخيها ثم قالت لأمها على سبيل بتر خيوط المناقشة :
ــ كل شىء بأوانه !

ندم حلمى على مجيئه . لا أحد يريده وإن كان الجميع يعاتبونه بمنتهى الحرارة والشجن على غيابه الطويل . بل إن مجرد وجوده معهم ، تعذيب له ولهم . قالوا له فى صباه إن الدم يحن لكنه يبدو أنها ليست مسألة دم بل عقل ووجدان وفكر . أما رابطة القطيع فمن المستحيل أن تنطبق على البشر لأن الله خلقهم مختلفين اختلاف بصمات الأصابع . إنهم يريدونه طبقا لشروط خاصة بهم ومواصفات مسبقة وضعوها له ، فإذا دافع عن كيانه ، فهو عاق وطائش وأحمق بل ومنحرف . كان يظن أن ديوانه الأول سيكون شهادة ميلاده الجديد ، لكن أحدا لم يعبأ حتى بمجرد السؤال عن معنى عنوانه برغم أن مضمون قصيدته الرئيسية مأخوذ عن قصة زواج مهجة من يسرى . ولولا خوفه من التكرار لأصدر ديوانه الثانى بعنوان : « الأرض التى يموت فيها الشعر » .

ساد الصمت ولم تسمع سوى أصوات الاحتساء والمضغ . لم يشأ حلمى أن يقطع الصمت الذى كان خيراً من ألف حوار ، برغم أنه كان خبير اختراع الموضوعات المثيرة للسمر والثرثرة والحوار الشائق . تخلت

عنه الشهية المفتوحة التى جاء بها ، فانتهى من طعامه بأقصى سرعة وهو ينظر إلى ساعته متظاهرا بضيق الوقت . شعرت به مهجة وفهمت كل حركاته فأنهت طعامها هى الأخرى . اضطر حلمى إلى الكذب وهو يتململ فى مقعده إيذانا بالنهوض :

ــ كنت أريد أن أقضى بقية اليوم معكم .. لكن اجتماعا لمجلس التحرير سينعقد فى تمام السادسة ولا بد من حضوره ..

كانت الأم تقضم قطعة صغيرة من اللحم المشوى :

ــ انتظر حتى تتناول الفاكهة والحلو !!

ــ سأعقد اجتماعا لمحررى الصفحة الأدبية حتى أعرف مطالبهم قبل اجتماع مجلس التحرير !!

سأله الأب بعد أن انتهى من حسائه الخفيف :

ــ ومتى سنراك ؟!

ــ فى القريب العاجل إن شاء الله ..

تساءل الأب فى سخرية :

ــ مثل القريب العاجل الذى مضى منذ نصف سنة ؟!

كان حلمى على وشك أن يفتح الموضوع برمته وأن يؤكد له أنه لو كان قد وجد التفاهم والترحيب المناسبين لمر عليهم كل يوم ، لكنه أدرك فى اللحظة الأخيرة عدم جدوى الحوار الذى ثبت عقمه من قبل عدة مرات . قال على سبيل المجاملة التقليدية محاولا اخفاء افتعالها :

ــ لن أطيل من غيبتى مرة أخرى .. فليس لى فى الدنيا أحد سواكم !

تدفق الحنان من عينى الأم فى حين نهض حلمى حيث اختفى لغسيل يديه ومعه أخته . عاد كلاهما فقبل أمه فى وجنتها ، وشد على يد أبيه فى حين قالت مهجة :

ــ سأقوم بتوصيله حتى السيارة !

قصد حلمى إلى الهبوط البطىء على درجات السلم مع أخته التى تعجبت لرفضه ركوب المصعد عندما فتحته له . سألها وصدى السلم الصامت يردد نبراته :

ــ هل الدكتور وجدى هذا .. هو الشاب الذى كان يرغب فى التقدم لطلب يدك ؟!

كادت مهجة أن تتعثر على درجات السلم لولا قبضتها القوية على سوره عندما فاجأها أخوها بالسؤال ، لكنها لم تتعود الكذب عليه :

ــ طلبته للعمل فى الصيدلية لأسباب عملية بحتة .. فهو ماهر وذكى لدرجة أنه فى شهور معدودة كون لى ثروة ستمكننا من افتتاح مكتب لاستيراد الأدوية التى لا تتوفر فى السوق !

ــ إذا كنت واثقة فى كلامك هذا .. فلا خوف عليك .. لأننى أعتقد أن اللعب بالحب أخطر بمراحل من اللعب بالنار .. وإن كانت للقلب قوانينه الخاصة التى قد تدمر صاحبه !

تعجبت مهجة لأفكار أخيها االتى انطلقت كالسهام إلى قلبها ، لكنها كانت تعرف المدخل الصحيح لإقناعه :

ــ أنت أول من يعلم أن أسرتنا خير بيئة للحب كى يموت فيها ؟!

ابتسم حلمى وربت تلقائيا على الديوان فى جيبه ثم أخرجه وقدمه إليها :

ــ أريد أن أعرف رأيك فيه ؟! فالأسرة الكريمة لم تكلف نفسها مجرد الاستفسار عما إذا كان ديوان شعر أو دفتر مواعيد قطارات السكك الحديدية ؟!

أمسكت مهجة بالديوان بإعزاز واضح :

ــ قلبى يحدثنى بأن فى هذا الديوان شيئا منه !!

نظر إليها فى جدية مفاجئة قبل بلوغ الباب الزجاجى الكبير للمدخل :

ــ إذا كان نداء القلب لا يقاوم .. فلا بد من مواجهة الأمور بصراحة وإخلاص !

لم تستوعب مهجة ما قاله أخوها . كانت مشغولة بإمتاع عينيها باسمها المكتوب بالذهب على باب الصيدلية الزجاجى فوق اسم وجدى : صاحبة الصيدلية : دكتورة مهجة عبد الرحمن ، فى حين فتح حلمى سيارته وجلس أمام عجلة القيادة سائلا إياها وهو يقرأ اسم « وجدى الحنش » :

ــ كيف تقبل زواجك من يسرى ؟!

ــ تقبله ببساطة شديدة .. بل إنه هو الذى دفعنى للزواج منه .. كان كل همه أن يرانى سعيدة .. سواء معه أو مع غيره ؟!

شرد حلمى أمامه للحظة :

ــ هل لا يزال فى هذا الزمن الغريب .. من يسلك هذا السلوك ؟!

عادت من شرودها هى الأخرى ضاحكة فى خفة :

ــ لا تزال الدنيا بخير !!

لوح حلمى لأخته مودعا وانطلق بسيارته الصغيرة كالصاروخ بين السيارات الأخرى وهو يملأ رئتيه بهواء الربيع النقى ، ويمسح بعينيه الوجوه النضرة والأجساد البضة للفتيات اللاتى يتهادين على جانبى الطريق الفسيح المنير .

لم تكن هبة بالسذاجة التى تصورها كل من مهجة ووجدى . لم يدركا — فى حمية الشد والجذب بينهما — أن هذه المراهقة الصغيرة تملك من الغريزة الأنثوية ما يمكنها من إدراك حقيقة العواطف التى تعتمل فيمن حولها . كانت تتقرب من وجدى لضرب عصفورين بحجر واحد ، الأول : الحصول على أكبر قدر ممكن من علمه وخبرته حتى تواصل تفوقها ، والثانى : البلوغ بغيرة مهجة على وجدى حدا يكشف لها نوعية العلاقة التى تشك فى وجودها بينهما . فهى من أسرة ثرية أرستقراطية وكان المفروض أن تعامل وجدى معاملتها لأى أجير يعمل فى خدمتها ، لكن المرة الأخيرة عندما رأتهما سويا فى المعمل أثبتت لها أن شيئا غامضا يدور فى الخفاء ويمس أخاها الذى دفعته دفعا للزواج من مهجة . إنه المثل الأعلى فى حياتها ، ولا يمكن أن تسمح لأى مخلوق أن يتلاعب به ، حتى لو فقدت من يشرح لها ما غمض عليها فى دراستها . فلا بد أن يعرف كل واحد قدر نفسه ، وأن يلتزم حدوده .

عندما دخلت هبة الصيدلية توقف حوار كان دائرا بين وجدى ومهجة التى حرصت فى الفترة الأخيرة على التواجد بالصيدلية طوال ساعات فتحها . كانت الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف بعد ظهر أول يوم فى أبريل حين نهضت مهجة للسلام على هبة دون تبادل للقبلات التى أصابها البرود مع قدوم الربيع ثم تلاشت أخيرا . لكن وجدى ظل على ترحيبه بهبة بل وضاعف من حماسه لها بعد أن ظن أن الحواجز العالية بينهما قد بدأت تتلاشى تماما مثل القبلات بينها وبين مهجة . كانت نظرات مهجة تنم عن

عجز كامل عن الترحيب ، لكن هبة لم تعبأ وجرت مقعدا جلست عليه إلى جوار وجدى وهى تكاد تلتصق به . ساد الصمت المتفجر المكان ولم يسمع سوى صوت فتح هبة لحقيبتها وإخراج أوراقها المعتادة . لم تستطع مهجة أن تكبت الشرر المتطاير من عينيها :

ــ هجوم الزبائن على الصيدلية تضاعف بحيث أصبحت عمليات البيع والتركيب تستغرق كل لحظة نقضيها هنا !

فهم وجدى ما تعنيه مهجة لكن آماله فى الزواج من هبة كبرت :

ــ من جد وجد ومن زرع حصد !

ضحكت هبة بدلال أنثوى لم تعهده فيها مهجة من قبل :

ــ أنا من أنصار هذا المبدأ فى دراستى .. لدرجة أننى أصبحت مثار حسد زملائى وزميلاتى !

أوشكت مهجة على الاحتراق بنارها :

ــ أدركت أخيرا أن العمل هنا يجب أن يأتى فى المقدمة قبل أى شيء آخر !!

تذكرت هبة يوم صرحت مهجة بأن الصيدلية كلها لا تهمها فى كثير أو قليل ، فأرادت أن تخوض مواجهة خفية معها لأول مرة :

ــ المرأة الشرقية بالذات تضع الزواج والأسرة والأولاد فى المقام الأول ! وهذا ما يجب أن يكون !

أجابتها مهجة وقد شدت عيناها إلى نتيجة معلقة على الحائط رسمت عليها الأفعى الملتفة حول الكأس تقطر فيها سمها :

ــ وما دام هذا رأيك .. فما السر فى انكبابك على الدراسة بهذا الشكل المستميت ؟! ما علاقة الصيدلة بالزواج والأسرة والأولاد ؟!

شعرت هبة أنها بلغت قمة الكيد لكنها لم تتراجع :

ــ أبدا !! إننى أشغل وقت فراغى حتى لا يقتلنى الملل فى انتظار ابن

الحلال الذى قد يطول !!

قالت الجملة الأخيرة وهى تنظر فى سعادة مبتسمة إلى وجدى الذى كان يشنف آذانه بألحان لم يسمع مثلها فى عذوبتها من قبل . لم يكن يحلم بتصريح مكشوف من هذا النوع المبهر . الفتاة تعيش على أمل الزواج منه !! لم يقلل من روعة الحلم سوى وجود مهجة !!آثر الصمت لعله يسمع نغمات أشد عذوبة !! صحيح ما خفى كان أعظم !! ابتعد بعينيه عنهما حتى لا يُطحن بينهما ! كانت مشاهدة المارة على الطوار خارج الواجهة الزجاجية متعة لا تعادلها متعة ! لكن نظرات مهجة طاردته فى محاولة لتستشف ما يدور داخله .

قدمت إليه هبة ملفا صغيرا وهى تقول فى سعادة بالغة :

— لقد حصلت على امتياز فى هذا البحث !

نظر فى حرج متعجل إلى مهجة ثم ابتسم لهبة :

— أرجو أن تحققى ما عجزت أنا عن تحقيقه !

تحول الدلال فى عينى هبة إلى إغراء صامت متسائل فأجاب :

— أقصد أن تفوزى فى النهاية بوظيفة معيد تمهيدا للماجستير والدكتوراة !

— الزواج هو هدفى النهائى كما قلت لمهجة !

نظرت إلى مهجة فى ابتسامة قاتلة . دخل بعض الزبائن فأسرع وجدى لخدمتهم ، فقد شعر أن المواجهة بينهما قد بلغت حدودا خطيرة ، ويكفيه غنيمة التصريحات المذهلة التى أدلت بها هبة والتى انهمكت الآن فى الاطلاع على بعض الأوراق التى أخرجتها من حقيبتها . أما مهجة فظلت قابعة أمام الخزانة الكهربية الصغيرة تتابع بعينيها الزبائن تارة عندما يدفعون ، وتراقب تارة أخرى وجدى ثم هبة تارة ثالثة وهكذا . فى حين

انهمك وجدى فى عمله متمنيا ألا ينقطع سيل الزبائن . لكن الصيدلية فرغت مرة أخرى وإذ بهبة تلملم أوراقها داخل حقيبتها وتنهض :

ـــ لن أضيع وقتكما أكثر من هذا .. فلم تعد الصيدلية مكانا صالحا للاستذكار خاصة وأن عدد الزبائن فى تزايد مستمر !!

لاحظت هبة أمارات الارتياح الشديد على وجه مهجة الذى انداحت من حوله سحب الغيرة والغم . شرعت فى ابتسامة كمقدمة لتقول شيئا لكن هبة عاجلتها بابتسامة موجهة إلى وجدى :

ـــ لماذا لا تشرفنا فى البيت ؟! ستسعد ماما بوجودك كثيرا !! لن أطلب منك وقتا خاصا لمساعدتى .. كل ما أطلبه مجرد جزء يسير من وقت فراغك سواء فى فترة ما بعد الظهر أو بعد إغلاق الصيدلية مساءً !

تكاثفت السحب الرمادية الداكنة على وجه مهجة فامتزجت بصفرته التى لم تشهدها من قبل . تمنى وجدى أن تنشق الأرض لتبتلع مهجة ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه . بحث عن كلمات لاهثة ليسد بها فراغ الصمت الرهيب فلم يجد سوى :

ـــ أنا تحت أمركم يا فندم !!

ـــ وهو كذلك .. سأنتظرك فى أوقات فراغك .. أنا لا أخرج من البيت إلا للذهاب إلى الكلية !! ولعل فترة المساء تناسبنى وتناسبك تماما !!

تحول وجدى إلى إنسان آلى :

ـــ تحت أمركم يا فندم !!

ـــ باى . باى !

لوحت هبة بيدها وخرجت إلى حيث استقلت عربتها التى انطلقت بها بنفس سرعة دقات قلب مهجة الذى كاد أن يقفز من بين ضلوعها . جاء

زبائن آخرون سعد بهم وجدى وهرع لتلبية طلباتهم ، لكن مهجة الجالسة وراء الخزانة أخطأت أكثر من مرة فى عد النقود ، فقد كان ذهنها مشغولا بالبحث عن الكلمات المناسبة التى تكفل لها وضع النقط الضائعة على الحروف التائهة . بمجرد مغادرة آخر زبون قالت :

— ما حكاية « تحت أمركم يا فندم » هذه ؟!

حاول أن يخفى الملل والحرج من نبراته :

— إن من صالحنا معا أن نكسب كل الأطراف المعنية كما قلت لك من قبل أكثر من مرة !

— إنك تعمل عندى .. وليس عندها !!

لم يكن يتصور أنه فى نظرها مجرد أجير ، لكنه لم يشأ أن يدخل معها فى دائرة مفرغة من الحوار العقيم بعد أن أصبحت الثمرة الأخرى دانية ، بل قل هى الثمرة الحقيقية . قال بنفس النغمة :

— وأنا تحت أمرك أيضا !

نضحت السخرية المرة من نبراتها :

— يبدو أنك على استعداد لوضع نفسك تحت أمر كل الناس ؟!

— يبدو أنك لم تعرفى هذه الحقيقة المرة إلا الآن ؟! برغم أنك أول من أدرك أننى تحت رحمة الآخرين منذ أن ولدت .. ولست تحت أمرهم فقط ؟!

لاحت فى الأفق نذر أول مواجهة بينها وبينه بسبب تلك الأفعى الصغيرة . تداركت الأمر وتركت الخزانة لتجلس إلى جواره على مقعدها وتربت على يده :

— لم أقصد أن أضايقك !! لكن الحب أعمى كما يقولون !!

— ولماذا لا أشعر أنا بالغيرة من يسرى ؟!

ـــ لا تظن أن هذا شيء يسعدني ! فالغيرة الملتهبة في نظرى هي أكبر دليل على الحب المشتعل !

ـــ لو تجاهلت هبة أو ضايقتها فربما دفعت أخاها إلى الضغط عليك كى يطردنى من الصيدلية ؟!

ـــ إنها ملكى أنا وليست ملكه !!

ـــ لكنه فى النهاية زوجك ولا يمكن تجاهل حكمه إذا صدر !

ـــ أصبحت تحسب لكل الأمور حسابها ما عدا حبى لك !! ويبدو أنك نسيت أننى لم أزرك فى شقتك منذ ما يقرب من شهرين .. كما أننى لم أذق شفتيك منذ عشرة أيام برغم أن غرفة المعمل تحت أمرنا فى أية لحظة !

ـــ لم نعد نملك الحرية القديمة بعد أن تغيرت الظروف !

حاولت إخفاء أصداء التحدى فى تساؤلها :

ـــ وهل يمكننى أن أعرف هذه الظروف ؟!

ـــ وجود هبة شبه المنتظم فى الصيدلية .. وتزايد عدد الزبائن المترددين عليها !!

ـــ الزبائن أمرهم سهل .. يمكننا أن نغلق الصيدلية علينا نحن الاثنين ولو لمدة دقائق !! أما بالنسبة لهبة فقد قررت من تلقاء نفسها ألا تتردد مرة أخرى على الصيدلية !!

ـــ إن أية هفوة نرتكبها فى الصيدلية يمكن أن تقضى عليها أو علينا إلى الأبد !!

ـــ إذاً .. شقتك هى أكثر الأماكن أمنا .. فقد شهدت أسعد لحظات حياتنا طوال ما يزيد على أربع سنوات .. ولم يعرف عنها أحد شيئا !!

— ومتى يمكننا التردد عليها سويا ؟!

— ولماذا لا نذهب إليها الآن ؟! فأنا أحترق شوقا إليك !

— وماذا سيقول الناس .. وخاصة أسرتك عندما يجدون الصيدلية مغلقة ؟! إن الأمور لا يمكن أن تؤخذ بهذه البساطة من أجل نزوة طارئة !!

ندم وجدى على فلتة لسانه الحريص دائما لكن بعد فوات الأوان . كانت مهجة قد التقطت الخيط :

— أصبح حبى لك الآن مجرد نزوة طارئة فى نظرك !!

— سامحينى .. لم أقصد هذا على الإطلاق .. فخوفى عليك أكبر دليل على حبى لك !

فاجأته بالسؤال :

— هل نويت الذهاب لزيارة هبة كما وعدتها ؟!

— إذا لم يكن هذا يضايقك ؟!

— وإذا ضايقنى ؟!

— أنا تحت أمرك !

ومضت عيناها بلمعان مخيف :

— يمكنك الذهاب إليها بشرط —

صمتت فى انتظار ما ستقوله عيناه على الأقل . وجدت فيهما شوقا قاتلا لما ستقوله :

— بشرط أن تدخل معى غرفة المعمل الآن !

— وماذا عن الزبائن القادمين ؟!

— باب المعمل مغلق .. ثم إننا سنسمع الباب الزجاجى وهو يفتح .. بالإضافة إلى صوت أقدامهم بالطبع .. عندئذ يمكنك أن تخرج أنت أو أخرج أنا للترحيب بهم !

لم يستطع وجدى إخفاء بوادر الإحباط الذى حط على وجهه :

ــ وماذا سيكون طعم ما نفعله إذا تم بهذا الشكل ؟!

نظرت عبر الباب الزجاجى وكأنها تسترجع أصداء الماضى :

ــ لم يعد لما نفعله طعم عندك ؟!! لم تعد تحبنى منذ أن دخلت هذه الأفعى حياتنا !!

ــ لم أحب سواك !!

ــ أريد الدليل العملى !!

ــ تحت أمرك !

ــ ندخل المعمل الآن والصيدلية خالية من الزبائن !

ــ تحت أمرك !

ــ لا أحب هذه النغمة ! ومع ذلك هيا بنا !

جذبته من يده فانقاد خلفها إلى أن ابتلعتهما الغرفة الصغيرة ذات الضوء المعتم . احتضنته بعنف خانق فخاف أن تظن به الظنون ، فاستجاب لها وانهال بشفتيه على شفتيها يعتصرهما بصوت من يمص ليمونة حريفة الطعم ومثيرة للقشعريرة . تحولت المجاراة إلى رغبة عارمة دفعته إلى رفعها بين ذراعيه فإذا بالنهدين ينصهران تحت وابل قبلاته ويطلقان حممهما فى كل اتجاه .

كان وجدى كمن يحلم بكابوس عندما رأى من بين رموشه التى انفرجت قليلا وجه هبة يطل مع الضوء الذى تسلل من الباب الذى فتح قليلا . فى اللحظة الأولى ظن أن الخوف بلغ به هذا الحد الذى رأى عنده وجه هبة ، لكن عندما سمع صوت الباب وهويغلق ثانية لتعود العتمة كما كانت ، تأكد أنه كابوس حى حقيقى قد لا يستيقظ منه أبدا . ألقى بمهجة على المائدة الصغيرة فاهتزت القوارير والقنينات بعنف . فتح الباب

فوجد الصيدلية خاوية على عروشها . فتح الباب الزجاجى الكبير ومسح الطوار والشارع بعينيه ، يمنة ويسرة ، لكن لم يكن هناك أثر لهبة . فى نفس اللحظة دخل رجل مسن يطلب أقراص منع الحمل فاعتذر وجدى عن عدم توافرها فخرج الرجل ونظراته كلها شك وريبة .

كانت مهجة واقفة أمام باب المعمل المغلق ، تهز ساقها اليمنى فى عصبية بالغة وقد وضعت يدها اليمنى على جانبها المرتعش :

ـــ هل يمكن أن تفسر لى معنى ما فعلته الآن ؟!

أجاب وهو يحك شعره الخشن بعصبية بالغة :

ـــ ألم تشعرى بشىء على الإطلاق ؟! ألم ترى هبة وهى تفتح الباب لترانا ونحن على هذا الوضع ؟!

اهتزت مهجة فى وقفتها كأنما أصابتها رعشة جعلتها تعتدل دون أن تفتح فمها بكلمة . قال وجدى وكأنه عجوز تندب حظها العاثر :

ـــ كم قلت لك الحرص واجب .. الحيطة ضرورية .. أعمتك الغيرة والرغبة فلم ترى أبعد من موطىء قدميك !! وها أنت تهدمين كل شىء كما توقعت تماما !! ما ربط بيننا سيكون هو نفسه السبب فى انفصالنا الأبدى !! كما سأعود ـــ على أحسن الفروض ـــ إلى الشارع بعد أن خسرت الرجل الذى آوانى فى زمن رفضنى فيه الجميع !!

قاومت مهجة أمواج الكابوس قدر إمكانها ، وتعلقت بقشة سعيدة أوحت إليها بأن ما رآه وجدى هو محض أوهام صورتها له مخاوفه ، أو محض أكاذيب ابتدعها ليتخلص منها بعد أن وضع خطته الخاصة بزواجه من هبة . تساءلت والشوق يحرقها لإثبات صحة ظنونها :

ـــ لم أكن أعرف أن الجبن قد بلغ بك حد هذه الظنون والأوهام السخيفة !! لم تعد وجدى الذى عرفته من قبل ؟!

نزلت إجابته على رأسها كحجر بعثر مخها إلى أشلاء :

ــ ستؤكد لك المصائب القادمة غدا أو بعد غد أن الجبن والوهم لم يصلا بى إلى هذا الحد !

ــ لا أكاد أصدق أذنى ! لماذا عادت ؟! هل كانت تراقبنا ؟! أم أن الأمر مجرد صدفة ؟! هل ستقول ليسرى ما رأته إذا كان هذا واقعا حقيقيا ؟! ما العمل الآن ؟!

ــ لأول مرة أشعر بتفكيرى وقد شل تماما ! إننى الذى أسألك : ما العمل ؟! وماذا يمكن أن يكون موقف يسرى ؟!

استجمعت شتات تفكيرها :

ــ سأبدأ الحرب ضدها .. حتى يشك يسرى فى كل كلمة تقولها ضدى !! لقد ألقت بشباكها عليك أمام عينى ودون خجل .. فإذا ادعت الشرف فلن أرحمها وسأفضحها عند أخيها !! أما ما ستقوله عنى فهو كذب فى كذب .. أليس اليوم أول أبريل ؟!

ــ ما حدث ليس بالبساطة التى تتصورينها !! كما أننى سأكون المطحون كعادتى دائما فى النهاية .. سواء من هجومها أو هجومك !!

دخل بعض الزبائن الصيدلية فهرب وجدى من نفسه بتلبية طلباتهم ، وتمنى أن يستمر هجومهم حتى منتصف الليل . لكن عددهم فى هذه الليلة الكئيبة لم يكن كالمعتاد. بمجرد خلو الجو قال :

ــ سأحاول مقابلتها لأشرح لها خطأ ظنونها .. فعتمة الغرفة يمكن أن توحى لها بأشياء غير حقيقية !! وسأصل معها إلى حد الاستعطاف إذا كانت متأكدة من كل شىء .. وعازمة على إخبار أخيها !

ــ إياك أن تفعل شيئا من هذا القبيل !!

ــ لماذا ؟!

ـــ لأنك بهذا ستثبت علينا ما سننكره تماما ! فهى كاذبة تماما وتريد أن تدمر حياتنا الزوجية !

ـــ وإذا مال إلى تصديق أخته ؟!

ـــ عندئذ سأطلب الطلاق .. وسأتزوجك برغم أنف الجميع .. فالصيدلية ملكى .. والشقة أصبحت باسمى !!

ـــ وهل يمكنك أن تتصرفى بهذه القوة ؟!

ـــ سترى !

ـــ وإذا رفض الطلاق ؟!

ـــ هذا إذا لم يكن لديه ذرة كرامة ! لكننى واثقة من أنه لن يقبل استمرار هذا الوضع ـــ خاصة وأن أسرة أمه من أعرق الأسر الإقطاعية فى أعالى الصعيد .. وقضية الشرف عندهم أغلى من الحياة ذاتها !

انقشعت الغمة بعض الشيء لكن الخوف الذى عشش فى قلب وجدى لم ينقشع :

ـــ إذا سارت الأمور على هذا المنوال .. فإن أحلامنا القديمة تكون قد تحققت فى طرفة عين ! أخشى أن يجرفنا التفاؤل ويعمينا عن رؤية الواقع الجديد !

قاومت مهجة موجات الخوف داخلها :

ـــ كل ما أعرفه أننى لا أستطيع العيش بدونك .. وعلى هذا الأساس ستكون كل تصرفاتى !

انحسرت موجات اليأس المر إلى شواطىء بعيدة بعض الشيء :

ـــ لن أسمح لنفسى منذ الآن أن أعيش على كف عفريت .. سأصل مع الآخرين إلى آخر المدى الذى لا يخطر لهم على بال !

شعرت مهجة بعودة وجدى القوى الصامد الزاخر بالتحديات

الخطيرة ، برغم أنها لم تفهم معنى كلماته :

ـــ لم يعرف قلبك الخوف سوى فى الشهور التى عملت فيها هنا ؟!

ـــ هذا لأننى حرصت على إرضاء جميع الأطراف ظنا منى أنها الطريقة المثلى للحفاظ على المكاسب الهزيلة التى حققتها .. لكننى أدركت الآن أن الحرص عندما يزيد عن حده لا بد أن ينقلب إلى ضده !

أمسكت بيده فى حنان ساخن متسائل :

ـــ هل تعدنى أن تساندنى فى معركتى حتى النهاية .. وألا تتخلى عنى كما فعلت من قبل ؟!

ـــ الظروف تغيرت تماما .. وأنا لا أحب أن أكرر الأخطاء !

دخل الزبائن ، الواحد بعد الآخر ، فانهمك وجدى فى خدمتهم ، ومهجة فى الحصول على أثمان المشتريات . ومع ذلك تبادلا نظرات مشعة ذكرتهما بالآمال والأحلام الملتهبة التى عاشاها طوال سنى الدراسة ، والتى يبدو أنها أوشكت على أن تتحقق ! فإذا لم يواجها العاصفة الآن وهما فى فورة الشباب ، فمتى تكون المواجهة ؟!

هبت عاصفة ترابية خارج الباب الزجاجى ، فعلق زبون شاب بأن رياح الخماسين هذا العام قد جاءت بطلائعها قبل الأوان !

لم تكن عادة يسرى أن يعود إلى منزله فى ساعة متأخرة من الليل إلا إذا كان يجهز لمشروع جديد أو سفر قريب . صحيح أنه قرر السفر إلى انجلترا فى بحر عشرة أيام ، لكنه سفر روتينى للاتصال بالشركة التى أمدته بآلات مصنع الشيبس . هذه الليلة بالذات لم تحتمل مهجة وطأة القلق التى أبهظت كاهلها بعد ما مرت به مع وجدى وهبة فى الصيدلية التى أغلقتها فى ساعة متأخرة للإئتناس بوجوده أطول مدة ممكنة . لكن بمجرد فراقه شعرت بوحشة قاتلة . تنقلت بين النافذة ذات الزجاج المغلق وباب الشقة لعلها تسمع أقدامه على درجات السلم أو صوت المصعد وهو يفتح . لكن السكون الرهيب أصبح سيد اللحظات .

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل . أدارت قرص التليفون لكن مكتبه لم يرد . لا بد أن يكون الجميع قد غادروه . ترى أين يكون الآن ؟ كثيرا ما سمعت أمها فى صباها وهى تردد : الغائب حجته معه ! ترى ماذا يمكن أن تكون حجته ؟! هل يمكن أن يكون قد وقع له حادث ؟! إن الشىء الذى يردده كل مساء كالأسطوانة المشروخة أنه رجل أعمال يقضى طوال يومه فى التفكير والمساومة والاجتماعات والاتصالات والصادرات والواردات ، وينتهز أول لحظة يفرغ فيها من عمله كى يعود إلى بيته ليستريح ويستجم ! فماذا جرى له هذه الليلة ؟!

جلست مهجة على أحد مقاعد الأنتريه بجوار التليفون وهى تدق بأصابع يدها اليسرى على المائدة الصغيرة ، فى حين أعلنت هزات ساقها اليمنى عن كاهلها متصاعدة فى التوتر . استرجعت شريط أحداث الليلة أكثر

من مرة لكنها لم تصل إلى أفكار أفضل من تلك التى اتفقت عليها مع وجدى . عموما لا يصح لها أن تخاف أو تقلق ، فهى سيدة موقفها ، ولن يكون طلاقها منه سوى مكسب جديد . إنها تمتلك الشقة والصيدلية والشباب والحيوية والمستقبل ، أما هو فليس له سوى الأصل العريق والماضى المجيد والمشروعات التى يتخذ منها ذريعة لادعاء الإجهاد والإرهاق !!

كان عقلها يعمل بسرعة لم تتصور أنها قادرة عليها من قبل . مرت به فكرة كالشهاب : ربما كان فى زيارة لأمه وأخته التى طلبت لقاءه لأنها لم تحتمل الانتظار حتى اليوم التالى ! إنها أس الفساد ! فهى التى دفعته إلى الزواج منها وهى تعلم جيدا فارق السن بينهما ، وتحالف معها ضغط أبيها وتراجع وجدى الذى لم تتوقعه أبدا ! ثم تسرع فى هذه الليلة الطويلة إلى اخباره بما رأته ؟! هل كانت عيناً ليسرى عليهما كما ظن وجدى ؟! لكن يسرى لم يظهر سوى كل عنجهية وتعال تجاه وجدى الذى لم يكن فى نظره سوى أجير تحت رحمته !! إنها لن تعدم الوسيلة التى يمكن أن تؤكد ظنونها أو تنفيها !

أدارت قرص التليفون ودقات قلبها أسرع من دقات جرسه على الطرف الآخر . خافت أن توقظهم من النوم ، لكن سرعان ما جاء صوت هبة دون تأخير أو أية آثار للنعاس . كتمت مهجة أنفاسها وبين دقات قلبها داخل صدرها الصاعد الهابط ظنت أنها سمعت صوت يسرى فى نفس الغرفة . وضعت السماعة كما وضعت يدها على صدرها المنتفض ! لم تتأكد من وجوده وإن كان صوت هبة مشحونا بمشاعر غريبة ! هل يمكن أن تطلب الرقم مرة أخرى وتسأل عنه ؟! أليس هذا من حقها كزوجة قلقة على زوجها ؟! ربما يشكون فى أنها التى طلبت ولم ترد !

دون أن تدرى وجدت يدها ترفع السماعة وأصبعها يدير القرص ، ومرة أخرى جاء صوت هبة وأمسكت مهجة بدقات قلبها وحركات لسانها ، وصوت هبة يبتعد قليلا : السخيف لا يريد أن يرد ! ثم جاء صوت يسرى : رد يا سخيف !! فوضعت مهجة السماعة دون تفكير !!

كما توقعت تماما ! إذاً المعركة الليلية أصبحت احتمالا قويا للغاية !! لم تتوقع أن تأتى بهذه السرعة ! ستبدأ بالهجوم وستواصله إلى أن ينقشع الغبار عن عينيه ويرى كل منهما نفسه على حقيقتها . فهى إذا كانت قد اعتدت على شرفه وأهدرته ، فهو الذى سبقها واعتدى على شبابها وأهدر أنوثتها ! ماذا كان يمكن أن تتصرف إزاء البركان الذى ولدت به والذى لا يتوقف عن إطلاق حممه ليل نهار ؟! لم يكن أمامها سوى الطلاق أو الانتحار أو الخيانة ؟! أما الطلاق فستقف الأسرة العريقة الكريمة الأصيلة فى طريقه ، خاصة وأنه لم يمر على زواجها أكثر من تسعة شهور ، وبالنسبة للانتحار فإن الشبق المشتعل داخلها للحياة يجعله مجرد فكرة سخيفة لا يمكن أن تخطر لها على بال . ولذلك لم يتبق لها سوى الخيانة . لم تكن تهتم بالمسميات . كان همها الأساسى إسكات عواء جسدها ولو من حين لآخر ! كان من الممكن أن تنشىء علاقات مع رجال آخرين جاهزين للتعبد فى محراب جمالها المتفجر ، لكنها آثرت أن تقصر علاقتها على زميلها الذى أحبته طوال سنى الدراسة ، ولا تزال .

وسط خواطرها المتلاطمة سمعت صوت أقدام على درجات السلم ، وحشرجة مفتاح فى ثقب الباب الذى فتح فانتفضت واقفة لتواجهه لكنها تداركت الموقف ، ورسمت على وجهها ابتسامة القلق والفرحة بعودته سالما . جاء صوته أجوف من أعماقه السحيقة :

ـــ مساء الخير !

ـــ مساء النور يا يسرى .. ما الذى أخرك حتى هذه الساعة ؟! قتلنى القلق عليك !

لم تعرف إذا كان من المفروض أن تتصرف على أساس علمه أو جهله بما حدث ، فتركت غريزتها تدلها على ما يجب أن تفعله ! تبعته حتى غرفة النوم وعندما اقتربت من وجهه ، وجدت اصفرارا يشبه اصفرار الجو قبل هبوب عاصفة الغروب الترابية . لم يرد على سؤالها لكن نظراته قالت أشياء غريبة مخيفة فأدركت أن كل ظنونها تحققت . قررت بدء الهجوم وبلا هوادة :

ـــ تتركنى أعانى القلق كل هذه المدة .. ثم لا تكلف نفسك مشقة الرد على الخادمة التى تتساءل !!

ـــ كنت فى مكتبى كالعادة ! إنها ليست المرة الأولى التى آتى فيها متأخرا ! كما أنك تعلمين أننى أجهز لسفرى إلى إنجلترا !

ـــ حتى هذه الساعة ؟!

ـــ حتى هذه الساعة !

لقد كذب ، وهذا يدل على عدم ثقته بنفسه :

ـــ اتصلت بالمكتب فلم يكن هناك أحد ليرد علىّ !

ـــ مررت على ماما وهبة بعد المكتب !

ـــ ولماذا لم تتصل بى لتطمئننى ؟!

ـــ لم أشأ أن أزعجك .. فأنت تفضلين النوم المبكر بعد يومك الطويل الشاق فى الصيدلية !

قال الجملة الأخيرة بنغمة لا تعبأ بإخفاء السخرية والمعانى الدفينة فيها ، ولذلك قررت اقتحام الهول :

ـــ سهرت هذه الليلة خصيصا لأحكى لك عن تصرفات غير لائقة

صدرت عن هبة فى الصيدلية فى هذه الليلة !

كان قد ارتدى بيجامته محاولا التظاهر بالهدوء والتماسك قدر إمكانه . جلس على حافة الفراش مضيئا الأباجورة بالإضافة إلى الثريا التى أضاءها بمجرد دخوله على غير عادته . جلست قبالته فيما يشبه التحدى الخفى فى انتظار تساؤله :

ـــ وماذا فعلت هبة ؟! إن أختى لا تعرف سوى التصرفات اللائقة !

تفادت عنجهيته الفارغة وقالت دون أن تنظر فى عينيه :

ـــ خرجت مداعباتها لوجدى عن كل حدود اللياقة .. لدرجة أنها لمحت له برغبتها فى الزواج منه !

كان صوته هادئا كالسكون الذى يسبق العاصفة :

ـــ إذا كنت صادقة فيما تقولين .. فلا بد من طرد هذا الولد الذى يحاول إغراء فتاة مراهقة مثل هبة !

يبدو أن المعركة ستظل حربا خفية لمدة لا يستهان بها :

ـــ إننى أشهد لوجدى أنه راعى كل حقوق الزمالة والصداقة .. وتجنب كل مداعباتها برقة ولطف !

نظر إلى وجهها بعينين أوشكتا على الخروج من محجريهما :

ـــ أتريدين أن تقولى بمنتهى التبجح والوقاحة أن أختى ساقطة فى حين أن هذا الكلب الأجير لا يعرف سوى الزمالة والصداقة .. من هو حتى يصبح صديقك ؟!

كانت تعلم أنه يخشى الصوت العالى لئلا يسمعه الجيران . رفعت صوتها ليتردد بين جنبات السكون المطبق على العمارة :

ـــ لا أسمح لك باتهامى بالتبجح والوقاحة نظير خوفى على سمعة أختك ؟!

حاول أن يخفض من صوته قدر الإمكان :
ــ أتريدين تلويث سمعة أختى ؟! أحب أن أقول لك إن أختى أشرف منك ومن الكلب المسعور الذى قمت باصطياده من الشارع !
ــ إذا كانت قد قالت عنى شيئا .. فهو مجرد كذب فاضح لتغطى به ما أرادت فعله مع وجدى !
ــ لم تقل هبة إلا ما قاله لى قلبى من قبل ! منذ ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه انتظامك فى تناول حبوب منع الحمل فى حين كنت تدعين شوقك القاتل لوصول الطفل !
ــ ولماذا لم تواجهنى منذ ذلك الوقت ؟!
ــ لا تظنى أننى خائف منك .. كنت منهمكا فى جمع الأدلة حتى أكشفك على حقيقتك البشعة أمام كل الناس !
ــ ولماذا لم تطلقنى منذ أن شككت فى ؟!
ــ إياك أن تظنى فى نفسك القدرة على توجيهى الوجهة التى تحققين عندها أهدافك الدنيئة !
ــ إذاً .. اقتلنى !
ــ أنت تستحقين ما هو أبشع من القتل !!
ــ فى بلدة أمك يقتلون لمجرد الشك .. أما أنت فالدليل فى يدك على ما يبدو ؟!
ــ لا تذكرى أمى على لسانك يا ساقطة ؟
نهضت صوب الباب وهى تقول بصوت خفيض متردد لكنه مسموع :
ــ لو وجدت الإشباع داخل البيت .. ما بحثت عنه خارجه !
خرجت لتقبع فوق أحد مقاعد الأنتريه فى حين كان يصرخ ويعوى :
ــ وتقولينها يا ساقطة .. سأقطع رأس الأفعى .. سأقضى عليك قبل

أن أموت بسمك .. سأقتلك .. سأقتلك ..

تحولت كلماته إلى صرخات جريحة نابعة من أعماق الألم العظيم ، والصرخات إلى أنّات ، فعادت إليه . كان ممسكا ببطنه كأنه يقاوم نوبة طاغية للقيء . شعر بوجودها فرفع رأسه :

ــ لا أريد أن أراك .. اغربى عن وجهى ! لست بالضعف الذى تتمنينه لى !! أنت والقرحة دخلتما حياتى فى وقت واحد ! لكننى سأعرف كيف أقضى عليكما ! إلى الخارج يا عاهرة !

لم تجد مهجة ردا مناسبا سوى إحساس جارف بالقيء داخلها ، انتقل إليها وكأنه عدوى . عادت أدراجها إلى مقعدها . سكتت أناته وساد الصمت العميق المخيف لولا بعض السيارات المارقة فى الشارع . ظلت تراقب الغرفة المضيئة لكنها لم تنم عن أية حركة . هاجمها خاطر غزيب حمل معه احتمال أن يكون قد مات ! لكنها لم تكلف نفسها مشقة القيام مرة أخرى ، فقد داخلها إحساس بالخمود الذى نقلها إلى منطقة حرام بين اليقظة والمنام . ومع دقات الساعة الذهبية القابعة فى أحد الأركان غابت عن الوعى ، لكنها نهضت صارخة من كابوس رأت فيه يسرى وهو يضيق الخناق بأصابع حديدية حول عنقها .

وعندما عادت إلى وعيها ذهلت لوقوفه إلى جوارها وهو يقول بصوت جهورى أجوف صادر عن أعماق القبر :

ــ أنصتى جيدا لما سأقوله لك .. لا أريد منك التعليق وإنما التنفيذ بحذافيره .. غدا تفتحين الصيدلية كالمعتاد .. وعندما يأتى الكلب المسعور تخبرينه بنبأ طرده منها إلى الأبد .. وإن كنت أشك فى أنه سيجرؤ على المجيء مرة أخرى .. وبمجرد الانتهاء من المهمة .. سواء بإخباره أو بعدم مجيئه .. أغلقى الصيدلية والزمى عقر دارك .. وبمجرد

عودتى من انجلترا سأبحث عن صيدلى بمعرفتى ليديرها .. وإياك أن تفكرى فى الهرب معه .. فعيونى حولك فى كل مكان !!

صمت فى انتظار انحسار موجة ألم حطت على وجهه ، قالت :

ــ أية تعليمات أخرى ؟!

ــ لا تحاولى السخرية منى مرة أخرى .. حتى لا يكون عقابى رهيباً !! إن رجل الأعمال المهذب فى بيته .. وحش كاسر فى مجال العمل ! وغلطتى أننى لم أكشف لك عن لمحة من هذا الجانب !

لم ترد . فهو يحاول تغطية عجزه بهذا النوع من القسوة التى يمكن أن تجرفه إلى آفاق تصبح حياتها عندها جحيما ، الموت أفضل منه . جمعت شتات تفكيرها وقالت كلمات سمعتها وكأنها على لسان إنسان آخر :

ــ تحت أمرك ــ سأنفذ كل ما تطلبه !

خرج الخنجر الحاد من معدته . تراجع الألم إلى الخلف . تركها عائدا أدراجه إلى غرفة النوم فى حين لم تحرك هى ساكنا . نامت بعينين جاحظتين ، وعادتها اليقظة بعينين مغلقتين . تمنت أن تبكى لكن الدموع استعصت عليها . غمرها الإجهاد فراحت فى إغفاءة لم تهرب من كوابيسها إلا عندما شعرت بضوء الشمس الحانى يتسلل من زجاج النافذة المغلق . مسحت عينيها بيديها ونظرت إلى الساعة فوجدتها التاسعة إلا قليلا . تعجبت كيف نامت فى ليلة كهذه ؟! نهضت متسللة إلى غرفة النوم فلم تجد أثرا له ! أطلت من النافذة فوجدت الصيدلية مغلقة . عادت إلى المرآة فوجدت هالات سوداء حول عينيها اللتين خبا لمعانهما البنى الفاتح . كان عقلها مجهدا عاجزا عن التفكير المنظم . دخلت الحمام وملأت البانيو ماء ساخنا . تعرت تماما لكنها لم تستمتع بمشاهدة خطوط

جسدها الجميل المتفجر ، سواء البارزة منها أو الغائرة . فقد أدارت ظهرها للمرآة ، ودفنت جسدها فى الماء الساخن بحثا عن برد الراحة .

— ١٣ —

كان السؤال الذى رافق وجدى فى فراشه فى تلك الليلة الطويلة : إلى متى ستظل تحت رحمة الآخرين ؟! لن يمر موقف هبة منهما على خير . ومهجة نفسها يمكن أن تختار النجاة بجلدها إذا بلغت الأمور النقطة التى لا عودة بعدها ! ألم تكن هى السبب فى كل ما حدث بعد أن دانت له الظروف وأصبحت الثمرة جاهزة للقطف ؟! إنها تؤكد له أنها ستحصل على الطلاق ، لكن المصير فى النهاية ليس فى يدها ! ماذا لو قلب يسرى خططهما رأسا على عقب ؟! فهو رجل أعمال ولا بد أن يكون صعب المراس . يكفى أن خبرته تفوق خبرتيهما مجتمعين ! وربما رضخ لروح الثأر التى يمكن أن يكون قد تشربها فى صباه من أسرة أمه التى لا تزال قابعة فى أعالى الصعيد ؟! كما أن رجاله الذين يعملون فى مصانعه لا يرتفع كلهم فوق مستوى الشبهات ، إذ أن بعضهم من أرباب السوابق كما عرف من مهجة نفسها ! هل يمكن أن يتركهما ببساطة بعد أن ضبطتهما أخته متلبسين ؟! يبدو أن الطرد الذى كان يخشاه ، قد أصبح النهاية السعيدة التى يحلم بها لكن تحقيقها أمر بعيد المنال !

قفز جالسا فى فراشه مع هدير قطار يشق الظلام مع نور الفجر . اهتز البيت ومعه الفراش تحت وطأة العجلات الحديدية الجبارة . لا بد من التخلص منه قبل أن يقضى عليهما ، أو عليه على وجه التحديد ! مع ابتعاد هدير القطار وتوقف الفراش عن التأرجح ومضت فى ذهنه صاعقة ذكرته

بتركيبة معينة من بعض العناصر الكيميائية توصل إليها ضمن تجاربه التى كان يعشق إجراءها وابتكارها . فقد اكتشف قدرة التفاعل النهائى بين هذه العناصر على إيقاف سيولة الدم فى مدة لا تزيد على ثمانى وأربعين ساعة بحيث يصاب من يتناول هذا المستحضر بجلطة فى القلب يصعب النجاة منها فى اليوم الثالث . والغريب فى هذا المستحضر أنه شفاف مثل الماء القراح ، وطعمه مشابه للمياه المعدنية . فقد بلغت به الجرأة أن يضع منه نقطة أو نقطتين على لسانه ثم بصقهما بمجرد تمييز طعمهما .

ابتسم فى مرارة . فقد أجرى هذه التجربة فى السنة الثالثة فى معمل الكلية . وفى أجازة الصيف حمل المستحضر إلى « أبى رواش » فلم ينج منه الكلب أو القطة أو الأفعى اللاتى شربن منه . فأخذ ما تبقى فى القنينة وسكبه فى الصحراء وحاول قدر إمكانه أن يمسح التركيبة من ذهنه ، وبالفعل لم يفكر فيها ثانية ، فلم يكن له اهتمام سوى مستقبله ومهجة . وكان الرعب قد اجتاحه عندما تصور عصابة تسطو على هذا المستحضر لتبيد به خصومها ، فلن يكون هناك أى دليل مادى ملموس على سر الجريمة ، ولن يثبت الكشف الطبى أو التحليل الكيميائى شيئا سوى أن الضحية ماتت بجلطة عادية فى القلب وإن كانت بدون مقدمات . وهى ظاهرة يمكن أن تكون طبيعية للغاية فى ظل ضغوط حياتنا اللاهثة الثقيلة .

نسى وجدى التجربة تماما وكرس كل وقته وجهده لمستقبله ومهجة . لكنه الآن يحاول أن يتذكرها جاهدا لأن عناصرها تزيد على عشرين عنصراً ، لكل منها كم يختلف عن بقية العناصر بفارق قد يقل عن المليجرام . لكنه واثق فى ذاكرته ، وعليه أن يحضر هذه العناصر من الصيدلية اليوم إذا سارت الأمور كما يتوقع وتم طرده منها . ولا بد أن تشاركه مهجة الخطة ، إذ أنه يتحتم عليها أن تصلح ما أفسدته ، بطريقة أو

بأخرى .

حاول استجداء بعض لحظات أخرى من النوم جلبا للنشاط العقلى ، لكن الأرق تحالف مع القلق والغرفة الخانقة والفراش الكالح . نهض وغسل وجهه وارتدى ملابس الأمس . وقف فى نافذته ذات الضلفة المغطاة بنتيجة حائط يرجع تاريخها إلى عشر سنوات مضت . وقعت عيناه على القطار المهجور الواقف على قضبان جانبية ، والذى اختفى لونه تحت وطأة الصدأ والتراب والرمل ! عجيب أمر هذا القطار ! إنه يقف فى مكانه منذ أن استأجر هذه الغرفة !! لا يلتفت إليه أحد والصبية يستخدمونه لممارسة لعبة « عسكر وحرامية » ولقضاء حاجاتهم عند اللزوم . يسرى وأمثاله يريدون له أن يكون هذا القطار !! كل القطارات تدك الأرض إلى جواره فى ذهابها وإيابها فى حين يظل مشلولا تحت رحمة صبية .

نسى القطار فى وقفته فى النافذة ، ولم يتحول تَفكيره قيد أنملة عن المستحضر العجيب !! فإذا كان نبوغه قد فشل فى تحقيق المستقبل الذى كان يحلم به ، فليس أقل من أن يستخدمه فى الدفاع عن نفسه وحياته ! وهو دفاع مشروع لا يدخل فى نطاق الجريمة !

نظر فى ساعة يده الجميلة التى كان قد اشتراها مؤخرا اعتقادا منه أنه آن الأوان ليمتلك الأشياء التى يرغب فيها . كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا مع تصاعد الحركة فى الشوارع والأزقة وانتشار الشمس فى كل الزوايا المظلمة . وجد أن السير على الأقدام ولو بدون هدف خير وسيلة لتنظيم الأفكار واستعادة زمام الموقف . خرج سائرا فى تؤدة ولكن فى عصبية . مر « بصيدلية النجدة » وتساءل : ماذا سيكون شعور الصيدلى العجوز لو نما إلى علمه ما حدث له بالأمس ؟! شماتة أم رثاء ؟! لم يشغل نفسه بالإجابة بل تذكر خيرية بحنين غريب جارف . كانت أياما

ذهبية فأصبحت ذاهبة !

رأى ضاربة الودع العجوز وقد تكورت على الطوار إلى جوار الصيدلية وجمعت لفتها فى حضنها كأنها تمسك بمستقبل البشرية المعذبة بيديها . كانت تغط فى نوم عميق ملتحفة بردائها الأسود . كثيرا ما نادته لتقرأ طالعه لكنه لم يكلف نفسه مجرد إعارتها أى التفات ، فما حاجته إليها وهو يقرأ طالعه بنفسه يوما بيوم ؟!

عبر مزلقان بولاق الدكرور وحنينه لخيرية وأيامها الذاهبة يكاد يطغى على كل أفكاره وأحاسيسه ! تعجب وحاول طردها للتفرغ للكارثة الجاثمة على كتفيه لكن عبثا ! أين هى الآن ؟! لا يزال يتذكر نظراتها ونبراتها آخر مرة رآها فيها فى كازينو حديقة الأورمان ! حتى هى ـــ الصدر الحنون الذى احتواه يوم فقد أباه ـــ غادرت مصر كلها ! تمنى لو تزوجت وبقيت حتى يستشعر قربها بطريقة أو بأخرى ! لكن من يعرف ؟! ربما لم تسترح للحياة مع زوجها وعادت إلى مصر . فمن الصعب على امرأة قوية الشخصية مثلها أن ترضى بدور الضرة !

سار على غير هدى لكنه وجد قدميه تقودانه حتى نهاية شارع بين السرايات الذى انحرف منه إلى اليسار ليصعد سلم عمارة خيرية العريقة ، ويبلغ الطابق الثالث حيث وجد قفلا نحاسيا ضخما قد وضع على الباب . لم يكن ينوى رؤيتها حتى لو لم يكن هناك هذا القفل ، لكن شيئا غامضا دفعه إلى الصعود فوق درجات السلم الذى أوحى إليه برائحتها وزيتها المعطر الذى اعتادت أن تدهن به شعرها الأسود الطويل . لم يكن يعرف أن خيرية قد تركت داخله شيئا ما . ذهل لأمره . وسط حطام الكارثة يتذكر شفتيها المكتنزتين الساخنتين ، ولعابها السائل فى حلقها ، ومفرق نهديها ، واهتزازة ردفيها !! تمنى من أعماقه ألا تكون قد نسيته !

عاد أدراجه سائرا بحرص على الطوار متفاديا طفح المجارى الذى أوشك أن يحيل الشارع العريض إلى نهر آسن . مر بمطعم الفول والطعمية الذى اعتاد أن يتناول فيه إفطاره كل صباح . حسد الزبائن المتكالبين على الأطباق والساندويتشات على شهيتهم المفتوحة . فجأة وسط ضجيج الشارع مرقت بجواره عربة فاخرة أغرقت النصف الأسفل من بنطلونه بمياه المجارى . لم يكن ينقصه سوى هذا ! على كل حال فالمياه لا تختلف فى لونها عن لون بنطلونه الرصاصى ! لكن ماحز فى نفسه أنه لم يلق من أصحاب العربات الفاخرة الفارهة سوى أبشع الإهانات . وقد آن الأوان لإيقافهم عند حدهم !

تذكر المستحضر العجيب فأسرع الخطى مستعيدا فى ذهنه عناصره العشرين لدرجة أن سيارة مسرعة كادت أن تدهمه وهو يعبر مفترق الطرق ، ولعنات سائقها تنصب على رأسه وتتهمه بالعمى الذى منعه من رؤية الإشارة الحمراء . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما بلغ الصيدلية المغلقة ببابها الصاج المتعرج . نظر إلى أعلى فوجد مهجة واقفة فى النافذة على غير عادتها فى تلك الساعة المبكرة بالنسبة لها . اختفت بمجرد رؤيته فتأكد من صحة توقعاته واستعد لما عقد العزم عليه .

انهمك فى رفع الباب الصاج بضجيجه المعتاد ، وعندما شرع فى فتح الباب الزجاجى أحس بوجودها إلى جواره دون أن تلقى عليه تحية الصباح بابتسامتها أو ضحكتها المعتادة . هل يمكن أن تكون عجلة الأحداث قد دارت بهذه السرعة الرهيبة ؟!

التفت إليها بقلب منتفض فرأى هالات عينيها السوداء ، بحث عن وميض نظراتها وحمرة وجهها ، فلم يجد سوى امرأة لم يعرفها من قبل . تماسك وتساءل :

ـــ يبدو أن الأمور سارت على غير ما نشتهى تماما !

ـــ هناك حديث طويل بيننا !!

قالتها وهى تدخل قبله . قال فى أعقابها :

ـــ وأنا أيضا !! فلا بد من مواجهة الحقائق مهما كانت مرة !!

دهش عندما وجد أن تماسكه قد ازداد ، بل وأعجب بنفسه وبقوته ، إذ يبدو أن اليأس عندما يبلغ قمته يمنح الإنسان قوة لا تتوفر للمتعللين بالأمل . أفسح لها مقعدا لتجلس عليه ثم جلس إلى جوارها بمنتهى الهدوء . ربت على يدها :

ـــ احك لى أولا ما حدث .. وسأقول لك رأيى فيما يجب أن نفعله ..

دون أن تنظر إليه تكلمت بطريقة ذكرتها بأسلوب إلقائها للمحفوظات فى حصة العربى فى المدرسة الإعدادية :

ـــ لم تضيع الأفعى الصغيرة لحظة واحدة بعد أن كانت هنا بالأمس .. استدعت أخاها ولا أعرف إذا كانت قد قصت عليه ما رأت فقط أم أنها أضافت من عندها من الحواشى ما يزيد من اشتعال الموقف ؟! المهم أننى عند عودته حاولت أن أبدأ بالهجوم عليها .. لكن الأفعى كانت قد حقنته تماما بالسم .. لم أستطع أن أصل معه إلى أى قرار .. استخدم معى كل أسلحة الخبث والدهاء . حتى عندما أثرت معه موضوع الطلاق .. شك فى نواياى ـــ

كان وجدى آذانا مصغية متلهفة لسماع ختام الموقف ، وفى الوقت نفسه كان يبحث عن المدخل الصحيح الذى يستطيع أن يقنع مهجة من خلاله بفكرته المخيفة . لم يستطع التزام الصمت أكثر من هذا فقاطعها متسائلا :

— ألم يطلب منك القيام بتصرفات معينة ؟!

— دون مناقشة .. أمرنى بلقائك اليوم لإخبارك بنبأ رفتك من الصيدلية .. ثم إغلاقها لحين عودته من انجلترا للبحث عن صيدلى بمعرفته .. أما أنا فقد حكم علىّ بالحبس فى البيت .. وحذرنى من الهرب معك .. لأن عقابى سيكون رهيبا !

— ألم يصرح لك بنوعية هذا العقاب ؟!

— قال إننى أستحق ما هو أبشع من القتل !!

وجد وجدى المدخل الذى كان يبحث عنه منذ بداية اللقاء ، فى حين ذهلت مهجة للبرود الذى قابل به نبأ طرده لدرجة أنه سألها عما يخصها هى ، أما ما يخص مستقبله فكأنه أمر لا يعنيه . كانت نبرات صوته زاخرة بالثقة المطلقة :

— إننى أستطيع أن أعمل فى أية صيدلية أخرى ! كما أن أمامى عرض للسفر إلى إحدى دول البترول بمرتب خيالى ! لكن خوفى عليك وحبى لك يمنعانى من تركك تحت رحمة هذا الوحش الذى لم يستطع أن يخفى رغبته الصريحة والأكيدة فى قتلك !!

سرت رعشة كهربية فى عروق مهجة :

— وهل تعتقد أنه جاد فى تهديده ؟!

— لا تنسى الدماء الساخنة التى ورثها عن أمه .. وأرباب السوابق الذين يعملون فى مصانعه !

وضعت رأسها بين ذراعيها على فترينة الأدوية الزجاجية أمامها :

— كنت أظن أنه سيرحب بطلاقى منه !!

— إن حب الثأر والانتقام يجرى فى عروقه مجرى الدماء !

ندبت حظها العاثر كالعجائز :

ـــ لا أعرف ماذا دهانى بالأمس حتى أجبرك على ما فعلته معك ؟! ليتنى رضخت لرأيك ؟! هل يمكن أن أفقد حياتى لمجرد وشاية حقيرة من هذه الأفعى الطافحة بسموم الحقد ؟!

انحدرت الدموع فى صمت على وجنتيها الذابلتين . استمتع وجدى بضعفها فقال دون تعاطف :

ـــ لا أحب البكاء على الأطلال .. المهم أن نفكر فيما يجب أن نعمله الآن !

ـــ إذاً .. لن تتركنى وحيدة حتى يفتك بى هذا الوحش ؟!

ـــ قلت لك مراراً إن الموت هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يفرق بيننا !

كغريق يمسك بقشة ، تمنت أن تتعلق بعنقه :

ـــ وهل هناك ما يمكن عمله فى مواجهة هذه الكارثة ؟!

شعرت بنبرة خفية مخيفة فى صوته :

ـــ عندما يجد الإنسان حياته مهددة .. فإن الدفاع عنها يصبح حقا مشروعا له !! وهذه الشرعية تصل إلى حد القضاء التام على مصدر التهديد !!

تلاطمت الأفكار والخواطر والمشاعر داخلها فلم تجد سوى هذا السؤال :

ـــ ماذا تقصد ؟!

ركز عينيه الثاقبتين فى عينيها المكدودتين :

ـــ تعرفين تماما ما أقصده !

ـــ لا أستطيع أن أقدم على فعلة مثل هذه !! أتذكر يوم أجريت تجربتك على الكلب والقطة والأفعى .. أتذكر كم حزنت على هذه

الحيوانات البريئة وطلبت منك أن تنسى هذا المستحضر تماما !! فقد خلقنا الله للحياة لا للموت ! أرجوك فكر معى فى حل آخر !!

لم يستجب لانفعالها الجارف :

ـــ قضيت الليل كله فى تقليب كل الاحتمالات على كل الوجوه .. فلم أجد حلا سوى هذا .. ففى صراع المصائر لا مكان للحلول الوسط !

ـــ مستحيل .. لا يمكن أن أرتكب جناية القتل بهذه البساطة !!

نهض وجدى واقفا فى حركة درامية :

ـــ لا تهمنى المسميات .. فإننى أسمى جناية القتل هذه دفاعا مشروعا عن النفس !

ـــ قد لا يكون جادا فى تهديده ؟!

ابتعد قليلا فى اتجاه الباب الزجاجى :

ـــ فى هذه الحالة .. سأتركك لتتأكدى بنفسك !! فأنا لا أستطيع أن أعرض حياتى للخطر أكثر من هذا .. إننى أحبك حتى العبادة .. لكننى لست على استعداد لأنتحر إذا كنت مصرة على الانتحار !!

نهضت فى أعقابه دون أن تمسك به :

ـــ إلى أين ؟! وعدتنى بألا تتركنى !!

ـــ لا أستطيع تلبية رغباتك بشروطك .. كفانى ما حدث بالأمس !

تقدم خطوة أخرى تجاه الباب فأمسكت بذراعه :

ـــ تحت أمرك ! فاختفاؤك من حياتى هو الانتحار بعينه !

استدار ليواجهها فتركت يدها المرتعشة ذراعه :

ـــ إذاً .. اتفقنا !

ـــ لكن من المحتمل أن ينكشف أمرنا فنصل سويا إلى حبل المشنقة !

ــ وجدى الحنش عندما يخطط فإن الأبالسة تعجز عن كشف مخططه ! فنبوغي الذى رفضه المجتمع لن أتركه يضيع هدراً !

سألته دون أن تنظر فى عينيه :

ــ هل فى ذهنك خطة جاهزة ؟!

ــ لقد نطقت بها حالا دون أن تشعرى !

حلت الدهشة محل الخوف داخلها :

ــ لا أفهم !!

ــ ألم تذكرى المستحضر الذى أجريت تجربته فى « أبى رواش » على الكلب والقطة والأفعى ؟!

ــ لا بد أنك نسيت عناصره المعقدة المركبة !!

ــ أجهدت ذاكرتى منذ بداية الصباح .. وبمجرد وصولى هنا تذكرت كل عناصره المتشعبة والمتعددة بالمليجرام !

ــ لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أن تصل بى الحال إلى التفكير ــ مجرد التفكير ــ فى أشياء مرعبة مثل هذه ؟!

ــ لم تلدغ الأفعى أبى لأنها شريرة وخططت لقتله .. ولكن لأن الطبيعة جعلتها هكذا !

ــ إنك بهذا تنفى المسئولية الأخلاقية التى تفرق أساسا بين الإنسان والحيوان !

ــ هذه المسئولية حجة يتذرع بها الإنسان لحماية نفسه وممتلكاته من اعتداء الآخرين .. لكننا فى النهاية مجرد قوى طائشة متصارعة مثل كل القوى الأخرى فى هذا الكون الغريب الغامض .. لو كانت هذه المسئولية الأخلاقية موجودة فعلا لما تعرضت لكل هذا الاضطهاد.منذ يوم تخرجى وأنا صاحب حق .. بل أستطيع أن أقول : منذ يوم مولدى !

— إنك تقول آراء رهيبة لم أسمعها منك من قبل ؟!

— هذه الآراء لم أبتكرها .. بل تعلمتها منذ أن تتلمذت فى مدرسة الحياة .. تعلمت أيضا أنه إذا كان المجتمع لا يناله أى عقاب للجرائم التى يرتكبها فى حق الفرد .. فمن حق الفرد أن يعاقبه بطريقته الخاصة !!

— لا أعرف ماذا أقول لك ! لكننى بدأت منذ أمس فى الاعتقاد بأن إرادة إنسان فى هذه الدنيا أكذوبة كبرى !!

لم يرغب وجدى فى المزيد من التفلسف :

— متى سيسافر زوجك ؟!

— فى نهاية الأسبوع القادم !

— عظيم .. سأدخل المعمل الآن .. فالتحضير يمكن أن يستغرق أكثر من ثلاث ساعات .. سأغلق الباب .. وعليك تلبية رغبات الزبائن كأن شيئا لم يحدث .. وإذا جاء زوجك قبل إتمام عمليتى فسآخذ المواد كلها إلى بيتى !

— لن يأتى !! فقد كلفنى أنا بطردك إمعانا فى إذلالنا نحن الاثنين !

طحن أسنانه داخل فكيه :

— من الآن فصاعدا .. لن أسمح لمخلوق بهذا !

دخل الغرفة . أضاء نورها وأغلق الباب . سارعت مهجة لخدمة الزبائن الذين توافدوا فى ذلك اليوم الغريب . لم تعرف ماذا قالت أو فعلت ؟! لكنها تحركت ككيان آلى تنتابها غصة كلما تذكرت ما يفعله وجدى فى تلك الغرفة التى يبدو أن مصيرهما قد تحدد فيها ! من لحظة إلى أخرى كانت تتناسى ما قيل وما يحدث، وعندما يفرض نفسه عليها تعزى نفسها بأنها ستأخذ المستحضر منه ثم تلقى به فى البالوعة . لكنه يفعل هذا من أجلها ! فى إمكانه أن يغادر الصيدلية بلا عودة ، وسوف يكفل له نبوغه

ومهارته مستوى لا بأس به من المعيشة ، بل وفي إمكانه أن يكون ثروة — ولو متواضعة — إذا سافر إلى إحدى بلاد البترول . أما هي فلا تعرف ماذا يضمر لها يسرى ؟! وماذا يعرف عن علاقتها بوجدى على وجه التحديد ؟! فلا بد أن يكون الموت جزاءها إذا شك فى أنها بلغت معه نهاية السطاف ! وما المانع أن يكون هذا الشك أو حتى اليقين يحاصره الآن من كل جانب ؟! ماذا يدبر لها بعد عودته من انجلترا ؟! الشيء الوحيد الذى أمكنها التأكد منه أن الأمور لن تعود سيرتها الأولى !! لكن على أى وجه ؟! هذا ما لا يمكن التأكد منه ! وطالما أنها غير متأكدة ، فإن هذا لا يعنى سوى المقامرة بحياتها !

تكالبت على ذهنها المكدود آلاف الأسئلة الحائرة ، ولولا انشغالها بالزبائن لسقطت تحت وطأتها إعياءً وإنهاكاً . كل هذا والباب لا يزال مغلقا . وعندما اقتربت الساعة من الواحدة ظهرا زارها خاطر مريح : هناك احتمال أن يكون وجدى قد نسى التركيبة المعقدة ، خاصة وأن عدم دقة أى عنصركما أو كيفا يمكن أن يفقدها تأثيرها تماما ! وبالتالى فإن احتمال ارتكاب الجريمة ليس مؤكدا كما كانت تظن عند بداية الفكرة المرعبة !

فتح وجدى الباب الزجاجى المعتم وأطل خارجه برأسه فوجد زبونا يتحدث مع مهجة . أغلقه لكنها لاحظت ما يدور بقلق بالغ لدرجة أن عينيها تعلقتا بالجمجمة والعظمتين وكلمة « سموم » المكتوبة بماء الذهب على الزجاج الأسود ولم تتحولا عنها منذ مغادرة الزبون للصيدلية . أطل وجدى برأسه مرة أخرى فوجدها بمفردها . خرج ومعه زجاجة صغيرة بيضاء تحتوى على سائل شفاف لا يختلف كثيرا عن الماء . قدمها لمهجة بيد ثابتة فأخذتها بيد مرتعشة ولم تدر ماذا تفعل بها ، فقال :

— فى حقيبتك فورا ثم فى مكان أمين فى البيت !

نفذت الأمر دون أن تفتح شفتيها بحرف واحد . نظرت إليه فى حيرة بالغة فأدرك ما يدور فى رأسها المضطربة :

ـــ فى ليلة سفره إلى انجلترا أفرغى محتويات الزجاجة فى المياه المعدنية التى يشربها . وبذلك تبتعد عنا الشبهة تماما .. لأن كل شيء سيتم فى الخارج .. ولن يجد الطبيب الإنجليزى سببا سوى جلطة مفاجئة فى القلب !

لاحظ ارتعاشة شفتيها وجفنيها فحسم كلامه :

ـــ إننى لا أجبرك على شيء .. أنت حرة تماما في اختيارك .. كما أنك حرة فى مستقبلك وحياتك .. ولو تحسنت الأمور وعادت إلى مجاريها فيمكنك التخلى تماما عن هذه الخطة !!

ـــ لا أخفى عليك .. فأنا فى دوامة لا أستطيع الخروج منها . لم أكن أتصور أن تصل بنا الأمور إلى هذا الحد !!

نظر وجدى فى ساعته قلقا :

ـــ ليس لدينا متسع من الوقت .. وعلى كل إنسان أن يتحمل مسئولية ونتيجة تصرفاته .. أنصتى لى الآن جيدا .. لا أريد للصيدلية أن تغلق أبوابها لحين وصول الصيدلى الجديد .. تظاهرى بأنك تقومين بجردها تمهيدا لتسليمها .. أما إذا سألك أحد عن السر فى غيابى فأخبريه أننى مريض وملازم الفراش .. وثقى أن يسرى لن يخبر أحدا بما جرى بيننا خوفا من انتشار الفضيحة .. وفى اليوم الثالث من سفره سأتصل بك تليفونيا على سبيل الحيطة .. فإذا تم المراد .. سأحضر حالا كصديق للعائلة لتأدية كل الخدمات التى يمكننى القيام بها نحو صديق عزيز فى ظرف عصيب كهذا !!

ـــ وماذا عن هبة وأمها ؟!

ــ لن يكون لهما أى اعتبار عندما يشهد الناس مدى حبى وإخلاصى للعائلة !!

سرى فيها الخوف منه لأول مرة :

ــ هذه الخطة الجهنمية لا يضعها إلا الشيطان !!

ــ لا أنسى كلمة تشرشل عندما أعلن تحالفه مع الشيطان إذا كان هذا التحالف وسيلة للانتصار على أعدائه !

ــ لكن تشرشل لم يخطط لقتل أحد !

ــ جميع زعماء السياسة وقادة الحروب عبر التاريخ خططوا لقتل الآلاف المؤلفة من زهرة الشباب سواء فى بلادهم أو فى بلاد أخرى .. ولذلك أصبحوا زعماء وقادة .. ولو خطط الواحد منهم لقتل شخص واحد لأصبح مجرما وحكم عليه بالإعدام .. إن الحياة محيط متلاطم يأكل فيه السمك الكبير كل سمكة صغيرة تقترب منه .. ولقد أجبرنى الجميع منذ مجيئى إلى هذا العالم على أن أكون سمكة صغيرة تحت رحمة أسماك القرش .. لكن منذ اللحظة التى رأتنا فيها هبة .. قررت بعد صراع عنيف مع نفسى أن أكون حوتا .. ولدى كل المؤهلات التى تمكننى من هذا .. وليس لدى أى خيار آخر !

أشاحت بوجهها بعيدا عن الشرر المخيف المتطاير من عينيه :

ــ وهو كذلك .. كما ترى !

ــ لن أثقل عليك أكثر من هذا .. سأحاول الاتصال بك فى الصيدلية للاطمئنان عليك من حين لآخر !!

مد يده فسلمت عليه بطريقة آلية كما لو كانت ترزح تحت وطأة كابوس لا يريد أن يتزحزح . شد يده وخرج دون أن ينظر إلى الخلف . سار وهو يتحسس مفتاح الصيدلية فى جيبه . فقد نسى أو تناسى أن يتركه

لها بعد أن اجتاحه شعور لا يقاوم بأنها صيدليته التى أقامها على كتفيه من الألف ، وسيستميت كى تظل هكذا إلى الياء . فلا يعقل أن يترك ثمرة كفاحه تزدهر كى يطأها هذا اليسرى بحذائه بهذه البساطة . كذلك فإن مهجة لا تفكر إلا فى نفسها التى شغلتها عن منحه أى مبلغ من المال يستعين به على الحياة إلا أن تستقر به ثانية .

عبر الطريق ببطء متعمد أمام عربة فارهة فاخرة أجبر صاحبها على الإبطاء لحين عبوره وهو ينظر إليه خلف زجاجها الأخضر باحتقار وحنق بالغين ، لكن نظرات وجدى كانت متفجرة بالتشفى والشماتة .

— ١٤ —

مرت أيام غريبة بمهجة رأت فيها الكون وقد التحف بغلالة صفراء . كانت قد أخفت الزجاجة فى خزانة سرية صغيرة ركبت فى قاع دولاب ملابسها كى تضع فيها كل مقتنياتها الثمينة ، بحيث لا يسهل على يد مجهولة أن تصل إليها . وظلت سرا حتى على يسرى الذى بدا فى الأسبوع الأخير قبل رحيله وكأنه يريد إذلالها حتى الموت . لو كانت خادمة فى بيته لعاملها معاملة أرقى من ذلك بكثير . كانت نظراته أقسى من كلماته المسمومة . عندما أخبرته بطرد وجدى قال دون أن ينظر إليها إنه عقاب رحيم للغاية ولا يتناسب مع بشاعة جرمه ! أما فيما عدا هذا فكان السكون الرهيب المشبع بنظرات الاحتقار ، سيد الموقف كله .

فكرت مهجة مراراً فى إلقاء محتويات الزجاجة فى البالوعة ، لكن قسوة يسرى المتعمدة ذكرتها دائما بتهديده بما هو أبشع من القتل . رفض أن يتناول الطعام معها على مائدة واحدة وتركها تتناوله فى المطبخ . اعتاد النوم بمفرده فى سرير غرفة المكتب . وكثيرا ما حاولت تجاذب أطراف الحديث معه لكنها لم تلق منه سوى كل إعراض واحتقار . تذكرت حديث وجدى عن إذلال الآخرين الذى يمارسه أمثال يسرى وكأنهم من

طينة غير طينة البشر الذين يرتكبون الخطايا والأخطاء أما هم فمنها براء . إن في إمكانها احتمال كراهية يسرى لها ، أما الاحتقار والإذلال فليس من حقه لأن في إمكانه أن يطلقها !

لكن يبدو أنه يريد الانتقام لعجزه الذى عانى منه منذ بداية زواجه ! واتته الفرصة أخيرا كى يعمق داخلها الاحساس بالحقارة والحيوانية . إنه يمارس قتلها فى كل لحظة مستمتعا بذلك حتى الثمالة.هل يظن أنها يمكن أن تحتمل هذا إلى ما لا نهاية ؟! تمنت لو عاش أبوها معها يوما واحدا فقط ليرى الزوج المثالى الذى اختاره لها حتى يموت قرير العين ! لماذا تآمر الجميع لإطفاء شعلة الحياة ووهجها داخلها ؟! أبوها وأمها ويسرى وهبة ! حتى وجدى فى البداية تركها لتقع فى براثن هذا العاجز المعقد ! الوحيد الذى وقف إلى جوارها كان أخوها حلمى ، لكنه كان مثلها تماما ، لا حول له ولا قوة ! وها هم الآن يدفعونها إلى ارتكاب ما لم تفكر فيه طوال عمرها !

لأول مرة توقف جسدها عن عوائه المسعور . أصبحت الزجاجة محور أفكارها وخواطرها فى الصحو ، وبؤرة أحلامها وكوابيسها فى المنام . وكلما اقترب يوم رحيله ، شعرت بالشبكة تلتف حولها أكثر فأكثر . وكان وجدى قد اتصل بها فى إحدى مرات وجودها القليلة والقصيرة بالصيدلية ، وأخبرها أنه حصل على عقد عمل بإحدى دول البترول للسفر إليها لو سارت الأمور على غير ما يرام ، لكنها فى حمية خوفها من فقدانه أخبرته بأن كل شيء سيتم كما أراد تماما !

فى ليلة رحيله هرعت لإعداد حقيبة السفر له ، لكنه نهرها لأنه لم يحب أن تدنس يداها ملابسه . طفح بها الكيل فطلبت منه الطلاق بين عويل وبكاء لكنه أفهمها أن عليها أن تدفع ثمن جرمها ، أما حصولها على

الطلاق فلا يعنى سوى مكافأتها عليه . لم تفهم مهجة معنى العبارة الغامضة ولم تحاول أن تجهد عقلها المكدود فى فهمها ، لأن تفكيرها كله تركز فى الزجاجة الصغيرة . شعرت بقوى غامضة خفية رهيبة تدفعها إلى ما ليس منه بد بصرف النظر عن مدى كراهيتها له !

كان قد دخل الحمام ومع خرير الماء الساخن سمعته يهمس لنفسه بإحدى الأغانى المرحة . دون تفكير أسرعت إلى قاع دولابها ففتحت الخزانة الصغيرة وأخرجت بيد مرتعشة الزجاجة الصغيرة . أسرعت إلى زجاجة المياه المعدنية الموضوعة فوق مائدة العشاء وفتحتها بحرص مهزوز ، وعندما انتهت من صب نصفها توقفت ثم أغلقت الزجاجة الكبيرة ثم الصغيرة وعادت بها لتقبع فى عقر دارها السرية . فلعل نصف الزجاجة يصيبه بجلطة غير قاتلة ، وبذلك تكون قد ضربت عصفورين بحجر : انتقمت لنفسها ولم ترتكب جناية القتل فى الوقت نفسه !

خرج من الحمام وتناول عشاءه بمفرده كعادته فى الأسبوع الأخير . ولم تستطع مهجة أن تمنع نفسها من التلصص عليه لتراه وهو يتجرع زجاجة المياه المعدنية حتى الثمالة . غاص قلبها فى قدميها لكن السيف كان قد سبق العذل ، وتحول قلق التحفز والتردد إلى قلق الانتظار والترقب !

لم تنم ليلتها خوفا من الكوابيس . وفى الفجر وصل أحد مساعديه بعربة المكتب كى يقله إلى المطار . فكرت فى أن تنهض لوداعه الذى قد يكون الأخير ، لكنها تذكرت الأمس ورفضه أن تدنس ملابسه بيديها .

ظلت قابعة فى فراشها تنظر من موقعها إلى حركاته خلف الباب الموارب لكنه لم يكلف نفسه مجرد إلقاء نظرة عليها . ومع ذلك استراحت لهذا السلوك لأنه يقتل فى داخلها كل طلائع الإحساس بالذنب . وفجأة

وسط خواطرها المتدفقة على شاطئها الغريق ، سمعت الباب يوصد فى عنف مثلما يوصد على سجينة محكوم عليها بالإعدام لارتكابها جناية القتل مع سبق الإصرار والترصد !

لم تستطع أن تقاوم خواطرها المهاجمة فى جنون ، فنهضت وتناولت لأول مرة فى حياتها ثلاثة أقراص مهدئة دفعة واحدة ، وسرعان ما سرت فى داخلها بلادة ذهنية استراحت لها ، وإن لم تساعدها على الاسترخاء . لم تحتمل وحدتها فارتدت ملابسها وصعدت إلى أمها لعل ثرثرتها تشغلها عما ينهشها . فقد كان الوقت مبكرا جدا لفتح الصيدلية تنفيذا لنصيحة وجدى الذى أراد أن يبدو كل شىء طبيعيا للغاية . وبمجرد أن فتحت أمها الباب سألتها :

ـــ أين يسرى ؟!

ـــ سافر الفجر إلى انجلترا !

ـــ ولماذا لم يمر علينا كعادته قبل كل سفر ؟!

ـــ يبدو أن مشاغله العديدة هذه المرة جعلت وقته ضيقا للغاية !!

جلست الأم على أحد مقاعد الأنتريه وعلى المقعد المقابل كانت مهجة مشدودة ومنهكة برغم الأقراص المهدئة :

ـــ هل قمت بتوصيله إلى المطار ؟!

ـــ رفض لأن الطائرة رحلت فى الفجر .. وخاف من إصابتى بالبرد !!

لمع وميض مفاجىء فى عينى الأم أعقبه ابتسام متسائل :

ـــ لا يخاف الرجل على زوجته هكذا إلا لسبب واحد فقط ! هل واتتك الجرأة حتى تخفى عنا خبرا سعيدا كهذا !!

برغم المفعول السارى للأقراص المهدئة ، لم تتخل مهجة عن وعيها الحاد عندما فتحت أمها الموضوع الذى لم تسأم الحديث فيه منذ

زواجها :

ـــ عندما يحدث فلا بد أن تكونى أول من يعلم .. كيف صحة بابا الآن ؟!

ـــ ليست على ما يرام .. كان مكتئبا فى الأسبوع الأخير .. وفى الليلة الماضية عاوده ضيق التنفس .. ولم ينم إلا قرب الفجر !

ـــ هل حدث ما عكر صفوه ؟!

ـــ كان قلقا عليك بعض الشيء !

ذهلت مهجة لكلمات الأم التى نطقتها دون معرفة بأبعادها الحقيقية :

ـــ وما مناسبة قلقه علىّ ؟!

ـــ أبدًا .. ربما لأنه مضى أكثر من أسبوع ولم تصعدى للسؤال عنه .. وأنت تعلمين أنه لا يغادر البيت الآن !

شعرت مهجة أنها لا تكذب وهى تقول :

ـــ كنت مشغولة فى الإعداد لسفر يسرى .. كما أن عبء الصيدلية كله كان على كتفى لمرض زميلى الصيدلى !

ـــ هكذا تتأزم الأمور دائما دفعة واحدة ! على كل حال كان آخر رسم للقلب هذا الأسبوع مطمئنا للغاية .. وإن كان الطبيب قد نصح بأن ينتقل إلى مكان آخر على سبيل تغيير المنظر والجو والتخلص من حالة الاكتئاب التى قد تنعكس على قلبه إذا لم يتخلص منها بأسرع ما يمكن !

ـــ سأقضى أيام غياب يسرى معكم حتى لا أشعر بالوحدة وحتى أكون فى خدمته !

ابتسمت الأم ابتسامة حانية :

ـــ وجودك معنا أكبر خدمة لأبيك .. يكفينا حلمى الذى يسأل عنه

بالتليفون كالغرباء .. وإذا مر علينا فإنه يأتى فى الصباح قبل الذهاب إلى الجريدة أو فى المساء المتأخر بعد عودته منها . وفى كل مرة لا يبقى أكثر من عشر دقائق بحجة الاستعجال أو الإرهاق !

ـــ لم أره فى أى مرة من هذه المرات !

ـــ أنت لست فى حاجة إليه مثلنا .. فأنت لك زوجك الذى يملأ عليك حياتك ويلبى كل طلباتك .. أما نحن فى هذه السن ففى حاجة إلى من يرعانا !

نضحت المرارة من عروق مهجة وصبت فى شرايين قلبها . لم تجد ما تقوله فالتزمت الصمت . سمعت الأم أنين خشب الفراش فى غرفة النوم . أصاخت السمع ثم نهضت وفى أعقابها ابنتها . كان الأب مسترخيا على ظهره تحت غطائه الثقيل وطاقيته البيضاء . ابتسم عندما رأى ابنته بحيث قللت الابتسامة من صفرة وجهه :

ـــ أهلا يا مهجة .. أين كنت طوال هذه المدة ؟!

جلست مهجة إلى جواره وأمسكت يده التى أكدت لها أن الأب الصارم القوى العنيد قد ترك مكانه لحطام هزيل يسعد لمجرد زيارة ابنته له :

ـــ لم أجد فسحة من الوقت إلا بعد سفر يسرى فجر اليوم !

نظر إلى زوجته الجالسة عند قدميه :

ـــ ستتناول مهجة الإفطار معنا ؟!

نهضت الزوجة فى خفة :

ـــ طبعا .. وأيضا الغداء والعشاء !

ثم خرجت فربت الأب فى حنان واهن على يد ابنته :

ـــ ألم يحن الحين لفرع عائلتنا العريقة كى يمتد فى المستقبل .. لا تنسى يا حبيبتى أنها مسئوليتك ! كفانا فرع حلمى العقيم !

نكست مهجة عينيها والمرارة تكاد تقطر من كلماتها :

ــ كل شيء بأوانه يا بابا ! المهم صحتك !

ــ فى اعتقادى أنه آن الأوان لأخذ رأى الطب بعد عودة يسرى ! كل خوفى أن يؤول الميراث إلى الغرباء بعد كل هذا الكفاح المستميت للحفاظ عليه !

ــ لا تحمل هما ! إن صحتك فى أشد الحاجة لراحة البال !

ــ لن يرتاح بالى إلا عندما أتأكد من أن العقم لم يصب شجرتنا !

بحثت مهجة عن كلمات مناسبة للرد لكنها عجزت . لم ينقذها سوى دخول أمها معلنة الانتهاء من تجهيز الإفطار . ساعدت مهجة أباها على النهوض وذهب ثلاثتهم لتناوله فى صمت لم يتخلله سوى أصوات الملاعق والسكاكين والمضغ الخفيف والارتشاف السريع للشاى الذى انتهت مهجة منه واستأذنت بحجة فتح الصيدلية ، لكنها سعت فى الحقيقة إلى تفادى فتح هذا الموضوع الشائك .

اكتشفت أن شهيتها لم تكن مفتوحة لأى حوار . لكن بمجرد انفرادها بنفسها فى الصيدلية هفت نفسها إلى من تتجاذب أطراف الحديث معه . حتى الصبى الذى كان يقوم بتنظيف شقتها والصيدلية وشراء الطلبات طرده يسرى بعد أن منحه مكافأته عند حضوره صباحا بعد الليلة المشئومة . وعاد الصبى مذهولا للمفاجأة التى دفنت كل تساؤلاته الملحة .

حاولت مهجة الهروب من خواطرها الملتهبة ، لكن الدنيا كلها أصبحت غريبة نائية مصبوغة بألوان لم تألفها من قبل . تعمدت أن تقضى معظم وقتها فى الصيدلية ثم تصعد للعشاء والنوم حتى تقلل من لقائها بأبويها قدر الإمكان . كالمستجير من الرمضاء بالنار عانت من عذاب الوحدة هربا من ألم اللقاء ومواجعه . لم تتوقف الأسئلة المتراقصة فى

مخيلتها وأمام عينيها ! وبحلول اليوم الثالث من سفره تحولت إلى سياط من نار ، لم يقلل من لهيبها سوى اعتقادها بأن نصف الزجاجة لن يكون أبدا في مفعوله مثل الزجاجة كاملة . كذلك استراحت لظنها بأن المستحضر كله يمكن أن يكون باطل المفعول لاحتمال عجز وجدى عن تذكر مواصفاته على وجه الدقة !

مثل غريق وجد قشة تعلقت مهجة بهذه التفسيرات . لكن إحساسها بمرور الساعات تكثف ، وأصبح رنين التليفون فى أذنيها كدقات العدم حتى تمنت أن يصمت إلى الأبد . وكم كانت تتنفس الصعداء عندما تكتشف أن الرقم خطأ ، أو أن زبونا يسأل عن دواء غير متوفر فى السوق ، أو أن صديقا يستفسر عن ميعاد عودته من الخارج ! وفى اليوم الرابع من سفره تعمدت أن تقضى معظم الوقت فى شقتها ، وتركت الصيدلية مغلقة طوال النهار .

غلب النعاس المتقطع عينيها فى فترة الظهيرة فتركت جسدها ممدداً فوق السرير دون أن تخلع ملابسها . دق جرس التليفون فى رأسها التى لم يفارقها الصداع فى الآونة الأخيرة . نهضت قافزة مع دقات قلبها المنتفض فإذ بوجدى على الطرف الآخر يسأل بحرص شديد وهمس كالفحيح عن أحوال الصيدلية ، فأجابته بأنه لم يستجد فى الأمر شىء . وعدها بالاتصال مرة أخرى فى صباح اليوم التالى ووضع السماعة ، فاعترتها كآبة عارمة لم تعرف مصدرها على وجه التحديد . هربت من أفكارها بالاستحمام وتغيير فستانها استعدادا للنزول إلى الصيدلية التى قررت ألا ترد على المكالمات التليفونية فيها بعد أن وجدت فى اليومين الأخيرين من يطلب الرقم وبمجرد أن ترد يضع السماعة دون أن ينطق حرفا واحدا . شكت فى أن تكون هبة قد شرعت فى التجسس عليها .

انتهت من ملبسها وزينتها عندما دق جرس التليفون . رفعت السماعة بيد مرتعشة فلم يأت رد . ظنت أن هبة قد نقلت المطاردات إلى مخدعها . كانت على وشك أن تنتقم هذه المرة بالسباب والشتائم لكنها سمعت دقات متقطعة ثم جاء صوت من بعيد اتضحت ملامحه يسأل عن صحة الرقم الذى يطلبه ، فأجابته بالإيجاب . صمت لحظات كدهر وقال إن السفارة المصرية فى لندن على الخط . لم تحملها ساقاها فجلست على مقعد مجاور وجاء صوت يخبرها صاحبه بأنه الملحق التجارى وأنه يأسف لإزعاجها لكن كان لا بد من الاتصال بها إذ أن يسرى بك قد أصيب بجلطة حادة فى القلب ، وقد تم نقله إلى مستشفى قريب من السفارة فى لندن .

صمت الصوت والمقعد يميد من تحت مهجة التى سألت عن مدى خطورة الإصابة وكيف حدثت ؟! ساد الصمت لحظات أوشك فيها قلبها على أن يقفز من بين ضلوعها . جاء الصوت مرة أخرى يوضح أن خطورة الإصابة تضاعفت إلى أن أصبحت مميتة لدرجة أن قلبه توقف عن النبض تماما . وقد سخر الأطباء كل وسائل الطب الحديث لإنقاذه لكن بلا جدوى .

برغم أن مهجة فكرت فى كل ما تستمع إليه الآن ، فإن وقعه على أذنيها كان كانهيار كتل صخرية هائلة من على قمة جبل . إذاً .. لقد وقعت الواقعة وأصبحت قاتلة مهما حاولت أن تبرر لنفسها من أسباب دفعتها إلى هذه الفعلة ! جاء الصوت بإيقاع أسرع على سبيل إنهاء المكالمة بتبليغ الرسالة الكئيبة كلها موضحا وصول الجثمان على الطائرة المصرية التى تصل إلى القاهرة فى الساعة العاشرة من مساء الغد ، ثم ختم المكالمة بتقديم التعزية القلبية لكل أعضاء الأسرة متمنيا لهم الصبر

والسلوان .

انتهت المكالمة ومهجة تبذل أقصى ما فى وسعها لتستخرج من أعماقها إرادة تساعدها على مواجهة الموقف بكل أبعاده . تركت لنفسها العنان فى البكاء لعلها تتخلص من أكبر قدر ممكن من شحنتها . صعدت إلى أبويها فلطمت الأم الخدود وأوشك الأب على الانهيار الكامل ، فكانت هى التى تطالبهما بالتماسك . جاء حلمى مذهولا . ظن فى بداية المكالمة من صوت أخته المرتعش الباكى أن أباه قد رحل ، لكن القلق الحزين تحول إلى ذهول لم يفارقه حتى بلغ البيت حيث كلفته مهجة بالاتصال بهبة وأمها اللتين لم تستطع مواجهتهما .

طوال الليلة الثقيلة الطويلة قاومت مهجة كل هجمات الإحساس بالذنب ، وظلت تذكر نفسها دائما بتهديده إياها بما هو أبشع من القتل . كذلك فإن الجريمة كانت من تخطيط وتنفيذ وجدى الذى لم يترك لها أى خيار آخر . وعليها أن تنتظر مكالمته فى الصباح . فهو صاحب المشروع من البداية إلى النهاية وعليه تقع معظم تبعته . ظلت متمسكة بهذه الخواطر تجترها حتى بزغ الفجر والأسرة معجبة بتماسكها الذى لم تتخلله سوى مرات بسيطة قصيرة من البكاء شاركتها فيها الأم التى وضعت زوجها وصحته فى ذهنها .

فى الصباح هبطت إلى شقتها بعد أن رفضت اصطحاب حلمى معها ، فقد طلبت منه البقاء معهما لأنها ستعود إليهم بعد دقائق . فى شقتها نظرت إلى صورة زفافها الموضوعة فوق الدولاب الصغير القصير واستراحت إلى أن ما حدث منذ البداية كان من صنع القدر . بحثت عن رداء أسود فلم تجد سوى رداء كحلى لبسته لحين البحث عن آخر عند أمها . دق جرس التليفون فرفعت السماعة وجاء صوت وجدى قلقا على

غير عادته ، وعندما أخبرته وطلبت منه الحضور شعرت بأنه صدم بطريقة لا تقل فى حدتها عن صدمتها ، بعد أن ظنته إنسانا مات ضميره . وتعجبت كيف يتحمس إنسان لفعلة معينة يتصور أن حياته لا يمكن أن تستمر إذا لم تتحقق ، وإذا تحققت ركبه الندم بل وصفعته الصدمة ؟! لقد وقع ما وقع وعليهما مواجهة الموقف الجديد بطريقة أو بأخرى !

جاء وجدى حزينا باكيا . لم تعرف مهجة مدى صدقه ! لكنه كان جزينا لسبب أو لآخر ! إما على نفسه أو عليها أو ربما على يسرى ؟! المهم أن سلوكه فى الجنازة كان مثال الصديق الوفى الذى وقف مع العائلة فى محنتها بكل حب وتفان وإخلاص ، برغم عدم حماس الأب له ، واستهجان هبة وأمها لكل ما يدور برغم ذهولهما وانهيارهما . فقد تابعتهما مهجة من وراء نظارتها السوداء مع التركيز على هبة ذات النظرات الحائرة الزائغة . فلم تنس هبة أنها هى التى ورطت أخاها فى هذه الزيجة ، وهى التى سارعت لإبلاغه بما حدث ، فلا شك أن الندم يقتلها الآن . صدمته تنفيسا عن غلها ، لكن الصدمة جاءت بالجلطة المميتة . وهذا لم يكن فى حسبانها على الإطلاق ، وإن كان فى حسبان مهجة ووجدى اللذين عجزا عن تبين ملامح المستقبل الذى خططا من أجله إذ يبدو أن وجود يسرى فى حياتهما سيكون أعمق أثراً بعد رحيله . أصبح يهاجمهما فى أحلام اليقظة وكوابيس الليل وإن لم يصرح أحدهما للآخر بما ينتابه فى خلوته ومنامه .

لا تتوقف عجلة الحياة بتوقف قلب إنسان ، مهما كان هذا الإنسان ، وإن كانت آثاره لا تنتهي بانتهاء حياته ، إذ تندمج فى الدوائر والدوامات التى تصنعها العجلة الأزلية الأبدية ، ويتوقف أثرها فيها بقدر ما كان صاحبها مؤثرا فى حياته .

كان هذا هو الدرس الذى تعلمته مهجة بعد رحيل يسرى . فقد ظنت أن كل شيء سيعود سيرته الأولى ، وأنها ستقهر إحساسها بالذنب بمجرد خلع ملابس الحداد والاندماج فى دوامة الحياة مرة أخرى ، لكن شيئا ما داخلها أكد لها وجود خطأ أو خطيئة لا بد من دفع ثمنها . لكن كيف ستضطر إلى التكفير عن فعلتها وما حدث لا يمكن اكتشافه وتوقيع العقاب على مرتكبيه ؟! إذا لم يكن ما حدث هو الجريمة الكاملة فليس لهذه الجريمة وجود !! لكن ما هذا الشيء الذى يئن داخل الإنسان فى صمت ويذكره دائما بما فعل ؟! هل ستضطر يوما إلى الوقوف أمام محكمة الضمير بحيث تصرخ روحها معلنة جرمها ؟! كثيرا ما سخرت من المؤمنين بوجود الأشباح فى حياتهم ، لكنها اكتشفت أنهم أخطأوا فقط فى محاولتهم لإلباس الأشباح كيانا ماديا ملموسا . فهم موجودون ، ليس فقط فى حياتنا ، بل داخل ذواتنا وفى أعمق أعماقها ! فى حياته لم يكن وجوده يخطر على بالها طوال اليوم إلا للحظات عابرة ، فى حين كان وجدى متربعا على قلبها وعقلها وفكرها معظم ساعات اليقظة ، وزائرا فى أحلامها وشطحاتها . والآن أصبح يسرى يزاحم وجدى فى كل خلية من خلاياها حتى أوشك وجود وجدى نفسه على أن يفقد كل مذاق ونشوة له !

حاولت مهجة طرد هذه الهواجس في جلستها أمام خزانة الصيدلية وهى تراقب وجدى الذى يتحرك كالنحلة سعيا وراء تلبية رغبات الزبائن . كان قوامه الطويل الرفيع قد ازداد نحولا ، وامتزجت سمرة بشرته بصفرة رمادية غريبة ، في حين فقد شهيته للثرثرة معها . بل كثيرا ما تفادى كل منهما نظرات الآخر إليه تعللا بانهماكه فى العمل . ومع ذلك استطاعا الوصول إلى خطة مشتركة تتيح لهما الزواج بعد مرور عام على رحيل يسرى حتى لا تثار حولهما أية شبهات أو أقاويل . وفى اللحظات التى نجحت فيها الرغبة فى طرد يسرى ، كانا يلتقيان فى شقة بولاق الدكرور ، ويبدو أن مهجة عادت إلى طيشها السابق فأغرت وجدى باللقاء فى شقتها ، لكنه كان لقاء فاشلا لمهجة التى عجزت عن التجاوب معه . كان كل ركن من أركان الشقة يذكرها به وبصورته وبصوته وبتهديده لها بالقتل . ولذلك اقتصر اللقاء على الشقة النائية المتربة وإن كان قد فقد الكثير من بهجته ونشوته ، بل وقلت مراته بشكل ملحوظ . أما المعمل فلم يجرؤ أحدهما على دخوله ، بل وعلى مجرد النظر إلى الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين بماء الذهب على بابه الزجاجى الأسود .

لكن بمجرد انتهاء الصيف الساخن بدأت الأم فى التلميح لمهجة برغبتها فى تزويجها مرة أخرى منعا للقيل والقال . تجاهلت مهجة التلميحات فى بادىء الأمر ، وعندما بدأ الإلحاح تعللت بأنه ليس من اللائق فتح هذا الموضوع قبل مضى عام على الأقل حتى تسلم من الألسنة . سكتت الأم على مضض أدهش ابنتها وأذهلها وإن كانت قد عللت هذه العجلة برغبة أمها فى تزويجها فى حياة أبيها التى يبدو أن أيامها قد أصبحت معدودة . لكنها اكتشفت أن الأمر لم يكن هكذا على الإطلاق . فذات مساء بعد انتهاء عملها فى الصيدلية

وصعودها ــ كعادتها ــ للعشاء والنوم فى شقة أبيها ، أخبرتها أمها وهى تفتح لها الباب أن أباها يريد أن يراها فى غرفة نومه وعندما سألتها فى قلق :

ــ خيراً !!

أجابت الأم وكأنها تخفى أمراً :

ــ أبداً .. هكذا طلب منى !!

أسرعت مهجة إليه حيث كان مسترخيا فى فراشه دون غطاء . كان أكتوبر حارا أكثر من المعتاد هذا العام . بدا وجهه المتغضن وكأنه يقترب من التسعين . لم يرحب بابنته بل أشار لها بالجلوس على مقعد مجاور فى حين تلفتت مهجة حولها فلم تجد أمها . برغم الارتعاشة البارزة على نبرات صوته تذكرت صرامته القديمة :

ــ تعلمين جيدا يا مهجة أن أسرتنا عاشت منذ القدم شامخة الرأس . حتى بعد قيام الثورة استطاعت أن تواجه قرارات تحديد الملكية والحراسات والتأميمات بذكاء وكبرياء وقوة .. كذلك فقد خرجت من محنة لجنة تصفية الإقطاع مرفوعة الرأس برغم الضربات التى نالتها على يديها ..

صمت ليلتقط أنفاسه اللاهثة داخل صدره الذى يبدو أنه ضاق بها . أزاح الطاقية إلى مؤخرة رأسه ومهجة تتعجب لهذه المحاضرة أو المقدمة التى سمعتها منه من قبل عشرات المرات . استأنف :

ــ وليس من المعقول أن يحدث بعد هذا التاريخ الطويل المجيد ما يخدش سمعة أسرتنا أو يمس شرفها !

هنا مربط الفرس . سقط قلب مهجة فى قدميها لكنها استجمعت شتات تفكيرها قدر الإمكان بعد أن بعثرته صدمة جعلتها تظن أن أباها قد علم بعلاقتها بوجدى . لكن هدوءه طمأنها بعض الشىء وهى تتساءل

بقلب لا يزال ساقطا فى أعماقها :

ــ ولماذا تقول لى يا بابا هذا الكلام بالذات ؟! هل بلغت أسماعك وشاية من حقير !!

ــ أعلم جيدا يا مهجة أنك خير من يصون شرف العائلة .. لكن وجودك كأرملة جميلة صغيرة غنية فى مكان واحد طوال النهار مع شاب مثل هذا الذى يعمل عندك من شأنه أن يثير أقوالا وشبهات نحن فى غنى عنها !

ــ إنه مثال الإخلاص والتفانى .. وعلى استعداد للحفاظ على سمعتى محافظته على حياته .. كما أنه عمل معى قبل وبعد وفاة المرحوم عاما بأكمله الآن دون أن يطالب بأية علاوات أو امتيازات فما الذى أثار هذا الكلام الغريب الآن ؟!

نظر الأب عبر النافذة ذات الزجاج المغلق . كانت القبة السماوية خالية تماما من النجوم :

ــ منذ وفاة المرحوم ونحن نتلقى ــ أنا وأمك ــ مكالمات من شخص مجهول يقول لنا إن الألسنة تلوك سمعتك بوجودك الدائم مع رجل غريب فى مكان واحد . فى بادىء الأمر أخذنا الموضوع على أنه مجرد وشاية حقيرة .. بل وكنا ننهى المكالمة القصيرة بإهانة المتكلم وسبه . لكن المتكلم أصبح ثلاثة أو أربعة ما بين رجال ونساء .. وأصبحت المكالمات أكثر إلحاحا وصفاقة .. وأنت تعلمين أن قلبى لم يعد يتحمل هذا .. انتظرنا على مضض حتى مرور نصف سنة على وفاة المرحوم .. ثم قررنا مفاتحتك .. نعرف أنه لا يصح أن تتزوجى قبل مضى عام على أقل تقدير .. لكن الحى فى النهاية أبقى من الميت !!

تحول الخوف والقلق داخلها إلى رغبة جارفة لتحطيم كل المحاولات

التى تسعى لتضييق الخناق عليها مرة أخرى ، رغبة طغت على صوت الضمير المؤلم داخلها وأكدت لها عزم أسرتها الكريمة على تكرار مأساتها مع يسرى . فلا بد أنها اختارت لها زوجا أيضا حتى تقدمها ضحية على مذبح كرامة العائلة . إن أباها هذا ــ والمفروض فيه أنه أقرب الناس إليها ــ لا يعلم شيئا عنها أو عما يدور بداخلها . قالت وقد استعادت حسمها :

ــ هذه الوشايات الحقيرة من صنع هبة .. فقد طردتها من الصيدلية قبل وفاة المرحوم بعد أن وجدتها متلبسة جهارا نهارا وهى ترمى شباكها حول وجدى للإيقاع به .. كان محرجا للغاية حتى لا يخدش شعورها .. وعندما لمحت الاستغاثة فى عينيه حسمت الموقف وصارحتها بأن الصيدلية ليست مكانا لتلقى الدروس الخصوصية المجانية .. عندئذ طلبت منه أن يزورها فى بيتها لكنه تملص منها أيضا ــ ولذلك فهى تنتقم منى الآن بهذه المناورات الحقيرة حتى تشوه سمعتى وتحطم مستقبلى !

شعرت مهجة بالراحة العميقة منذ جلست إلى أبيها بعد أن تخلصت من كل هذه الشحنة مرة واحدة . لكن علامات عدم الاقتناع بل وعدم التصديق على وجهه جعلتها تتحفز لمعركة آن الأوان كى تخوضها بكل ما تملك من أسلحة ، خاصة وأن إحساسها بالذنب تراجع إلى الخلف خطوات واسعة . نهض الأب جالسا فى فراشه :

ــ لا أعتقد أن هبة ابنة الحسب والنسب تتمنى شابا مثل هذا الذى يعمل عندك .. فالطيور على أشكالها تقع .. لا بد أنك أسأت فهم مقصدها .. إنها لطيفة ومهذبة بحكم تربيتها وبيئتها ولا مانع أن تكون هكذا مع كل الناس !!

تحول حسمها إلى نوع من التحدى لم يلمسه الأب فيها من قبل :

— لكن هذا لا يمنحها الحق فى تشويه سمعتى وتحطيم مستقبلى !

— إنك لا تستطيعين إثبات هذا .. كما أنه من المستبعد تماما أن تكون هبة وراء هذه الصفاقات .. فأنا أشك فى أنها من بائعى المحال المجاورة للصيدلية .. فهم الأصناف التى لا تعرف سوى الحقد وتشويه صورة أسيادهم !

— لم ألق منهم سوى كل حب واحترام ومساعدة .. كما أنهم ساندونى فى محنتى كإخوة حقيقيين لى !

أشاح الأب بوجهه بعيدا صوب السماء المظلمة خارج النافذة :

— على كل حال ليست هذه قضيتنا .. القضية هى قطع دابر هذه الألسنة .. ونحن لن نعدم الوسيلة !

وجدت مهجة نفسها وهى تقول دون تفكير :

— لا تقل لى إنك قررت رفت وجدى من الصيدلية ؟!

دهش الأب للهجتها الهجومية لكنه لم يفقد هدوءه :

— لا أحب أن أقطع عيش من يعمل عندنا .. لكن زواجك سيحل المشكلة برمتها ! كما أننى أريد أن أرى حفيدى قبل رحيلى !

غمر السأم والضيق مهجة حتى أنفها :

— وماذا سيقول الناس إذا وجدونى أتزوج ولم يمض على موته أكثر من ستة أشهر ؟!

— سمعة ابنتى أهم من كلام الناس !

آه !.. تتمسحون بكلام الناس إذا صادف هواكم .. وتترفعون عنه إذا اعترض طريقه . تساءلت وهى تتحسس مواقع كلماتها :

— وهل وجدتم العريس المناسب ؟!

تمطى الأب فى ارتياح وعاد إلى الاسترخاء ظنا منه أن ابنته تفكر بنفس

طريقته :
ـــ لحسن الحظ .. فقد عاد رمزى ابن خالتك هذا الأسبوع من أمريكا بعد أن حصل على الدكتوراه فى إدارة الأعمال .. ولن يجد عروسا أجمل وأرقى وأغنى منك !
ـــ هل قمتم بمفاتحته فى الموضوع ؟!
لم يتعجب للسؤال بل اعتبره تناغما فى وجهات النظر :
ـــ ستقوم أمك بجس النبض .. وهى واثقة أن كل شىء سيتم على خير !
كبتت مهجة سخريتها المريرة وحنقها المتفجر إذ يبدو أن يسرى سيواصل انتقامه منها بعد رحيله :
ـــ ولنفرض أنه كان مرتبطا بفتاة أخرى ؟!
ـــ قامت أمك بالتأكد من هذه النقطة بالذات !
ـــ وهل تعتقد أن شابا مثله قضى أربع سنوات فى أمريكا .. يعود ليخطب فتاة بهذا الأسلوب التقليدى ؟!
ـــ إن عائلاتنا لا تغير تقاليدها العريقة مهما تنقلت بين أرجاء الدنيا الفسيحة !
ـــ أعتقد أن فارق السن بيننا كبير .. فهو يقترب من سن يسرى ؟
نضحت الثقة من بين شفتيه :
ـــ إنه يكبرك بسبع سنوات فقط ! فقد دفعه نبوغه إلى الحصول على الدكتوراه ولم يتجاوز الثلاثين من عمره !
تذكرت وجدى البائس الذى كان يحلم بالدكتوراه فانتهى به الأمر إلى ما انتهى به . استيقظت من شرودها على صوت أبيها :
ـــ ستقوم أمك مع أختها بدراسة الموضوع كله .. وسيتقدم بإذن الله

لطلب يدك فى مدة لا تزيد على شهر على أكثر تقدير !!

لم تشأ مهجة أن تخوض جدلا عقيما طالما أن صاحب الشأن ليست عنده أدنى فكرة عن الموضوع . فهى ليست على استعداد لمعركة قد لا يخوضها الطرف الآخر أساسا . لكنها ستقص كل شيء على وجدى إذ أن انتظارهما أصبح بلا معنى ، وهو لن يتخلى عنها هذه المرة بعد أن فعل ما فعل ، وبعد أن أصبح الرباط بينهما أقوى من رباط الحب والجنس ذاته . إنه رباط المصير ، رباط تتضاءل أمامه كل الاعتبارات ، بما فى ذلك الاعتبارات التافهة التى يظن أبوها أنها غاية الحكمة . ومع ذلك فهى تحمد لأبيها أنه ذكرها — من حيث لا يدرى — بخاطر مريح أكد لها أن ما حدث لم يكن من صنع وجدى أو صنعها وحدها بل من صنع جميع الأطراف المعنية وفى مقدمتها أبوها وهبة وأمها ، وفى خلفيتها الأوهام والتقاليد التى تدفعهم — كالقدر — إلى إفساد حياتهم وحياة الآخرين لدرجة القضاء عليها فى بعض الأحيان .

— فيم شردت ؟!

تنبهت على صوت أبيها الذى نم عن سعادة خفية فردت فى اقتضاب :

— أبداً !!

استرخى تماما فى فراشه :

— يمكنك الآن تناول العشاء والنوم .. فأنا أدرى بالجهد الذى تبذلينه طوال اليوم !

— تصبح على خير !

نهضت وغادرت الغرفة دون أن تسمع رده الراضى :

— وأنت من أهله !

كان العشاء جاهزا لكنها ذهبت إلى فراشها . لم ينجح الإرهاق فى أن يغطى النعاس عينيها بردائه . نامت بقميصها الأبيض الشفاف .
رأت جسدها فى المرآة يتلوى تحته فأطفأت الأباجورة الحمراء ولعنته . على ضوء وهجه المتقد دائما رأت الدنيا وردية اللون ، لكنها الآن تحترق بناره وتكاد تختنق بدخانه . ومع ذلك لا يمكن أن تتصور حياتها بدون رغبته واشباعها ! من أجله فعلت ما فعلت وجرفت وجدى معها ، وإن كانت لا تعرف من الذى جرف الآخر ؟! والآن يريدون بيعها مرة أخرى فى سوق الزواج بضمير مستريح تماما لأنهم لا يدرون أنهم المتسببون فى موت يسرى !! أجبروها على الرضوخ له ، لكن الوهج داخلها لم يرضخ ولم ينطفىء بل زاد ضرامه إلى أن احترق به يسرى برغم حياته الثلجية ! هل كان وجدى على حق عندما قال لها إن الأفعى لا تلدغ لأنها شريرة ولكن لأن الطبيعة جعلتها هكذا ؟! هل كانت غلطة يسرى المأسوية أنه فرح بالملمس الناعم لها فسكن معها نفس الجحر دون أن يتنبه للدغتها ؟! والآن يريدون وضع ضحية جديدة فى الجحر ؟! المهم ألا يلتئم شملها على أليفها ؟! لن تسمح لهم بتقديم المزيد من الضحايا !! فهى السفاحة القاتلة فى النهاية وهم الأبرياء الشرفاء منذ البداية !!
غفت عيناها فزارها يسرى الذى أكثر من تردده عليها فى الفترة الأخيرة كلما أسلمت نفسها لسلطان النوم . أدركت أن وجوده فى أحلام يقظتها كان أرحم بكثير من زياراته الليلية ، وندمت على طردها له منها . فهو يخرج من باب النهار ليدخل من نافذة الليل . لن ينقذها منه سوى وجدى ؟! يبدو أن وجدى سيقضى عمره كله فى إنقاذها منه ؟! ما ذنب هذا البرىء الجديد كى يقحم فى دوامة الجحيم التى يدور فيها ثلاثتهم ؟!

استجدت سلطان النوم وقبلت قدميه حتى يعطف عليها ، لكنها خافت من صداقة يسرى له ، فتركت نفسها نهبا لخواطرها وهواجسها المتدفقة من نبع لا ينضب .

— ١٦ —

— هل ستظلين هكذا فى انتظار المعارك حتى تأتيك فى عقر دارك فتضطرين إلى الدفاع فى آخر لحظة وتكون الهزيمة فى النهاية من نصيبك ؟!

دهشت مهجة لهذا السؤال من وجدى وهما يتهيآن لإغلاق الصيدلية مع اقتراب الساعة من الثانية ظهرا . كانت قد قصت عليه حكاية العريس الجديد وطلبت رأيه فى نهايتها ، لكنه أكد لها أن رأيه يأتى فى المرتبة الثانية بعد رأيها ! لكن يبدو أنها عندما التزمت الصمت وانهمكت فى عملها حتى جاء ميعاد الإغلاق دون إبداء رأيها ، خاف أن تكرر مأساة يسرى معهما ، وتظن أنه لا يزال بسلبيته التى لمستها فى زواجها الأول ، خاصة وأنها لم تقص عليه حوارها مع أبيها إلا بعد مرور ما يقرب من شهر عليه . أجابت بعد أن انتهت من مراجعة حساب الخزانة :

— كان رأيى الانتظار لعل العريس لا يتقدم أصلا وبذلك نوفر على أنفسنا معركة نحن فى غنى عنها !

استند إلى نافذة العرض الزجاجية ولم يخل صوته من توتر :

— إلى متى سأظل تحت رحمة الآخرين ؟! إلى متى سأظل أستجدى الزواج منك ؟! وأنا الذى فعلت ما ارتكبته من أجلك ؟!

كانت قد بدأت تخاف منه فى الآونة الأخيرة بعد أن أصبحت فى

قبضته تماما :

ـــ لم أعرف رأيك حتى الآن ؟! قل لى ماذا أفعل وأنا ملك يديك ؟!

ـــ احسمى الموضوع تماما حتى أتقدم لطلب يدك !

كثيرا ما أعدت نفسها لمثل هذا الموقف ، لكنها لم تظن أن فى الإمكان أن يصبح حقيقة واقعة بهذه السرعة :

ـــ لا بد من التمهيد المدروس لذلك .. فلم تعد صحة بابا تحتمل أى شد أو جذب !

لم يخف ابتسامته الساخرة وهى تقطر مرارة :

ـــ فرض أبوك سيطرته عليك مستخدما فى ذلك كل قوته .. والآن يحكمك معتمدا على ضعفه !!

ـــ إنه أبى على أية حال ؟!

تحولت السخرية المريرة إلى حنق خانق :

ـــ وأنا ؟! هل سأظل الأجير الذى يعمل فى ضيعة الباشا ؟! والعاشق السرى الذى تأنف ابنة الباشا من إعلان حبها له أمام الناس ؟!

علا صوته على غير عادته ، فأسرعت مهجة للتأكد من إغلاق الباب الزجاجى حتى لا يتسرب زبون ليس فى الحسبان . اقتربت منه فى محاولة مستميتة للتهدئة :

ـــ أنت أدرى بمكانتك عندى .. ولا يصح لك أن تنطق بمثل هذه الألفاظ .. فأنا متفقة معك فى كل شىء !! كل ما أفكر فيه هو طريقة التنفيذ دون إثارة للمتاعب !

هدأ صدره المضطرب بعض الشيء :

ـــ لن نمر بأسوأ مما مر بنا ! كما أننى لست فى انتظار تفضل السيد الخطيب بالموافقة أو الرفض .. وكذلك أنت !

ـــ فى اعتقادى أن الفكرة عرضت عليه ورفضها بدليل مرور شهر ولم ألق إجابة شافية من ماما التى تهربت من كل أسئلتى !

ـــ أصبحت تستجدين مثلى تماما ! من جاور الحداد اكتوى بناره !

ـــ أرجوك لا داعى لهذه المرارة ! قل لى ماذا أفعل وأنا تحت أمرك !

وشت لهجته بأوامر صريحة :

ـــ ما دام الأمر هكذا .. اتصلى الآن بحلمى حتى يحضر عصر اليوم ويشهد الموضوع برمته .. وبذلك نضرب عصفورين بحجر : أولا سيكون وجوده ملطفا لأى احتكاك متوقع .. وثانيا لأنه شاعر ويقدر معنى الحب ومن الطبيعى أن يساند قضيتنا !

ـــ وهل ستحضر معنا ؟!

ـــ ماذا جرى لك ؟! أين التمهيد المدروس الذى تكلمت عنه ؟! هل يعقل أن تخبريهم بمجيئى ثم يجدونى وسطهم بعد ساعة أو ساعتين ؟!

لم تعد تستريح للهجته لكن ما باليد حيلة :

ـــ أصبحت متوترا أكثر من اللازم بعد أن كنت أستمد الهدوء والسكينة منك !

ـــ لا تضيعى الوقت .. اتصلى بحلمى الآن !!

انصاعت للأمر . رفعت السماعة . أدارت القرص وجاء حلمى على الطرف الآخر فشرحت له الموضوع . رحب بصوت لا يخلو من قلق وحرج . انتهت المكالمة وهى شاردة . تأكدت أنها ستحارب من أجل زواجها بوجدى لارتباط مصيرها به . أما رباط الحب فقد تمزق تحت وطأة الشد والجذب من كل الأطراف . كثيرا ما تغنى الشعراء بالحب والمصير كوجهين لعملة واحدة هى الحياة بكل أبعادها ، لكنهما فى حالتها نقيضان يسيران فى اتجاهين متضادين من البداية إلى النهاية . حتى

جسدها الذى عاشت من أجله صار فى نظرها لعنة تطاردها حيثما حلت . برغم كل شىء لا تزال النار تحت الرماد ولذلك فهى تعشقه بنفس القوة التى تمقته بها .

ــ لا تحملى هم الصيدلية فى الفترة المسائية ! سأتولاها لحين عودتك من المعركة ظافرة !

خرجت من دوامة خواطرها الشاردة على صوته فابتسمت إبتسامة لا معنى لها . سارت أمامه حتى الطوار . أغلق الباب الزجاجى بالمفتاح محاولا التظاهر بالمرح :

ــ غداً .. سأسمع منك أنباء سعيدة طالما أنها من صنعنا نحن فقط ! فلن نسمح لأحد أن يصنع لنا مصيرنا بعد اليوم !

لم تغط الابتسامة نفسها كل وجهها فانحنى محييا وسار بقامته النحيفة المديدة عبر الشارع الحافل بالسيارات المارقة دون أن يهتز لواحدة منها . أما هى فقد دخلت من الباب الزجاجى الضخم للعمارة وهى فى حيرة من أمرها : هل تصعد إلى شقتها للمزيد من التفكير والتدبير أم للجديد من الحيرة والضياع ؟! وجدت المصعد أمامها ففتحته . لأول مرة لا تفكر فى التمتع بالزوايا المختلفة لوجهها فى مرآته . خرجت منه لتدير المفتاح فى باب شقة أبيها . شاهدت أمها من زجاج الأنتريه وهى تروى أصص الزرع والزهر فى الشرفة الفسيحة العالية التى تطل على نادى الصيد والشارع المحيط به . أسرعت إليها فرحبت بها باسمة لكنها لم ترد الابتسامة :

ــ ماذا تم فى موضوع العريس ؟!

ــ لأول مرة أراك متحمسة لمثل هذا الموضوع ؟!

ثم أدارت الأم ظهرها وتظاهرت بالانهماك فى تنظيف بعض الأوراق

الخضراء العريضة من التراب العالق بها بقطعة من الصوف فى يدها ، استدارت مهجة لمواجهتها وجسدها كله ينتفض تحديا :

— ليكن فى علمك أننى لست فى انتظار كل من يتنازل ويتفضل كى يأتى لشرائى منكم !!

لم تلحظ الأم وميض التحدى فى عينيها لكنها قالت بسخرية عفوية :

— من يسمعك يقل إنه جاء يقبّل الأعتاب ؟!

لم تعرف الأم أنها ضربت على الوتر الذى أعدّه وجدى داخل مهجة لإعلان المواجهة المباشرة :

— تتهربين من الإجابة لأننى أعلم أنه رفض الرضوخ للمناورات التى لم تر فيه سوى صيدا سهلا لامرأة تستجدى زوجا !

نظرت إليها الأم فى تساؤل مذهول بعد أن أفرغت كل مياه الإناء الزجاجى فى رش الأصص :

— ماذا استجد حتى تنفجرى هكذا ؟!

— لم ينفجر سوى ما كان مخزونا منذ زواجى ؟!

— كان يسرى سيد الرجال !

تنبهت مهجة للمنزلق الخطير الذى قد تندفع إليه فى غفلة من أمرها . أوشك إحساسها القديم بالذنب على أن يتلاشى ، فلم يكن سيد الرجال على أى وجه من الوجوه :

— لن أدخل فى جدل عقيم .. كل ما أريد أن أقوله إننى من الآن فصاعدا سأختار بنفسى شريك حياتى .. حتى لو كان أفقر خلق الله !

كانت الأم على وشك مغادرة الشرفة الفسيحة المشمسة ، لكنها توقفت فجأة عند الجملة الأخيرة :

— وتقولين إنه لم يستجد فى الأمر شىء ؟! أراهن أن هناك من يتمنى

للتقدم لطلب يدك وأكاد أن أعرفه !

رفعت مهجة حاجبها الأيسر فقد بلغ التحدى مداه :

ـــ هل يمكن أن أعرف من هو ؟!

تملصت الأم من المواجهة المباشرة وهى تغادر الشرفة :

ـــ أطال الله فى عمر أبيك .. ليس لى رأى فى مثل هذه المسائل الشائكة !

لحقت بأمها فى إلحاح شديد حتى باب المطبخ فتوقفت الأم حتى لا يتسلل الكلام إلى آذان الطباخ والمربية العجوز :

ـــ إذا كنت تنوين مفاتحة أبيك فى هذا الموضوع .. فأرجوك مراعاة حالته الصحية .. فليس لى أحد سواه فى هذا العالم !!

كان لسانها على وشك أن يتساءل : وأين أنا وحلمى ؟! لكن ما فائدة الحوار بين متحدثين بلغتين مختلفتين تماما ؟! هرعت إلى غرفتها لتسترخى على فراشها دون أن تغير ملابسها . كان عقلها ميدانا للمعركة التى ستنشب بعد ساعات لا بد أن تثبت فيها إرادتها بعد أن عاشت طول عمرها من أجل رغبتها فقط . والآن حكم عليها بالانتقال من مرحلة الرغبة إلى مرحلة الإرادة ، وليكن ما يكون !

كان الصمت سيد الموقف على مائدة الغداء . كانت مهجة مشغولة بأفكارها المتناطحة وبتفادى نظرات أمها المتسائلة القلقة ، فى حين اكتفى الأب بالحساء وقطعة من الدجاج المسلوق وعصير الليمون ثم نهض للاسترخاء فى فراشه . وسرعان ما اختفت مهجة هى الأخرى فى غرفتها على أمل حشد قواها لكن عينيها لم تغفوا . ظلت تتقلب فى فراشها دون غطاء برغم برودة نوفمبر المبكرة . كان الوهج قد عاد ليشع من جسدها ، ساعدها على ذلك ابتعادها عن شقتها بكل ذكرياتها المشعلة لأحاسيس

الذنب حيث يسرى يكاد يكون سيدا للموقف ، أما فى شقة أبيها فالسيادة المطلقة تكاد تكون لوجدى .

تنقلت بين شرفة غرفتها الصغيرة ونافذتها الضيقة إلى أن بلغت الساعة الخامسة مساء فغسلت وجهها واعتنت بزينتها لعلها ترفع من روحها المعنوية . تعرت أمام المرآة لأول مرة منذ زمن بعيد وهى تسمع صوتا داخلها : لا أحد يعرف أسرار هذا الجسد ومفاتيحه مثل وجدى ! ارتدت بلوزة سوداء وبنطلونا ضيقا من الجينز الأبيض . أعادت النظر إلى وجهها فى المرآة . لم يتخل تماما عن حمرته القابعة على قممه المرمرية ، فى حين لم يفقد شعرها المتناثر حول رقبتها وكتفيها لمعانه الذى يمزج الأصفر الذهبى بالبنى العاجى . كذلك ضمت البلوزة السوداء البركانين الخامدين ووجهتهما إلى صدر كل من ينظر إليهما . أما غمازة وجنتها اليسرى فقد ابتسمت لأجلها خصيصا حتى تزداد عمقا !

كيف لم يحرك كل هذا الجمال المتفجر ساكنا فى يسرى ؟! ثم يهددها ويتوعدها بأنها تستحق ما هو أبشع من القتل ؟! فى خضم خواطرها المضطربة سمعت الدقات الموسيقية لجرس الباب فاندفعت لفتحه فإذ بحلمى أمامها مبتسما ابتسامته الحانية الرقيقة . جذبته من يده وقبلته وانطلقت معه إلى حيث الشرفة . جلسا تحت الخميلة التى تمد أوراقها لتغطى المربعات الخشبية التى تحاكى المشربيات المملوكية العريقة . كانت الشمس قد توارت خلف العمائر الشاهقة لكن ذهبها لا يزال متناثرا فوق قممها ومتسللا من الفراغات بينها . أما الشارع فبدا ضيقا ملتويا كأفعى مبرقشة بألوان السيارات المتعددة المنطلقة التى بدت كاللعب بين أيدى الأطفال يقذفون بها حيثما يشاؤون . تضاحكت مهجة :

ـــ لا تأتى إلا بناء على أمر صادر إليك ؟!
شاركها الدعابة :
ـــ لو وجدت أدنى حد من الترحيب والبشاشة لجئت كل يوم !
ـــ أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك !!
ـــ إطلاقا .. المهم أن يكون وجودى مفيدا .. فأنت تعرفين رأى بابا فىّ !
ـــ مشكلة بابا أنه لا يستمع إلى آراء الآخرين إلا إذا كانت ترديدا صريحا ومباشرا لآرائه !
داعب حلمى زهرة قريبة منه بين حنايا الخميلة :
ـــ مهما كبرنا فى السن والخبرة فنحن فى نظره مجرد أطفال طائشين ! ولن يرى فى رغبتك فى الزواج من وجدى سوى خطوة طائشة مثل زواجى .. فالفقر عنده وصمة لا تقل فى بشاعتها عن الرقص !
ـــ لكنه لن ينتصر هذه المرة إلا فوق جثتى !!
لاحظ حلمى أخته وهى تكاد تمضغ أسنانها . لم تعد تلك القطة المدللة التى تغرى الجميع بمداعبتها عندما تتمسح بهم :
ـــ حبك لوجدى يذكرنى بحب جولييت لروميو مع اختلاف نوعية الحاجز .. كان روميو وجولييت ضحايا العداء المميت بين الأسرتين .. أما فى حالتكما فالفارق الطبقى هو الحاجز الذى يصعب عبوره فى هذا الزمن .. فخلفه من الرواسب النفسية والخلفيات التاريخية والعوائق الاجتماعية والعقبات الاقتصادية ما يقسم الطبقتين إلى كوكبين يسير كل منهما فى فلك منفصل تماما عن الآخر .. أما العداء الساذج الطفولى بين أسرتى روميو وجولييت فيمكن أن ينتهى فى لحظات ! وهذا ما حدث بالفعل أمام جثتيهما !

لاحظ حلمى بصمات الإحباط تضغط بقسوة على وجه أخته وحركات يديها العصبية اللتين ربت عليهما فى حنان مبتسم :

ـــ لا أقول هذا كى أصيبك باليأس وإنما لأبصرك بأبعاد المعركة التى ستخوضينها .. فهى معركة شرسة طويلة .. وربما لا تنتهى بالزواج .. بل يمكن أن تسفر عن وجهها الحقيقى بعده !

نضحت الحيرة على قمم نبرات صوتها المتهدج :

ـــ لا أستطيع أن أتخيل حياتى بدونه !

ـــ هكذا تصورت عندما تزوجت برغم كل العقبات .. وكانت النتيجة كما تعلمين !!

ـــ أتعنى أن وجدى يمكن أن يسلك نفس المسلك ؟!

أشاح حلمى بوجهه تجاه العمائر التى أوشكت على أن تلتحف بسمرة الغروب :

ـــ لا أقصد !! وإنما أوضح لك أنك قررت تسلق جبل شاهق وعليك أن تصعدى بمنتهى القوة وأن تتأكدى من كل صخرة تضعين عليها قدمك ! وفى الوقت نفسه يتحتم على وجدى أن يكون الصخرة الراسية الراسخة التى تقيمين عليها حياتك الجديدة !

عبرت وجه مهجة سحابة من الحزن لم تتنبه لها هى نفسها :

ـــ كما أريد وقوفك معى حتى النهاية !

ـــ هذا ما جئت من أجله خصيصا ! ومع هذا فإن دورى سيظل دورا مساعدا .

ـــ ما هذا الدور المساعد الذى تنوى القيام به ؟!

ذهلا عندما وجدا أباهما وخلفه أمهما يقفان عند مدخل الشرفة . كان يرتدى روبا أزرق فوق بيجاما فى لون السماء وقد تراجعت صفرة وجهه

قليلا . أسرع حلمى مادا يده بالسلام ومحتضنا إياه ثم سلم على أمه قائلا :

ـــ يحسن أن ندخل .. أخاف على بابا من برودة الجو !

لكن الأب عاد إلى عناده الصارم القديم :

ـــ ما الذى ذكرك بنا اليوم ؟!

تجاهل حلمى السؤال ودفع أبويه فى حنان دافق إلى الداخل فاستجابا له وإن كان قلب الأب قد شحن بالتوجس . جلس أربعتهم فى الأنتريه فى مواجهة التليفزيون الذى كان يعرض مشهدا يخنق فيه رجل زوجته فى الفراش وهى تصرخ مختنقة ولا مجيب . أسرعت مهجة إلى إطفاء الجهاز والأب يستجوب ابنه :

ـــ لم تقل لى الدور المساعد الذى تنوى القيام به ؟!

تردد حلمى قليلا لكنه لم يجد فى النهاية بدا من أن يقول :

ـــ طلبتنى مهجة اليوم فى موضوع يتعلق بمستقبلها .. وأرجو أن يتسع له صدرك .. خاصة وأنها أصبحت الآن سيدة ناضجة عركت الحياة كما عركتها الحياة !

تعلق الأب ببقايا السطوة الذاهبة :

ـــ ادخل إلى الموضوع بدون مقدمات !

نظر حلمى إلى أخته فوجدها متحفزة فقرر تنفيذ أمر الأب :

ـــ فى اعتقادى أن من حقها أن تختار شريك حياتها الذى يناسبها سنا وفكرا ومستقبلا !

ـــ أوافقك تماما !

تدفقت ينابيع الفرح فى قلب مهجة فى حين خشى حلمى هذا الانقلاب المفاجىء . كان محقا لأن أباه سد الينابيع بقوله الجاد :

ـــ لكننى أضيف حتمية أن يناسبها اجتماعيا واقتصاديا !

سمع حلمى طلقات الرصاص من قلب نادى الصيد على الأطباق الطائرة فتشيع بجو المعركة وهى تتناثر إلى أشلاء :

ـــ الطبقات الاجتماعية والمستويات الاقتصادية فى صعود وهبوط دائمين . ففقراء اليوم هم أغنياء الأمس .. وأغنياء اليوم هم فقراء الغد وهكذا .. حتى بدون اشتعال ثورة كالثورة الفرنسية !!

نظر الأب إلى الحمام الذبيح الساقط برصاص الصائدين :

ـــ رحم الله يسرى .. كنت أدافع عنك كلما اتهمك بالشيوعية .. لا بد أن تعلم أن مهمتنا هى تثبيت الطبقات الاجتماعية والمستويات الاقتصادية على ما هى عليه .. خاصة وأننا نملك المال والجاه والسطوة !!

ـــ اسمح لى يا بابا أن أقول لك إنه لم ولن يوجد الإنسان الذى يستطيع أن يوقف عجلة الزمن !

تفجرت ينابيع الكراهية القديمة عندما سمعت مهجة أباها وهو يردد أقوال يسرى الذى جعلها صريعة الإحساس بالذنب كل هذه الشهور ، لكنها فضلت الصمت انتظارا للحظة المناسبة لخوض المعركة إلى جوار حلمى . تساءل الأب وهو ينظر إلى سبابته ذات اللون البنى الداكن عند طرفها :

ـــ ما علاقة هذا بمهجة ؟!

ثم هز سبابته محذرا :

ـــ لا تنس أننى توقفت مرغما عن التدخين الذى كان يساعدنى على مد حبال الصبر !

لم يعبأ حلمى بالتهديد :

ــ الموضوع ببساطة أن وجدى زميل مهجة فى الصيدلية أراد أن يتقدم لطلب يدها .. لكن الحرج منعه فطلب وساطتى والتمهيد له !

تحولت مهجة إلى عيون مفتوحة وآذان مصغية عندما وجدت أباها يلتفت إلى أمها متسائلا فى دهشة :

ــ إذاً .. فالمكالمات التليفونية المجهولة لم تكن كاذبة !

لم ترد الأم وإنما نظرت إلى ابنتها محرجة . تذكرت مهجة فى لحظة هبة ويسرى بكل أحاسيس الأيام السوداء وعذابها الذى استمدت منه قوة طاغية للرد على الأب الذى يحاول لى ذراعها التى يظن أنها ضعيفة . أحست بأصداء وجدى فى كلماتها :

ــ عندما قلت لحضرتك إن هذه المكالمات وشاية حقيرة من تخطيط هبة رفضت أن تصدق .. ومع ذلك فإن زواجى من وجدى سيقطع كل ألسنة السوء !

لم يفهم حلمى شيئا من الحوار الدائر لكنه سعد بدخول مهجة الميدان لأن ذخيرته كانت على وشك النفاد . أطلق الأب مدفعيته الثقيلة :

ــ وتتكلمين عن زواجك منه كأنه أمر مفروغ منه ؟!

ــ كيف أصمت فى موضوع سوف يحدد مستقبلى ومصيرى كله ؟!

تبادل الأب نظرة سريعة مع الأم التى لا تزال مؤثرة للصمت :

ــ إذا كنت قد حددت مستقبلك ومصيرك .. فما قيمة رأيى إذاً ؟! هل تريدين مباركتى لهذا الزواج الشاذ على سبيل الديكور ؟!

تلعثمت مهجة لكنها قاومت الحرج :

ــ رأيك على عينى ورأسى .. فحضرتك الخير والبركة ؟!

ــ لا أحب الألفاظ المعسولة .. إذا كان رأيى على عينك ورأسك

كما تقولين .. فلا تفكرى فى مثل هذا الزواج .. وعليك بطرد هذا الأجير الذى تجرأ وطمع فى سيدته !

— إنه ليس أجيرا .. بل من أنبه الصيادلة فى مصر .. وهو الذى أنشأ الصيدلية من الألف إلى الياء .. وأية صيدلية تتمناه .. هذا غير الدول العربية التى يمكن أن يكون فيها لنفسه ثروة طائلة !!

لم يتراجع الأب عن موقفه قيد أنملة :

— فليذهب مشكورا إلى الذين يتمنونه ! لكنه فى الواقع يتمنى ثروتك وميراثك الضخم !!

نطقت الأم لأول مرة بعفوية بالغة :

— منحك الله طول العمر .. فنحن بدونك لا نساوى شيئا !

هز الأب رأسه راضيا مربتا على يد زوجته لكن مهجة لم تشأ أن تنتهى الجلسة بدون حسم :

— يمكنك أن تحرمنى من الميراث إذا كان هذا يرضيك !

— إنك تملكين الصيدلية والشقة والسيارة الفاخرة .. غير حساباتك وأرصدتك فى البنوك .. وهذه ثروة يسعده الاستيلاء عليها كبداية .. أما مسألة حرمانك من الميراث فلا أحب أن أكذب عليك .. فأنا لا أتصور أن تؤول إلى غرباء .. وإن كان زواجك من هذا الولد سيؤدى بها فعلا إلى الغرباء والطامعين !

تذكرت مهجة فى الحال حواره معها قبل زواجها من يسرى :

— إذاً .. حضرتك لم تكن جادا عندما هددتنى بالحرمان من كل شىء إذا تزوجت صديق حلمى الذى كان قد رآنى فى النادى قبل زواجى من يسرى !

عقدت تقطيبة سريعة ما بين حاجبى الأب الباهتين محاولا التذكر ثم

علا صوته بعض الشيء :

ــ لم أكن جادا بالطبع .. بل أردت منك أن تضعى هذا الطامع موضع الاختبار !! وبالفعل كنت على حق كما اعتدت دائما ! فقد جئت بنفسك تعترفين برأيك الذى جانبه الصواب فى مسألة زواجك من ذلك الشاب الفقير المغمور !! وأنا فى الواقع سعيد بتذكيرك لى .. فالماء يكذب الغطاس كما يقولون .. ولا بد من اختيار نواياه الخبيثة .. وستجدين فى النهاية صدق حدسى ونظرتى التى لا تخيب أبداً !

استراحت مهجة بعض الشيء لصدق أبوته وحرصه عليها ، لكن عجلة الزمن كانت قد دارت دورتها ، وأصبحت نتيجة الاختبار الذى يطالب به غير ذات موضوع . فالاختبار يعنى قدرة الإنسان على الاختيار الذى فات أوانه بالنسبة لها . اضطرت إلى الكذب :

ــ لا أخفى عليك .. فقد قلت له إنك تنوى حرمانى من كل شيء .. فما كان منه إلا أن أقسم بأنه لا يريد سوى شخصى فقط .. بل وسيرحل بى إلى بلد عربى ناء كدليل على نيته الصافية المخلصة !

نظر الأب إلى نقوش السجادة الفاخرة الناعمة الوثيرة تحت قدميه كأنه يكلم نفسه :

ــ لا أتصور فراقك .. كما أننى لن أكذب عليك وأقول لك على بركة الله .. فإذا لم يعد فى استطاعتى أن أفرض فليس أقل من أن أرفض .. وبعد ذلك يتحمل كل إنسان نتيجة تصرفاته !

كان الانتصار مريرا مرارة الهزيمة برغم أنها لم تتوقع نتيجة أفضل . تمنت أن تكسب عطف أبيها لعله يلطف من لوعة الشرر المتطاير داخلها :

ــ إننى لا أستطيع العيش بدون رضاك !

تركت الصرامة مكانها ليأس كئيب عندما قال :

— لم يعد فى العمر ما يجعل لرضاى قيمة ! كنت دائما رجلا عمليا .. لا أحب الشعارات الجوفاء أو الألفاظ المعسولة .. فالأعمال والنتائج المادية الملموسة هى مقياسى الوحيد للآخرين والأساس الذى أتحرك عليه لأفعل ما أراه صحيحاً !

— لم نر من وجدى سوى كل خير ومساعدة وإخلاص ! وسيثبت لك بالأعمال والنتائج المادية الملموسة أنه ابن مخلص لك !

نهض الأب فى طريقه إلى غرفة النوم وقد تسلل الإعياء إلى نبراته :

— هذه هى نتيجة تربيتى لأبنائى الذين جاءوا من صلبى .. فما .. يا ترى .. نتيجة هبوط الغرباء علينا كالصقور الجارحة ؟!

اختفى فى غرفة النوم والأم فى أعقابه لا تملك سوى الصمت الكئيب .

— ١٧ —

شىء ما فى أعماق مهجة أكد لها أنها كانت تتمنى أن يتخذ أبوها موقفا أكثر عنادا وصلابة برغم ما قد يترتب عليه من مضاعفات لا يمكن أن تحمد عقباها . لم تشعر بأية بهجة عندما نفذت إرادتها ، بل إن وجدى نفسه عند سماعه لتفاصيل الموقف الذى فتح الطريق لهما على مصراعيه لم يبتهج بما فيه الكفاية لدرجة أنها ظنت أنه يفتعل الابتسامة ويصطنع الفرحة التى انطفأ وميضها فى عينيه . آه .. لو كان الطريق قد فتح لهما فى المرة الأولى ؟! ما كان وقع ما وقع ؟! وما كان ليسرى وجود فى حياتها أو حياتهما ؟! وما تحول إلى بؤرة صديدية فى أعماقها تفرز

الألم والذنب والإحباط ؟! أما وجدى شريك عمرها ومصيرها فلا يمكن أن يعانى نفس المحنة . ذلك أن يسرى لم يكن له وجود حقيقى فى حياته . فلم يدر أى حوار حقيقى — مجرد حوار — بينهما ! وفى المرات التى كان يمر فيها بالصيدلية ، كان يحييه بإيماءة مترفعة من رأسه دون أن ينطق لسانه بتحية عابرة . أما فى حالة ازدحام الصيدلية بالزبائن فلم يكن لوجدى أى وجود بالنسبة ليسرى الذى لم يكن يمكث إلا لدقيقة أو اثنتين . وكانت مهجة تلحظ ما يعتمل داخل وجدى الذى اعتاد الصبر والكتمان . وظل على هذه الحال إلى أن جاءت هبة لتفجر البركان . لذلك كانت مهجة متأكدة أن جحيم الذنب الذى تصلاه ليل نهار لا يمكن أن يقارن بأحاسيس الذنب التى قد تكون عابرة فى حياة وجدى التى زخرت بالإحباط والإذلال والضياع والانتقام بحيث لم يعد فيها ثغرة لإحساس بذنب ! أما يسرى فى النهاية فكان زوجها وشريك فراشها ولقمتها وإن لم يكن شريك عمرها !

كم كانت فرحة الحياة تلهث مع خطواتهما أيام الدراسة التى ذهبت بلا عودة ! كم تدفقت النشوة داخلها لتدغدغ بشرتها وتكهرب مسامها ! كان وجدى يملك كل المفاتيح السحرية لكل هذا العالم الذهبى الذى كان يتحتم عليهما الكفاح من أجله حتى لو طردت من جنة أبيها الذى قال لها أخيرا بمنتهى البساطة إن تهديده لها بالحرمان كان مجرد اختبار للطرف الآخر الذى تنازل عن هدف العمر ببساطة أشد ، تجعلها تشك الآن — والآن فقط — فى أن هدفه كان التضحية بنفسه من أجلها حتى لا يهبط بها من علياء الثراء إلى حضيض الفاقة والعوز . الآن يشرع فى اتخاذ اجراءات الزواج بكل همة ونشاط وبإصرار على أن يكون عقد القران قاصرا على المأذون والشهود احتراما لمشاعر الأسرة ، خاصة وأنه لم يمض

عام بعد على رحيل يسرى . ولولا انطفاء الفرحة فى عينيه لقالت إنه من النوع الذى يقتل القتيل ويسير فى جنازته !

وجد وجدى متعة فائقة فى تنفيذ ما يراه سواء باقتناع مهجة أو بإقناعها قسراً ! فمثلا أصر على قضاء ليلة الزفاف فى فندق « أبى الهول » الذى شهد زفافها الأول ! قاومت قدر طاقتها حتى لا يفتح الماضى فوهته لابتلاعها ، لكنه بلهجة الواثق أكد لها أنه قصد هذا لمحو الذكريات الباهتة الباردة بالوقائع الساخنة الملتهبة ! برغم صقيع ديسمبر ! أما أبو الهول فكانا يلجآن إليه كلما وقفا فى مفترق الطرق ، فليس أقل من جعله شاهدا على الزفاف السعيد . ثم فوجئت به يحجز نفس الغرفة التى لم ينس رقمها منذ أن أخبرته به فى أعقاب زفافها الأول ، ووصفت له كيف أطلا من أعلى طابق على أبى الهول الذى بدت خطوطه مهيبة فى ضوء القمر . لكن هذه ليلة غاب قمرها وكاد معه أن يختفى أبو الهول لولا بعض المصابيح الكهربية المتناثرة والتى يزيد شعاعها الأصفر المتهافت من رهبة المنظر الذى جذب عينيها جذبا لم تستطع مقاومته .

قبلها وجدى قبلة ساخنة طويلة ، لكنها لم تخدرها مثل الأيام الخوالى . رأته بين رموشها غير المنطبقة تماما لأول مرة وهومفتوح العينين تماما وكأنه يراقب ما يجرى لها قلبا وقالبا . تركها فجأة ثم ذهب ليرخى الستار الأبيض الذى غطى الزجاج ، ثم عاد ليحتضنها ويعريها كما ولدتها أمها . لكن لمساته العنيفة الغائرة كانت قد فقدت صدماتها الكهربية المثيرة للقشعريرة ، بل وذكرتها بلمسات يسرى برغم خفتها ورقتها العابرة . بدا وجدى وكأنه يؤدى دورا رسمه لنفسه فى مسرحية محكمة الصنع ! هل استطاع يسرى أن يتسلل إلى داخله كما تربع على عرش خوفها وذنبها من قبل ؟! لا تعرف . لكن الذى تعرفه أن وجود يسرى فى تلك الليلة أقوى

وأعمق وأشمل منه فى الليلة الأولى !

فى ظلام الغرفة المطبق شعرت بالرطوبة المنبعثة مع طراوة جسد يسرى كأنه ثعبان سمكى فقد الحياة بمجرد خروجه من الماء . سيطر عليها إحساس قاتل بالبلل فى حين ظن وجدى أنه بجسده المحمى فى النار قد رفع جسدها فوق ألسنة الرغبة المستعرة . لم يتسلل النوم إلى عينيهـا الآخذتين فى الاتساع فى حين حملها وجدى فوق أجنحة النشوة ليغرقها فى لجتـها التى انحسرت فى لمح البصر عندما تذكرت أنه فى النهاية كل إنسان مسئول عن تصرفاته .

فتحت مهجة عينيها بعد نوم متقطع خفيف يمزج الحلم باليقظة . كان نور الفجر قد تسلل من النافذة الزجاجية العريضة برغم الستار الأبيض الكثيف ، فى حين سمعت وجدى وهو يطلب الإفطار فى التليفون . جلست منتصبة فى فراشها فوجدته جالسا على مقعد وثير أمام السرير وقد مد ساقيه فوق مائدة صغيرة . قالت :

ــ لا أحد يطلب الإفطار فى مثل هذه الساعة المبكرة ؟!

ركز عينيه السوداوين الواسعتين عليها :

ــ هل هذه تحية صباح من عروس إلى عريسها ؟!

ــ سيقولون عنا إننا لم ننزل بفنادق فاخرة من قبل !

زادت عيناه اتساعا :

ــ ماذا تقصدين ؟! شعرت بالجوع فطلبت الطعام ! أليس الجميع هنا فى خدمتى ؟!

تذكرت الأمس عند قدومها إلى الفندق عندما قال لها إنه لا بد أن يتعلم قيادة السيارات ، لأنه لا يصح أن يجلس الزوج إلى جوار زوجته وهى تقود . تذكرت أيضا أنه استولى منها على مصاريف عقد القران والفندق

كما لو كان مفلسا معدما ! وبلا أى حرج !
— لماذا لا تردين ؟!

قالها وفتح الستار الأبيض فبدا أبو الهول رابضا فى نور الفجر برغم الضباب الذى يحيطه بغلالة رمادية كثيفة . قالت وهى تملأ عينيها بالتمثال السابح بين أطياف الضباب :

— تعلمت فى أسرتى شيئا اسمه الإتيكيت !

آه !! أصبحت المسألة مسألة أسرتى وأسرتك . قال :

— لأول مرة أراك معتزة بأسرتك ؟! ماذا جد ؟!

ما هذه الحقائق الرهيبة التى تتكشف أمامها فى لمح البصر وفى تتابع يصعب على عقلها استيعابه ؟ العلاقات الإنسانية داخل الزواج شىء مختلف تماما عنها خارجه ! بل إن الأشخاص أنفسهم يختلفون أو يتعرون لدرجة الاغتراب ! ليس هذا هو وجدى الذى عرفته ! إنه إنسان آخر ، رجل غريب تحاول التعرف عليه من جديد ! ها هى تواجهه لأول مرة ولا تعرف لماذا تحمل أسرتها فوق كتفيها ؟! أسرتها التى كانت مجرد قيد يثقل قدميها ، فأصبحت جبلا تنوء بحمله ولا ترغب فى الوقت نفسه فى التخلص منه !!

— هل فقدت شهيتك للكلام والطعام فى آن واحد ؟!

قاومت شرودها الآسر :

— أبداً !

اتكأ على حافة النافذة بكفيه دون أن ينظر إليها :

— حرصت منذ البداية ألا يكون لأسرتى وجود فى حياتنا .. وهو نفس الوضع الذى أرجوه لأسرتك !

لم تستطع مهجة من أن تمنع حاجبها الأيمن من الارتفاع دهشة :

ــ لا تنس أننا نعيش ونعمل فى منزل أسرتى !

ــ إنك صاحبة الصيدلية .. وشقتك باسمك .. ولذلك لن تكون علاقتنا بأسرتك أقوى من العلاقة التقليدية بين سكان العمارة الواحدة !

كانت ترتدى قميصا من الصوف الأبيض المطرز ومع ذلك شعرت بالعرى لأول مرة فى حياتها . وضعت على كتفيها روبها النبيذى الثقيل ونهضت لتجلس على مقعد صغير أمام مائدة ملتصقة بنهاية الفراش . ضاعت رغبتها فى الاستمرار فى النوم ولم تجد ما تفعله سوى أن ينطق لسانها فى ملل :

ــ قد ينطبق هذا الوضع عليك . أما أنا فلا يمكن أن أقطع علاقتى بأسرتى .. خاصة بعد أن بلغ بابا هذه الدرجة من السن المتقدمة والصحة المتدهورة !

استدار ليقول فى شموخ لم تألفه منه :

ــ هذا شأنك أنت وحدك .. لكننى لن أسمح لأحد بأن يعكر صفو حياتنا ! فكفانى ما نلته من إذلال وخنوع واضطهاد !

ندمت لأنها توغلت معه فى هذه المنطقة المجهولة الخطرة ولم يمض على زواجها سوى ساعات معدودات . فهى أدرى بعقده ورواسبه ، بل ولن تسمح لهذا الزواج بالفشل . فقد حملت مسئوليته وحدها وسوف تثبت للجميع صحة اختيارها . ابتسمت متسائلة :

ــ أين لسانك الذى يقطر عسلا ؟! هل نضب معينه منذ أن عرف بزواجنا ؟!

خجل من تحفزه الذى نضح على حركات وجهه ويديه العصبية :

ــ إنك لم تكلفى نفسك مجرد إلقاء تحية الصباح !

ــ أخشى أن تكون من أنصار الفصل بين الحب والزواج ؟!

— إننى من أنصار الحب المتبادل بين الطرفين وبالقدر نفسه ! أما الحب من طرف واحد فهو من أعراض التخلف العقلى !

— تعلمت على يدك أن الحب أخذ وعطاء .. مثل أية علاقة أخرى من العلاقات الإنسانية !

تهدج صوته وهو يقترب لمواجهتها جالساً :

— منحتك كل شيء .. حتى حياتى عرضتها للخطر لأجلك .. ألا يمنحنى كل هذا حقوقا عليك ؟!

داهمها خطر غامض لكنها تحفظت فى ردها :

— إنها حقوق الزوج على زوجته !

— لا يوجد زوج فعل لزوجته ما فعلته أنا !

لم تحتمل الاستمرار فى تحفظها :

— الحب الحقيقى لا يعرف المن ! ثم إننى لم أجبرك على فعل شيء لم ترغبه ! كان الموضوع كله من تخطيطك وتنفيذك !

ربت على يدها بابتسامة غريبة :

— لم أكن أنا الذى شكوت من التهديد بالقتل ! كل ما فعلته أننى قدمت لك السلاح الذى كان لك الخيار المطلق فى استخدامه أو إلقائه ! إذاً .. كانت الفكرة فكرتك والتنفيذ تنفيذك !

لجأت إلى دهاء لم تكن تعرف أنها تملكه :

— لكن العبقرية عبقريتك ؟!

انتفض نبض الغرور داخله :

— على كل حال .. نحن فى قارب واحد .. ولن ينجو أحدنا إذا حدث به ثقب خاصة بعد أن توغلنا به وسط الأمواج العالية !

أمسكت يده فى محاولة لإعادة فتح ينابيع الحنان داخله :

ـــ أروع ما في زواجنا أن مصيرنا واحد !
مسح يدها بأصابع رقيقة :
ـــ وكل الاعتبارات الأخرى تتضاءل أمام هذه الحقيقة الراسخة !
ـــ طبعا !
واصل زحفه الذى لم تتأكد هى من اتجاهه :
ـــ ولا فرق بين ما أملكه وبين ما تملكينه !
حاولت أن تكبت ذهولها ، فهو لا يملك شيئا :
ـــ أنا ملك يديك ورهن إشارتك !
جذبها من يدها حتى نهضت فأجلسها على حجره :
ـــ وبهذا أكون قد ملكت العالم كله !
غمر وجهها بالقبلات فاستجابت له عندما هب عليها الماضى البعيد بأنفاسه الساخنة . عاد بها إلى الفراش وهو يكاد يعتصرها مرتشفا رحيق شفتيها ولسانها ، ومستبدلا إياه بمخدر سرى فى عروقها وشرايينها مع جيوش النمل التى أفقدتها إحساسها بأطرافها المنتفخة بالنبض الملتهب . نسيت النافذة المفتوحة ، وأبا الهول الرابض ، والمساحات الصفراء الداكنة عند انطباق الأفق ، والضباب الذى يمزج لون الرمال بالسماء ، والشمس التى مدت خطوطها مع خط الأفق ، والسيارات ذات الضجيج البعيد فى انطلاقتها صوب الصحراء . لم تتذكر إلا الأصابع واللمسات الغائرة ، والأنفاس اللاهثة اللافحة ، والارتعاشات التى أحالت الفراش إلى قارب صغير وسط محيط الرغبة الهادر ، لا يعرف لنفسه اتجاها محددا أو ساحلا قريبا . تمنت أن تستمر هذه اللحظات إلى الأبد فتنسى الماضى وما سجله لها ، لكن العاصفة سرعان ما انحسرت وسمعته يقول وهو يغرق صدرها بالقبلات المبتلة باللهب :
ـــ أود أن أمنحك حياتى نفسها !!

قبلت شعره الأشعث الأكرت القصير مع انطباق شفتيه المكتنزتين على قمتى صدرها :

ـــ حياتى بدونك لا وجود لها !

ـــ هل هذا وعد منك بأن أطلب ما أشاء ؟!

خرجت الكلمات متقطعة لكنها واضحة من بين شفتيها المنفرجتين :

ـــ لست فى حاجة إلى مثل هذا السؤال !

ـــ أريدك أن تكتبى الصيدلية باسمى .. فأنا لا أستطيع أن أتصور قضاء عمرى كله أجيرا !

حاولت أن تخرج من الخضم بأسرع ما يمكن :

ـــ ألا يكفيك أنك تملكنى أنا ؟!

ـــ أنت الدنيا كلها .. لكننى سأظل فى نظر الناس أجيرا بدرجة زوج أو زوجا بدرجة أجير !

ربتت على رأسه فى عصبية لم تخف على يقظته المخيفة :

ـــ لا تقل مثل هذا الكلام !

ـــ وعد الحر دين عليه !

حاولت التلطف لكنها لم تفلح :

ـــ ومن قال إننى حرة ؟! إن متعتى فى عبوديتى لك !

ـــ أنت سيدتى وتاج رأسى !

انتزعت الألفاظ الجوفاء من أعماق جوفها :

ـــ لك ما تشاء !

أمطرها بوابل من القبلات ، لكن الاستجابة كانت قد انحسرت حتى كمنت فى قاع سحيق مظلم داخلها . لم تتذكر يسرى هذه المرة فحسب ، بل دقت أذنيها كلمات أبيها الخائفة من طمع الغرباء . إن

كشفه عن خطته بهذه السرعة يدل على أن نهمه لن يتوقف عند حد .
إذاً .. كان يخطط منذ أن تقدم يسرى لطلب يدها فى حين أنه ادعى التضحية بهنائه وسعادته حتى لا يفتح عليها أبواب الجحيم الذى فضل أن يصلاه وحده ، أما هى فلم تعتد الفقر وأهواله !! ثم مد خطته لتشمل هبة ، لكن تلك الليلة الفاصلة وأدت الخطة فى مهدها . فاتجه نحو يسرى ملتقطا منها الخيط الذى ألقته إليه بلا وعى منها ، وكان من الممكن أن يكون تهديد يسرى مجرد كلمات وليدة الغضب والقهر ، فهى لم تر منه القدرة على المواقف العنيفة معها ، فكيف يصل به الأمر إلى مواقف دموية وهو الذى يحرص على نجاح مستقبله فى دنيا الأعمال حرص الأم على سلامة وحيدها ؟! وعندما نجح فى التخلص من يسرى اتجه إليها فاستولى عليها بالزواج تمهيداللاستيلاء على كل ما تملك ! لقد تأكدت أخيرا أنه سعى إليها قنصا لثروتها وليس إشباعا لرغبتها وعشقا لجمالها ! والدليل على ذلك زميلتها الفقيرة التى أحبته فى السنة الأولى بالكلية فسخر منها كأنها ارتكبت جريمة فى حقه .

فى لحظات كومضات البرق فى سماء مدلهمة بالسحاب والضباب ، كشفت الصورة الغامضة عن ملامحها المرعبة . شعرت بالأذرع والسيقان المحيطة بجسدها وكأنها أخطبوط لن يتركها إلا جثة هامدة ، فى حين تلوى جسده حولها وفوقها كحية رقطاء وقد فتحت فكيها لالتهام كل ما يأتى فى طريقها .

شعر بقشعريرة باردة تسرى فى جسدها الممدد فتخلى عنه . استلقى إلى جانبها وقد غطى جسدها بملاءة بيضاء فبدا كجثث المشرحة . تأمل وجهها الصامت المتجه إلى السقف فخاف أن تكون لسعة الندم على قرارها السريع :

— تصورى أننا لم نفكر فى برنامج لقضاء شهر العسل ؟!
استدارت برأسها وخرج صوتها هادئا بطريقة لم يسترح لها :
— ما مشروعاتك بخصوصه ؟!
لم يستطع الاستمرار فى التركيز على عينيها . استدار متظاهرا بتأمل أبى الهول :
— لا تهمنى هذه الشكليات التقليدية .. شهر العسل يوجد حيث أجدك !

ابتسمت فى مجاملة وهى تربت على خده . من الآن فصاعدا سيحل الدهاء محل الرغبة . ولا غرو فى ذلك فهى تلميذته . كانت رغبته رهن إرادته دائما ، أما هى فكانت إرادتها رهن رغبتها ولذلك كانت ريشة فى مهب الرياح التى كان يثير زوابعها حولها كلما أراد . الآن ستمسك بدفة قاربها وستوجهه حيث تشاء ، ولن تقف فى طريقها عقبة حتى لو كانت من صنعه . لا شك فى صدقه عندما حذرها من ثقب القارب ، فلا بد أنه قرر الاستيلاء على القارب بما فيه . ولذلك كان على يسرى أن يدفع حياته ثمنا لركوبه نفس القارب .

كان يتابعها بنظرات متفحصة تحاول قراءة أفكارها ، فقالت له بحزم حاولت إخفاء نبراته :
— إننا فى عنفوان الشتاء .. وأوروبا الآن لا تصلح لشهر العسل !! ولذلك أفضل الأقصر وأسوان !
— وأنا أفضلهما أيضا توفيرا للنفقات !
— لم تعد السياحة فى مصر رخيصة كما تتصور !
— إذًا .. نقضى شهر العسل فى صيدليتنا العزيزة .. فنحن فى أشد الحاجة لتوفير مثل هذه النفقات !

أدركت الآن أن كل جملة ينطقها تخفى وراءها خطة مثلما تختفى الأفاعى خلف الأحجار :

ــ وهل استجدت هذه الحاجة ؟!

ــ يبدو أنك نسيت مشروعاتنا القديمة ؟!

ــ لم أعد أتذكر شيئا ؟!

ــ أنسيت مشروع إنشاء مكتب استيراد الأدوية وتوكيلاتها ؟!

ــ ومتى ستبدأ هذا المشروع ؟!

ــ لقد بدأته بالفعل .. ففى الشهور الماضية قمت بمراسلة بعض شركات الأدوية فى سويسرا وفرنسا وإنجلترا .. بعد أن حصرت الشركات التى لا تملك توكيلات فى مصر .. وحصلت بالفعل على موافقة مبدئية من شركتين سويسريتين وعندما تتجمع لدى أربع أو خمس موافقات .. سأسافر لإتمام الإجراءات !

نظرت إليه كما لو كان غريبا تراه لأول مرة :

ــ كل هذا بدون علمى ؟!

ــ لم أشأ أن أزعجك !

سألته فى دلال لم يلحظ افتعاله :

ــ وهل سأكون فى صحبتك عندما تسافر ؟!

ربت على يدها فى حنان أكثر افتعالا :

ــ اتفقنا على توفير النفقات !! كما أننى لن أسافر للسياحة .. بل فى مهمة عمل تتصل بمستقبلنا .. وأيضا لا نستطيع إغلاق الصيدلية بعد أن جذبنا هذا العدد الضخم من الزبائن !

غلف الحرص كل نبرة فى ألفاظها :

ــ وهل وجدت مكانا يصلح لمثل هذا المكتب الذى لا بد أن يحتاج

إلى مخزن ضخم وعمال وسيارات للتوزيع ؟!

ــ اعتدت أن أتخذ كل خطوة عندما يحين حينها .. فليس من المعقول أن أفتح مكتبا ومخزنا قبل الحصول على التوكيلات !

لاحظت مهجة لأول مرة أنه يتكلم عن نفسه بصرف النظر عنها تماما . تذكرت أيضا أن عدم إصراره على الزواج منها عندما طلب يسرى يدها ، كان نتيجة لاعتقاده أنه خطوة لم يحن حينها بعد . لكنها ابتسمت فى دهاء مثير لها شخصيا :

ــ على كل حال .. يمكننا اقتطاع جزء من الجراج للمخزن !!

ــ ربت على يدها مرة أخرى فى سعادة طاغية :

ــ كل هذه أمور بسيطة يمكن حسمها فيما بعد !

لم تعرف مهجة لماذا سعدت بهذا الحوار المخيف ؟! ربما لأنها اكتشفت أن كل ما فعله كان مخططا منذ البداية . ولذلك فهو قاتل يسرى وإن أوحى إليها بغير ذلك . انحسرت موجات الإحساس بالذنب داخلها ، فهى لم تكن سوى السلاح الذى استخدمه فى القضاء عليه !! وهل حكمت محكمة فى يوم من الأيام بالإعدام على مسدس أو بندقية أو سكين أو مطواة أو زجاجة سم لاشتراكها فى قتل إنسان ؟! سعدت أيما سعادة لهذا الخاطر ، فدورها فى الجريمة لم يتعد دور هذه الأدوات ، أما المجرم الحقيقى فهو الذى استخدمها . وها هو الآن يجلس أمامها متعجبا لشرودها !

بحثت عن كلمات سريعة تملأ بها فراغ السكون الذى امتد قليلا ، لكن دقات رقيقة على الباب وفرت عليها عناء البحث عندما قال وجدى بصوت عال فيه كثير من التعالى الآمر :

ــ أدخل !

فتح الباب ودخل النادل دافعا أمامه عربة معدنية ذات رفين زجاجين عليهما أطباق المربى والزبد والجبن والبيض والتوست وإبريق كبير للشاى وآخر صغير للبن ، وطبق لقوالب صغيرة ملفوفة فى ورق استنتج وجدى أنها سكر جعل لعابه يسيل داخل فمه .

انحنى النادل فى رقة وحمل المائدة الصغيرة بينهما بعيدا فى ركن قصى ثم دفع العربة لتحتل مكانها ، ثم انحنى مرة أخرى دون أن يتحرك فنظر إليه وجدى فى دهشة تصل إلى حد الاستنكار ، لكن مهجة ابتسمت له ابتسامة ضايقت وجدى بعذوبتها المفرطة وهى تقول للنادل :

— مرسى ..

ضاعف النادل من انحناءته ثم استدار وانصرف مغلقا الباب خلفه دون صوت . ساد السكون لكن وجدى قطعه بانهماكه فى إلتهام معظم محتويات العربة دون أن يعبأ باستخدام الشوكة والسكين . كانت مهجة جائعة لكنها لم تجد أية شهية للطعام . خافت أن تظل بلا إفطار فمدت ملعقة تناولت بها بعض المربى التى تعشقها ، لكنها سرعان ما توقفت . كان طعم العسل فى فمها كأنه السم !

— ١٨ —

كم تمنت مهجة أن تثبت لها الأيام خطأ ظنونها !! لكن الأوهام أصبحت حقيقة راسخة رابضة فوق أنفاسها كأبى الهول تماما !! كانت

كل حركة ، كل خطوة ، كل كلمة ، كل نظرة منه تؤكد لها ما ظنته أوهام الشيخوخة عند أبيها . ظل يلح عليها بل ويطاردها لتسجل الصيدلية باسمه بحجة أنه لا يستطيع التفاوض حول التوكيلات المقبلة دون أن يكون صاحب صيدلية . وبعد شد وجذب عنيفين رضخت على مضض ، لكنها اعتبرت هزيمتها غير ساحقة لأنها أشركته معها مناصفة .

وعندما سألت أباها عن إمكان الحصول على توكيلات دون افتتاح مكتب رسمى معتمد ، أكد لها أن الشركات الأجنبية المحترمة لا تسلم اسمها وسمعتها وإنتاجها لكل من هب ودب . لكن مهجة لم تفاتح وجدى فيما دار بينها وبين أبيها الذى أصبحت تستنير برأيه فى كل كبيرة وصغيرة ، مما أثلج صدره وخفف من تحيزه ضد وجدى . ففى أثناء زواجها من يسرى لم يكن يراها إلا لماماً ، ولم تبح إليه بأى سر .

أما اللغز الذى حير مهجة أن وجدى شجعها على زيارة أسرتها يوميا ، وأبدى سعادته الغامرة بالتئام شمل العائلة مرة أخرى ، بعد أن كانت تظن أنه سيجهز على البقية الباقية من علاقاتها العائلية . كان دائم السؤال عن أبيها وأمها دون السؤال عما دار بينهم فى غيبته . فى ظروف أخرى كان يمكن أن تقدر هذا السلوك الإنسانى الزاخر بالحب والحنان والقلب الكبير ، لكنها قررت ألا تلدغ من الجحر نفسه مرة أخرى ! بل إنها لم تعد تفرق بين صورة وجدى فى ذهنها وصورة الأفعى المضاءة بالأحمر والملتفة حول الكأس تقطر فيها سمها ، لتفصل بين كلمة « صيدلية » وكلمة « الحياة » فوق اللافتة الضخمة العالية .

إن طموحه لا حد له ! وقد أكد لها مراراً من قبل أنه سيكتسح كل من

يحاول إعاقته ! أصبح يتصرف بلا أى إحساس بالذنب ، أما هى فلم تنس يسرى وخاصة كلما خلت إلى نفسها فى الفراش ! طلبت منه تغيير غرفة النوم أثاثا وموقعا حتى تهرب من الذكرى القديمة ، لكنه أوضح لها باستهانة بالغة أنها مجرد أوهام لا يصح أن تشغل بالها بها ! لكنه بهذا منح يسرى فرصة محاصرة رغبتها الملتهبة بجبال وتلال من الجليد ، وهى الرباط الوحيد الذى كان يشدها إليه . كم تساءلت : هل يمكن أن ينتقم الأموات من الأحياء ؟ أم أن الأحياء هم الذين يمنحونهم مثل هذه الفرصة ؟! هل تطالب روح يسرى بالثأر ؟! وكيف يمكن أن يتم هذا ؟!

ذات ليلة تراجع يسرى إلى أغوار عقلها الباطن ، فاشتعلت رغبتها . اقتربت من وجدى فى الفراش حتى إلتصقت به ، لكنها فوجئت به جثة لا حراك فيها ، وبعد لحظات بدأت الجثة فى حركات خفيفة تؤكد الرغبة فى الابتعاد برغم برودة ليالى الشتاء .لعنت كبرياؤها رغبتها ! يظن أنه يستطيع إذلالها حتى ينتهى بها الأمر إلى الاستجداء ؟! تمردت رغبتها فاستعانت عليها بيسرى الذى طرحها أرضاً تحت قدميها فنأت عنه حتى حافة الفراش ، ولعنت اليوم الذى ارتبط فيه مصيرها بهذه الأفعى التى تلتف حولها يوما بعد يوم لاعتصار ما تبقى داخلها من حياة !

فجأة تراقص سؤال أمام عينيها المفتوحتين فى ظلام الغرفة المطبق : إنها الآن تعرف تفاصيل كل ذكريات الماضى مع يسرى ، فهل تتبين بنفس اليقين ملامح كل احتمالات المستقبل مع وجدى ؟! أو حتى بعضها ؟! الشىء الوحيد الذى يحيل الاحتمالات إلى حقائق يؤكد لها أن المستقبل معه مظلم ظلام هذه الغرفة الساكنة سكون المقابر لولا أنفاسه المترددة التى تصل أحيانا إلى حد الشخير . إنه لن يكتفى بابتلاعها بل يبدو أن شهيته أصبحت مفتوحة لأسرتها كلها ! خاصة بعد أن بلغ أبوها حدا من

الصحة المتدهورة لا يمكنه من استخدام جبروته القديم ! أما أمها فقد عاشت طوال حياتها لا تعرف شيئا فى هذه الدنيا سوى أن تكون ظلا تابعا له حيثما سار أو تكلم أو ضحك أو حزن ! فى حين أن أخوها الشاعر البوهيمى الهائم العاشق لكل القيم التى داسها البشر ، لا يمكن أن يواجه أفعى تقطر سما !

سرت رعشة الرعب فى عروق مهجة عندما قلبت احتمالات المستقبل على كل وجوهها الممكنة ، لكنها دهشت مع تسلل خيوط الفجر من خصاص النافذة عندما غمرها برد الراحة بتراجع ذكريات الماضى أمام احتمالات المستقبل التى يجب أن تكون شغلها الشاغل ! لقد مات يسرى ورحل إلى حال سبيله وانتهى الأمر ، فالماضى لا يمكن أن يعود ولو للحظة واحدة . أما المستقبل فلا يحمل تهديدا لها فحسب ، بل لكل الذين تحبهم ولكل الذى كافحوا من أجله ، وهى التى فتحت عليهم أبواب الجحيم بيديها . فهل يعقل أن تنتظر حتى يقضى عليهم جميعا أمام عينيها ؟! كم قال لها وجدى إنها فى حالة دفاع شرعى عن النفس عندما أنذرها يسرى بأنها تستحق ما هو أبشع من القتل ؟! وها هى الآن فى حالة دفاع حقيقى ليس عن نفسها فحسب بل عن الآخرين الذين أدركت أخيرا كم تنتمى إليهم وكم تحبهم !!

لكن كيف ؟! كيف يتم هذا ؟! أصبحت رغبتها محرقة فى الانتقام ليسرى ولتوريطها فى مقتله حتى تظل العمر كله تحت رحمته ! لكن كيف ؟! لن تترك أسرتها الحبيبة فى مهب رياحه المسمومة ! لكن ما السبيل إلى هذا ؟! هل تبلغ السلطات ؟! إنه لن يستسلم لهذا وربما جرفها إلى فضيحة مرعبة يستعين فيها بدهائه كى يخرج منها كالشعرة من العجين ؟! ثم ينفرد بعد ذلك بأسرتها ! هل يمكن أن تضحى بنفسها

وتقتله ؟! إنه لا يستحق أن تذهب ضحية له ! آه من ذكريات الماضى معه ! كانت زادها كلما ضاقت بها رغبتها ، والآن أصبحت فى رعبها ويأسها أبشع من ذكرياتها مع يسرى ! هل أصبح الإجرام يسرى فى عروقها مسرى الدماء لدرجة أنها تفكر فى قتله بهذه البساطة ؟! لا .. ما سوف تقدم عليه ليس بجريمة وإنما محاولة مخلصة لإعادة الحياة إلى مجراها الصحيح ! وليس هناك على وجه هذه الأرض من يمكنه القيام بها سواها ! فعلا .. إن ارتباطها به ارتباط مصير ! لكن كيف ؟!

فجأة مع أشعة الشمس الباهتة الباردة المتلصصة من خصاص النافذة عبرت عقلها فكرة كشهاب ارتطم بغلاف الأرض ! لكن الفكرة لم تتحطم أو تحترق بل أوشكت على إحراق مخها ! إنها الزجاجة التى لا تزال تقبع فى الدرج السحرى فى قاع دولابها ، والتى لا تزال تحتفظ بنصف المستحضر الذى قضى على يسرى ! لقد قام بتركيب المستحضر بطريقة قوية حادة لا يمكن ليسرى أن ينجو منها وهى التى كانت تتمنى ألا يتسبب نصف الكمية فى قضائه المحتوم !

إذاً .. فليشرب من نفس الكأس التى سقاها ليسرى ! ويبدو أن الهاجس الذى أوحى إليها باستخدام نصف الزجاجة ، كان صادرا عن قوة مصيرية غامضة ربطت مصير يسرى بوجدى !؟ لقد قرر بنفسه السفر إلى سويسرا فى نهاية هذا الأسبوع بهدف الحصول على التوكيلات على حد قوله ! فليعد من سويسرا كما عاد يسرى من إنجلترا ! إنها مهمة مرعبة قاتمة ، لكن لا بد مما ليس منه بد ! فليس هناك خيار ثالث ! تماما كما أوهمها فى موقفها من يسرى !

سرت داخلها رعشة كهربية أوحت إليها بالتراجع لكنها كانت قد عقدت العزم على مواجهة مصيرها معه ! كانت فى صباها لا تحتمل

منظر الطباخ وهو يذبح دجاجة والآن تتورط فى قتل ثانى ضحاياها ؟!
لا ..بل هى التى ضحيته ! فهو الذى ورطها وسار بها فى طريق لا رجعة فيه ولا عودة منه ! ما هذه القوة الخفية التى تدفع الإنسان إلى القيام بأعمال يعرف فى قرارة نفسه أنه لا يرضى عنها ؟! إن القدر يتربص بكل البشر واثقا من عجزهم عن الهرب منه فى النهاية ، لكن من يجرؤ منهم على الاقتراب من عجلته التى لا تتوقف ، فلا بد أن يعجل بنهايته ! ولقد اقترب منها وجدى يوم دفعها إلى دس السم الخفى ليسرى ، ولا يزال يقترب منها بتصرفاته المتتابعة معها ! لكنها دارت معه أيضا مدفوعة بنار الرغبة المتأججة داخلها ، وبالخوف من مصير أبشع من القتل . إذاً .. فالقدر ولد معها ، وإذا حاولت تتبع سلسلة الأسباب والنتائج فإنها يمكن أن تصل إلى بداية البشرية !

آه لرأسها التى تكاد تنفجر من الصداع والضياع ! إنه لا يزال يغط فى نومه بأنفاسه التى تذكرها بوقائع يقشعر لها بدنها الذى فقد شبقه للحياة . فى ضوء الشمس الذى أعلن عن مولد صباح جديد رأت الدولاب ذا الدرج السحرى الذى يخفى زجاجة الموت ! إنها من صنع يديه ، وكثيرا ما قالت أمها إن طباخ السم لا بد أن يتذوقه ! لم يعد الصداع يفارق رأسها . بل إن عروق فوديها قد نفرت وعلى وشك أن تنتفض بعيدا . وكثيرا ما شكت له من دقات رأسها المتتابعة ، لكنه كان يقول لها باستهانة سعيدة إنها يجب أن تتخلص من حساسيتها المفرطة !

شعرت به يتحرك فتناومت . نهض منتشعا . رأته من بين جفونها شبه المنطبقة وهو يميل عليها سعيدا . ظنت أنه سيقبلها لكنه مسح وجهها بيديه اللتين امتدتا إلى عنقها لتدلكها . تلاحقت أنفاسها حتى كادت أن تعجز عن إالتقاطها ، فانتفضت كأنها تتقلب فى نومها وأدارت له ظهرها

الذى تقلصت عضلاته رعبا . هل يمكن أن يكون قد قرر خنقها ؟! لكنه ليس بهذه السذاجة ! ما الذى دفعه إلى مثل هذه الحركات الغريبة التى لم تألفها منه من قبل ؟! عجيب أمره ! تركها بمجرد أن انتفضت واستدارت ، ليمارس حركاته الرياضية المعتادة كل صباح أمام الفراش ، ثم يخرج مطلقا صفيرا جزلا لأغنية شعبية تعلمها منذ صباه فى قريته « أبى رواش » . فى أيام الدراسة كانت مدمنة لهذا الصفير ، لكنها الآن لا تحتمل شحناته المتدفقة بالكآبة والحزن .

قررت أن تستمر فى تناومها لتتركه على سجيته . دخل الحمام فلم يطغ خرير الماء الساخن على صفيره . ضغطت بالوسادة على أذنيها لكنه لا يزال يطن فيهما . خرج من الحمام ليدخل المطبخ فعرفت من صوت المضغ والإرتشاف أنه يتناول إفطاره بنفس شهيته المفتوحة التى زادت من وزنه فى حين أصابها الهزال الذى لاحظه الجميع فى الآونة الأخيرة .

عاد إلى غرفة النوم فتخلص من البيجاما وارتدى الحلة الرمادية الأنيقة التى اشتراها أخيرا . سرت رائحة العطر الذى استخدمه والذى أصبح يزكم أنفها ، فهو عطر يسرى ! اشتراه خصيصا كما لو كان عامدا لمحاصرتها بأشباحه !

نادى عليها بصوت غير خفيض فلم تتحرك ! رفع عقيرته بالنداء فلم تستجب ! هز كتفها فادعت بحركاتها استغراقها العميق . لم يقل شيئا بل تسلل وسمعت صوت إغلاق باب الشقة ، وبعد لحظات سمعت الباب الصاج الخارجى للصيدلية وهو يفتح بضجة ردد صداها سكون ذلك الصباح البارد . نهضت من فراشها وصوت فى داخلها يقول :

ـــ لقد استحوذ عليه جنون الامتلاك حتى كاد أن يقضى عليه !

في ليلة سفره قررت أن تتناول عشاءها الأخير معه حتى لا تثير أية شبهة . لم تكن منتظمة فى تناول العشاء لكنها حرصت هذه المرة على متابعة خطتها خطوة خطوة . وكان دهشتها واضحة عندما أصر بدوره على مشاركتها له . كانت عذوبته المفاجئة قد حركت داخلها إحساس جديد بالذنب غير ذلك الذى ألفته مع يسرى . فقد دست له المستحضر الرهيب فى صلصة اللحم الذى يعشقه على مائدة العشاء اليومية ، ولم تعد لديها أية فرصة للتراجع . دعابها بالملامسة والملاطفة فأعاد إلى ذهنها أطياف الماضى الذى أصبح سحيقا . وعندما وجدها منفعلة لسفره ، لدرجة أنها لم تتناول ملعقة واحدة من كوب الزبادى التى أحضرها لها خصيصا ، شرع فى إطعامها بالملعقة فى حنان دافق حتى أتت على كل ما فى الكوب وهى تتمنى أن تقفز بطبق اللحم بعيدا ! فهل يعقل أن تقابل حنانه بسمها ؟

لكن هل يعقل أيضا أن يفاجأ بها وهى تختطف الطبق دون سبب لا بد أن يعرفه ؟! لماذا تضع الخطط التى تؤرقها ليل نهار وعندما تنفذها يلسعها الندم بسياطه ؟! وإذا لم تنفذها فالنتيجة هى نفسها ! هل كتب عليها الاعتصار بين شقى الرحى : شق الندم على الماضى وشق الخوف من المستقبل ؟! ساعدها وجدى على الخروج من هذه الدوامة بأن أتى على كل ما فى الطبق ، وانتهى الأمر . لاحظ شرودها :

— لن أتأخر يا حبيبتى أكثر من أيام معدودة .. لولا رغبتنا فى التوفير لكنت قد اصطحبتك معى !

حاولت تنظيم أفكارها فى سلسلة متسقة :

ــ إننى حريصة على استمرار فتح الصيدلية فى غيابك .. مثلك تماما !

ــ وستأتى الأيام التى نستطيع أن نقضى فيها شهور عسل .. لا مجرد شهر واحد .. وسأطوف بك العالم كله .. وسنرى كل الأماكن التى سمعنا عنها وحلمنا بها !!

لم تستطع أن تخفى كآبتها المرة :

ــ زرت كل هذه الأماكن مع بابا وماما من قبل !

هبطت به من عليائه بعد أن ذكرته بالفارق بين أسرتيهما، لكنه لم يتخل عن سعة صدره التى تحلى بها فى الأيام الأخيرة والتى أدهشتها :

ــ ومع ذلك فإن زيارة هذه الأماكن معى لا بد أن يكون لها مذاق خاص !

صمتت عندما واجه تعاليها بغروره . فقدت الكلمات والأشياء والمعانى والأفكار جدواها . لم تعد متأكدة من أى شىء ، حتى من نفسها .

لأول مرة تساوت الحياة مع العدم داخلها . تسربت شهوة الحياة من بين أصابعها برغم حرصها عليها حرص البخيل على ثروته ، إذ يبدو لها الآن أن خير أسلوب للاستمتاع بالحياة هو فى التفريط فيها . ومع ذلك فهى لا تعرف إذا كانت قد حرصت عليها أم فرطت فيها ؟! كما أنها لا تعرف إذا كان ما فعلته منذ لحظات يدخل فى باب الإجرام أم الانتقام أم الخوف أم اليأس ؟! إنه لا يعرف أيضا ما سيقع له بعد يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير ! وهى لم تفعل شيئا سوى أنها سقته مما صنعته يداه ! ومع ذلك فهى تسمع داخلها دبيب جحافل الندم والإحساس بالذنب .

ــ هل ستفتقدينى فى غيابى ؟!

انتزعها السؤال المباشر من شرودها الطاغى فحاولت التخلص منه :
ــ تتكلم كما لو لم تكن علاقتنا علاقة مصير ؟!

ارتعش جفنه الأيسر فانطبقت رموشه للحظة ثم خرج صوته من الأعماق لدرجة أن ارتعاشة جفنه انتقلت إلى قلبها الذى شك فى أن يكون قد عرف شيئا :

ــ أحيانا نستخدم ألفاظا كبيرة دون إدراك لمعانيها وأبعادها !

قالها وجدى وهو ينظر إلى كوب الزبادى الفارغة فى حين ردت مهجة وعينيها على طبق اللحم الفارغ :

ــ هل تعتبر كلمة « المصير » لفظة أكبر مما يربط بيننا ؟!

ــ لا أحب الكلمات المرتبطة بالقدر والموت .. فالمستقبل أمامنا عريض وطويل !.أليس كذلك ؟!

نظرت إليه فى توجس وخيفة ثم لجأت إلى الصمت . لكنه فاجأها بسؤال لم يخطر لها على بال :

ــ هل تعتقدين أن الكراهية يمكن أن تربط اثنين برباط أقوى من الحب نفسه ؟!

حاولت الخروج من هذه المنطقة الوعرة الشائكة المظلمة :
ــ لا أعرف !.. لكن لماذا هذا السؤال ؟!
أشاح بوجهه بعيدا عن كوب الزبادى الفارغ :
ــ أبداً .. أريد أن أثرثر معك فى أى موضوع .. فأنا لا أتخيل سفرى بدونك !

ــ إنها مجرد فترة قصيرة .. وسرعان ما تعود !
نهض ونظراته المتفحصة لملامحها تقول :
ــ ليست لدى ما أتمناه غير ذلك !

خرجت كلماتها ونظراتها تتحاشى وجهه المكتسى بغموض غريب :
— فلتنم مبكرا .. ستطير الطائرة فى السادسة صباحا !
قبلها فى وجنتها فشعرت بارتعاشة شفتيه :
— تصبحين على خير !
— وأنت من أهله !

فى تلك الليلة لم يغمض لمهجة جفن . كانت دقات الصداع فى رأسها قد بلغت من الحدة درجة أضاعت كل مفعول للمهدئات والمسكنات . فإذا لم تأت السكينة من القلب ، فإنها لا يمكن أن تأتى من حبة أو قرص ! أخيرا تذكرت أن الدموع خير ملجأ فتركت لنفسها العنان فى صمت حتى أغرقت الوسادة . لم تشعر بأية رغبة فى الاقتراب منه فى الفراش ، لكنها لم تقاوم دهشتها عندما أدار ظهره لها واعتصم بحافة السرير برغم أنه أكد لها أنه لا يتخيل رحيله بدونها . لكنه لا يعلم أنه سيرحل بمفرده كما قرر السفر وحده إلى سويسرا !

شعرت به وهو يتململ فى نومه ويبدو أنه كان مستيقظا مثلها تماما . لكنها لم تحاول أن تتأكد . يقولون إن الإنسان الذى دنا أجله يمر بمشاعر غامضة توحى له بذلك ، فهل يمر هو الآن بهذه المرحلة ولذلك جفا النوم عينيه ؟! لا فائدة من التفكير ، فهى لا تستطيع أن تجزم بشىء !

دق جرس المنبه معلنا الرابعة صباحا فنهض كلاهما فى اللحظة ذاتها ، أعلنت العيون عن أرق عميق واحمرار محاط بهالات داكنة . تذكرت مهجة يوم رحيل يسرى فى الفجر أيضا . داهمتها أحاسيس مبكرة بالانهيار التام لكنها تماسكت ، فإنها تستطيع أن تنهار ما شاء لها الانهيار بعد رحيله . انهمك كلاهما فى إعداد الحقائب . سمعت مهجة دقات خفيفة على الباب فأسرعت لفتحه لتجد أمها وأخاها قد جاءا فى

وداع وجدى الذى سعد بهذا الحب الآخذ فى النمو ، خاصة وأنه علم من مهجة أنهما لم يودعا يسرى من قبل ، ربما لأسفاره العديدة . ومع ذلك فقد حصل على امتياز لم يحظ به يسرى الغنى الأرستقراطى الوسيم . والفضل فى ذلك يرجع إلى حلمى المشتعل حماسا له ، والمؤمن بأن حبه لأخته لا يقل عن حب روميو لجولييت .

وضع حلمى الحقيبتين فى حقيبة سيارة مهجة ثم جلس إلى عجلة القيادة وإلى جواره أمه ، فى حين قبعت مهجة فى المقعد الخلفى إلى جوار وجدى . لم يستطع حلمى أن يمارس هوايته فى القيادة المجنونة . فعلى الرغم من أضواء الكشافين الكبيرين ، فإن الصقيع والضباب تحالفا مع الفجر على الرؤية التى أوشكت أن تكون معتمة .

اخترقت السيارة فى صمت رهيب شارع نادى الصيد حتى بلغت بداية كوبرى أكتوبر الذى امتطته لتشقه حتى ميدان رمسيس فى حين لم يستطع كل منهما أن يختلس النظر إلى الآخر حتى شقت السيارة قلب مصر الجديدة فإذ بالسكون المطبق على الشوارع الخالية قد أحال الضجيج داخلهما إلى صخب هادر لم تحتمله مهجة فانهمرت دموعها مصحوبة بنشيج عال . استدارت الأم فى دهشة فى حين ربت وجدى على كتفيها . كانت الأم على وشك أن تفتح فمها فإذ بوجدى هو الآخر ينفجر باكيا . عندئذ استدار حلمى مطمئنا إلى خلو الشارع أمامه :

ـــ لم أكن أعرف أن فى زماننا حبا من هذا النوع !! أخاف عليكما من أن أحسدكما !

تدخلت الأم دون أن تخفى اشمئناطها :

ـــ لستم صغارا كى تسلكوا هكذا ! ألم تسمعى أباك مرارا وهو يقول إن التحكم فى المشاعر هو الدليل الملموس على النضج ؟!

قال حلمى لأمه بنبرات زاخرة بالانفعال :

ــ ما أروع أن يترك الإنسان نفسه على سجيتها فتتألق فى أصدق صورها !! إن كل أمراض العصر الحديث كانت نتيجة مباشرة للفصام الحاد بين المظهر والجوهر مما أجبر الإنسان على أن يعيش حياتين فى وقت واحد .. هناك من البشر من ينضح قلبهم بالحقد الأسود .. فى حين لا ينم سلوكهم إلا عن أسمى آيات الحب !!

اكتشف حلمى أن مهجة ووجدى توقفا عن البكاء فى أثناء حديثه الذى تدفق فى عفوية بالغة . نظر خلفه للحظة فوجدهما يمسحان بقايا الدموع فيما يشبه الحرج والشرود . قال لأمه مداعبا :

ــ لقد قطعت عليهما أصدق لحظات عمرهما ! فالتنفيس الصادق عن المكبوت خير علاج نفسى لإنسان العصر الحديث .. أما الكبت المستمر فلا بد أن يؤدى إلى الانفجار فى النهاية .. وربما انفجار صاحبه نفسه !

كانت الأم تتابع الطريق الخالى إلا من سيارات مسرعة نحو المطار ، بينما انقشع الضباب مع أنوار الصباح الباكر المتلصصة خلفه . قالت الأم :

ــ لم تعد مراهقا يا حلمى حتى تقول مثل هذا الكلام !!

ــ إذا كانت هذه هى المراهقة فإننى أتمنى أن يديمها الله علىَّ العمر كله !

لم يعجب الأم رأيه فعادت إلى متابعة الطريق وتركتهم للصمت الذى أطبق على السيارة باستثناء حفيف إطاراتها وأنين محركها المنتظم . بحث عن كلمات يملأ بها فراغ السكون وعندما أعياه البحث أدار مفتاح المسجل فصدح بموسيقى متدفقة كموج البحر عندما يغسل ساحله من

كل ما علق به . تذكرت مهجة أنها لم تستخدم مسجل سيارتها منذ تخرجها . كانت هذه القطعة الموسيقية قادرة على حملها فوق السحاب والطيران بها فوق البحار والجبال والتلال والوديان ، أما الآن فهى لا تثير داخلها سوى دفقات متجددة من الأسى الذى أوشك أن يجرفها مرة أخرى فى سيل من الدموع ، لكنها تماسكت تماسكا استمدته من دهشتها من بكاء وجدى المفاجىء وهو الذى لم تره باكيا من قبل !! لم تجد سببا مقنعا لبكائه ، لكنها لم تعبأ كثيرا فلم تعد تدرى ماذا يدور حولها ولماذا ؟!

تتابعت دقات قلب مهجة مع وقوف السيارة بالقرب من باب الرحيل . نفس الباب الذى رحل منه يسرى دون أن تودعه . خرجت معهم من السيارة فلم يحمها معطفها الرصاصى الصوفى الثقيل من قشعريرة الصقيع . حمل وجدى حقيبة فى حين حمل حلمى الأخرى . ساروا إلى مكتب شركة الطيران السويسرية حيث أتم وجدى وزن متاعه مع إجراءات السفر الأخرى . دهشت الأم لصمت ابنتها المطبق :

ـــ ماذا جرى ؟! أين مرحك وانطلاقك ؟! إنه لن يغيب عنك غير أيام معدودة !! أم أن هناك سببا آخر ؟!

فوجئت الأم بهما ينطقان بصوت واحد .

ـــ أبداً .. لا يوجد هناك أى سبب آخر !

ثم استدركت مهجة قائلة :

ـــ ساعة الوداع صعبة مهما كانت الغيبة قصيرة !

وجد وجدى نفسه وهو يشارك فى الحوار :

ـــ إنها أول مرة أغيب فيها عن مهجة بعد زواجنا ! لكننى سأتصل بها للطمئنان عليها !

حاولت الأم تقليد زوجها عندما يحسم الأمور :

ـــ إنك لن تتركها وحيدة .. أطال الله فى عمر أبيها .. فبيته مفتوح لها دائما !

لجأ وجدى إلى الصمت والابتسام الخالى من المعنى وسط حركة الراحلين وضجيجهم إلى أن أعلن ميكرفون المطار عن تجمع ركاب الطائرة السويسرية إلى جنيف عند باب الخروج إلى ساحة المطار حيث الأتوبيس فى انتظارهم . مد وجدى يده مبتسما بالسلام على الأم التى لم تتخل عن تحفظها ، فى حين قبله حلمى فى حرارة . ثم انحنى على زوجته فقبل وجنتيها بشفتين لم تتخلصا من تلك الرعشة اللزجة التى لم تحتملها مهجة وإن هزت يده فى حرارة . ابتعد عنهم خلف السور الحديدى إلى أن اختفى فى صالة الجمرك وهو يلوح لهم بطريقة آلية .

عاد ثلاثتهم إلى السيارة التى قادها حلمى وإلى جواره مهجة فى حين قبعت الأم فى المقعد الخلفى . كانت الشمس قد سطعت طاردة لكل جحافل الصقيع والضباب مما أغرى حلمى بالعودة إلى قيادته المجنونة التى تمقتها الأم . لكن مهجة استراحت لها بل تمنت أن تنطلق بهم السيارة إلى عالم جديد تماما ، لم يعرف بعد هذه الدوامات التى تجرف البشر فى دوائرها المفرغة !

ـــ ٢٠ ـــ

مر يوم على رحيل وجدى ولم يتصل . ظلت مهجة مرابطة بجوار التليفون فى شقة أبيها . فقد كان اليوم هو العطلة الأسبوعية للصيدلية . ومع كل دقة من دقات الجرس كانت تسرع لاهثة لكن المتحدث لم يكن وجدى ! هل كان وجدى أسرع استجابة للسم من يسرى ؟! هل أدى الاحتفاظ بالزجاجة كل هذه الشهور إلى تركيز مفعوله ؟! أم أنه فقد مفعوله

تماما ؟! لقد وعدها بالاتصال بها بمجرد وصوله ! هل يمكن أن تكون جنيف قد سحرته وهو الذى يسافر إلى الخارج لأول مرة ؟! هل ؟! هل ؟! هل ؟! لكن ما من إجابة شافية .

لاحظت أمها شحوبها وانزواءها فحاولت اصطحابها إلى النادى لكنها أصرت على الرفض . حتى البيجاما التى نامت بها لم تفكر فى تغييرها ، وتركت شعرها متناثرا متهدلا وهى التى كان المثل يضرب بها فى الجمال والأناقة . لكنها فقدت الرغبة فى عمل أى شىء . كانت تشعر بهبوط ظنته نتيجة طبيعية لأعصابها المحترقة فى الأيام الأخيرة ، ولتوقعها ما سوف تأتى به الأيام القادمة . لكن الإحساس بالهبوط ضاعف من وطأته على أنفاسها فأصابها بضيق متزايد . ذهبت للاسترخاء فى فراشها لعله يقلل من إجهادها الشديد ، لكن ضيق التنفس امتزج بثقل فى الذراع اليسرى التى زحفت داخلها جحافل من النمل القادمة من أعلى الكتف مع بوادر آلام فى الصدر .

قال لها قلبها أشياء مرعبة لكنها لم تجد ما يبررها . ثم عادت الأعراض لتتطابق تماما مع معلوماتها الطبية ! هل يمكن للأزمات النفسية العنيفة أن تؤثر فى القلب بهذه السرعة ؟! إنها لا تزال فى صدر شبابها وعنفوان حيويتها ولم يعرف قلبها الشكوى من أى مرض ، بل إنها لا تذكر أنها أصيبت بأى مرض من قبل باستثناء أمراض الطفولة التقليدية كالحصبة والغدة النكفية . لكن ما تشعر به الآن هو أزمة قلبية حقيقية ولا بد من استدعاء طبيب للتأكد ! هل يمكن أن تنفذ العدالة الإلـٰهية انتقامها بهذه السرعة ؟! لا بد من التأكد من هذه الحقيقة الرهيبة بطريقة أو بأخرى !

كبتت آلامها ونهضت لتناول قرص من أقراص القلب التى تساعد أباها على تفادى الأزمات المحتملة . ثم عادت لتسترخى . وبمجرد مرور

نصف ساعة كانت الأعراض قد زالت إلى حد كبير . هل يمكن أن يكون تأثير القرص تأثيرا سيكلوجيا أم أنه أراح قلبها فعلا ؟ غفت عيناها لكن نومها كان متقطعا كنوم الليلة الماضية . حلمت بوجدى جالسا فى الطائرة إلى جوار يسرى يتبادلان الابتسامات الودية ، وإذ بالطائرة تهتز فى عنف ثم تسقط محترقة متفجرة متناثرة الأشلاء فوق سطح البحر وفى أعماقه . استيقظت على خفقان قلبها الشديد ، لكن مع هدوء دقاته عادت إلى الإغفاء مرة أخرى فرأت نفسها تسير فى صحراء حارقة شاسعة وهى تبحث عن قطرة ماء تبل بها شقوق شفتيها ، لكنها سقطت إعياء بجوار كهف خرجت منه أفعى لتلتف حول صدرها تكاد تمزقه بعضلاتها المرنة .

انتفضت فى فراشها جالسة وقد عاودتها آلام الصدر ، لكنها هذه المرة مصحوبة بعرق غزير برغم برودة فبراير . طلبت من أمها التى أوشكت على الموت هلعا استدعاء الطبيب الذى يباشر علاج أبيها . التف حولها الأب والأم يحيطانها بقلبيهما . لم يصدق الأب نفسه أن تصاب بالقلب فى هذه السن الوردية وهو الذى أصيب به عندما شارف الخمسين ولظروف لا يمكن لمهجة أن تمر بمثلها . ظل يطمئنها ويحتضنها حتى وصول الطبيب الذى ظن أن الأب قد عاودته الأزمة لكنه دهش عندما وجد مهجة مسجاة على فراشها وقد ضاعت حمرتها الجميلة أمام زحف صفرة غريبة جثمت على وجهها . ابتسم الطبيب مطمئنا بأنها لا بد أن تكون قد تناولت عشاء دسما جثم على معدتها ، لكن الأم كانت تعلم جيدا أنها لم تتناول طعاما حقيقيا منذ سفر مجدى .

شرع الطبيب فى الكشف عليها وعيون الوالدين عدسات مركزة على وجهه الذى لم يخف دهشة ممزوجة بتجهم ملحوظ وهو يستمع إلى ما تهمس به السماعة فى أذنيه . سارع الأب إلى سؤاله عن الحال لكن

الطبيب قال دون أن ينظر إليه :سنرى الآن ! ثم واصل الكشف المتفحص الدقيق الذى طال أكثر من اللازم . وعندما انتهى منه ضغطت مهجة على نفسها حتى ارتدت جاكتة البيجاما ، فى حين وضع الطبيب السماعة وجهاز قياس الضغط فى حقيبته ببطءمتعمد وكأنه يبحث عن كلمات مناسبة . تعلقت عيون الأب والأم بفمه الذى قال :

— انصح بنقلها إلى المستشفى حتى تكون تحت الرعاية الدقيقة !

وجد الأب نفسه وهو يتساءل :

— ماذا وجدت يا دكتور ؟!

أجاب وهو ينظر عبر زجاج النافذة المغلقة :

— إنها تمر بأزمة قلبية مفاجئة لا أدرى لها سببا .. سأرسل الآن عربة المستشفى لنقلها !!

لم تستطع الأم التزام الصمت :

— هل الحالة خطيرة يا دكتور ؟!

— الأجهزة التى فى المستشفى كفيلة بتحديد خطورتها .. وتحديد العلاج المناسب ! عن إذنكم !

ذهب الطبيب إلى التليفون ليطلب عربة المستشفى والوالدان يرزحان تحت كابوس لا يستطيعان التخلص منه ، فى حين اجتاحت مهجة خواطر أعنف وأقسى من آلامها الجسدية . لقد وضعت بنفسها السم فى طبق اللحم ليلة سفره وأتى على آخره ، فهل يعقل أن يأكله هو وتصاب هى ؟! لم تعد قادرة على مجرد التفكير ، فآلام الصدر لا تحتمل والعرق لا يريد أن يتوقف فى غرفة بدت وكأنها قد خلت من الهواء تماما . نظرت إلى الثريا المعلقة فى سقف الغرفة وشعرت بحاجة ملحة إلى مناجاة الله . لقد تورطت فى خطايا وأخطاء لا حصر لها ومع ذلك تظل رحمته واسعة

لكل الضالين .

منحها الطبيب قرصا مهدئا وغادر مسرعا لإجراء استعدادات استقبالها فى المستشفى ، فى حين نسى الأب مرض قلبه وأسرع لارتداء ملابسه ثم عاد إلى الجلوس بجوارها كى تذهب أمها لارتداء ما ستخرج به معها . لم تعرف مهجة طول حياتها أن أباها بهذا الحنان المتدفق وهو الذى بدا دائما كقائد فى معركة محتدمة . عادت الأم إلى الغرفة وفى يدها حقيبة كبيرة . كانت عيناها غارقتين فى صلاة صامتة وهى ترى رجفة زوجها على مهجة .

دق جرس التليفون فأسرعت الأم إليه فإذ بجنيف على الطرف الآخر ووجدى يسأل فى لهفة غريبة عن أحوال زوجته وصحتها ، فإذ بالأم تنفجر باكية وتقول له وسط الدموع والتشنجات إنها فى طريقها إلى المستشفى لإصابتها بأزمة قلبية ، فإذ به لا يسأل كيف حدث هذا بل يقول فى حسم كالسيف إنه فى طريقه إلى القاهرة على أول طائرة تغادر جنيف . وتنتهى المكالمة التى سمعت مهجة طرفا منها لدرجة أنها نسيت ما أصابها نتيجة للمسكن الذى منحه لها الطبيب !

إذاً .. لم يصب حتى الآن ؟! ولعله لن يصاب أبدا ؟! ماذا جرى ؟! هل أصبح كل شىء فى هذا العالم مقلوبا رأسا على عقب ؟! لكن ما السبب فيما جرى لها ؟! هل كان مجرد مصادفة أم نتيجة لعمل إجرامى محكم لا يصل إليه عقلها الكليل ؟!

ظلت علامات الاستفهام تتراقص أمام عينيها المجهدتين دون إجابة واحدة حتى وصول عربة المستشفى وصعود ممرضين نقلاهما إليها ، والوالدان يصران على مساعدتهما حتى أوشكا على إسقاطها منهما على درجات السلم . رقدت مهجة على سرير العربة المغلقة فى حين استوى

الأب والأم إلى جوارها ، وعلامات الذهول لا تزال تتراقص مع هزات العربة المنطلقة . هل يمكن أن تتوالى الأحداث بهذه السرعة المرعبة ؟! هل يمكن أن يتحول الصياد إلى فريسة ، والفريسة إلى صياد بهذه البساطة المجنونة ؟ وكيف ؟! ولماذا ؟!

حاولت أن تجمع شتات تفكيرها قبل أن تعاودها الآلام ! تذكرت ذلك الصباح المبكر الذى استيقظ فيه وجدى وهبط ليفتح الصيدلية فى وقت لا يحتمل فيه وجود زبون وفسرت سلوكه بأنه يمارس استمتاعه بالامتلاك لأول مرة فى حياته ! هل كان تفسيرها معقولا ؟! فى ذلك اليوم ظل فى الصيدلية من الثامنة صباحا حتى الحادية عشرة حين هبطت إليها فوجدته خارجا من معمل السموم والمخدرات مجهدا وراضيا عن نفسه فى الوقت نفسه ! لم تكلف نفسها أن تسأله عما كان يفعله فقد كان عقلها مشغولا بأمور أخرى !

تذكرت ليلة العشاء الأخير عندما أطعمها كوب الزبادى بنفسه ملعقة وراء أخرى ! كان سلوكه متناقضا لا يدل على معنى محدد ، لكنه حرص على تمزيق الكوب البلاستيك إلى قطع صغيرة متناثرة وظل يلعب بها حتى أحالها إلى كرات دقيقة للغاية مستخدما أصابعه الحديدية . وعندما طلبت منه النوم مبكرا حتى يستيقظ قبل الفجر ، جمع الكرات الصغيرة بحرص شديد وأخذها معه إلى دورة المياه حيث غسل فمه ويديه وأسنانه ، ولا شك أنه ألقى بالكرات فى المرحاض .

هل يمكن أن يكون قد فعلها ؟! إن ما يجرى لها الآن يذكرها تماما بتفاصيل ما جرى ليسرى وسجله الطبيب الإنجليزى فى التقرير الذى رافق جثته ! لكن إذا كان قد فعلها فعلا ، فقد فعلتها هى أيضا ومع ذلك لم يقع له ما وقع لها ؟! هل يمكن أن يكون السم قد فقد مفعوله بمرور الأيام ؟!

تحاملت على نفسها وسألت أمها التى كانت تجلس إلى جوارها ممسكة بيدها فى حنان دامع :

ـــ كيف كان حال وجدى وهو يسأل عنى ؟!

ـــ عندما أخبرته كان فى غاية اللهفة لدرجة أن كلماته كانت متقطعة وأنفاسه لاهثة .. وهو يقول إنه سيستقل أول طائرة من جنيف إلى القاهرة !

صمتت مهجة وقد صممت على التمسك بإرادة الحياة حتى ترى أنفاسه اللاهثة وقد تحولت إلى أنفاس خامدة ! فإذا كانت تستحق ما هو أبشع من القتل كما أكد لها يسرى أكثر من مرة ، فإن وجدى يستحق ما هو أقسى من نيران الجحيم التى يصطليها أمثاله من الأبالسة . ستقاوم كل الخناجر التى تمزق صدرها وتنهش أنفاسها حتى تحقق شيئا من اثنين : إما أن يلقى أمامها مصير يسرى ومصيرها أو تفشى سره الرهيب ، وإن كانت تفضل الاختيار الأول ، إذ قد يظن من يسمعها أنها سكرات الموت خاصة وأنه سر غير قابل للتصديق أساسا !

أجهدها التفكير الذى ضاعف من ضيق أنفاسها فحاولت الهروب من الأفكار التى تحاصرها كالأشباح مع هزات العربة الرتيبة المعتمة إلى حد ما ، والتى بلغت أخيرا المستشفى الفاخر الذى يقع على نيل المعادى . حملها الممرضان بسريرها إلى المصعد الذى انطلق بها إلى الدور الثالث حيث الغرفة التى حجزت لها . وبمجرد استقرارهم جاء الطبيب المعالج مصحوبا بطبيبين آخرين أجروا كشفا دقيقا ورسما للقلب ، ولم توح نظراتهم المتبادلة ببارقة أمل منعش للأب والأم اللذين ظلا متماسكين قدر إمكانهما حتى استيقظا على صوت الطبيب يعلن ضرورة نقلها إلى غرفة الإنعاش . انهارت الأم جالسة على مقعد خلفها فى حين أمسك الأب بذراع الطبيب سائلا إياه فى ضراعة باكية :

— كيف حدث كل هذا فجأة يا دكتور ؟! وأنا المريض القديم بالقلب لم يجر لى ما جرى لها ؟!

— المهم الآن أن تجتاز الأزمة بسلام ! إن كبار السن لديهم القدرة على تحمل أزمات القلب أفضل من صغار السن !! أما الأسباب التى أدت إلى هذا فليست مشكلتنا فى الوقت الحالى !

ثم أسرع الأطباء الثلاثة خارجين هاربين من احتمالات أحاديث وانفعالات قد تسرق منهم الوقت الذى دخلوا فى سباق معه . وسرعان ما جاءت النقالة التى حملت مهجة إلى غرفة العناية المركزة ، والوالدان يلهثان وراءها لكنهما منعا من الدخول والنيران تلتهم الأحشاء ، والكون كله تحول إلى صحراء لا نهاية لها من الرمال المحرقة ، ولم يتبق لهما سوى أمنية واحدة فى حياتهما الغاربة ، أن يكون ما يحدث الآن مجرد كابوس سوف يستيقظان منه على صباح مشرق جميل .

— ٢١ —

تهادت الطائرة السويسرية فوق أضواء القاهرة المتناثرة سكونا وحركة بين الطرقات والمنازل والحدائق وعلى جانبى النيل الذى يشقها إلى نصفين . لكن وجدى لم يستوعب ما مر أمام عينيه من مناظر يراها لأول مرة . لم يكن يصدق ما يجرى له من أعراض غريبة بدأت معه منذ فجر اليوم وظل يقاومها ظنا منه أنها مجرد اضطرابات نفسية نتيجة للسفر ولما ينتظره بعد السفر ! استعان بإرادته الحديدية حتى يطرد ضيق التنفس الذى هاجمه . كان كل همه إعداد نفسه للقيام بدور الزوج المخلص الذى فقد الدنيا بأسرها عندما فقد رفيقة عمره . فكر فى حركات وكلمات منتقاة بعناية لكن العرق الذى بدأ يتصبب منه فى غزارة شتت أفكاره المتسقة

بعض الشيء خاصة وأن الثلوج كانت قد أحالت جنيف إلى تورته بيضاء لا تسمح بأى عرق أو أية قطرة منه .

كان يمكن أن تكون رحلة العمر لولا هذه المنغصات التى لا يدرى لها سببا فى وقت هو فى أشد الحاجة إلى اتزانه وتماسكه . لم يعد الآن يفكر فيما ينتظره بقدر ما تشغله هذه الآلام التى يتمنى أن تظل كما هى إذا لم تختف تماما . إنها لحظات غريبة لا يعرف لها لوناً ، فيها تمتزج المشاعر المتشابكة فى نسيج معقد يجعل الفصل فيما بينها مستحيلا . لكن لماذا يشعر لأول مرة فى حياته أنه لم يعد سيد موقفه ؟!

دارت الطائرة فوق المطار مرتين وسمع المضيفة الجميلة الشقراء وهى ترد على سؤال جاره لها بأنهم لم يسمح لهم بالهبوط بعد لعدم خلو ممر ! امتزجت خواطره بكآبة داكنة اللون ! ربما كان هناك عطل فى الطائرة يمنعها من الهبوط فى حين تدعى المضيفة هذا حتى لا يسرى الرعب بين الركاب ؟! هل يمكن أن تموت فوق فراشها فى المستشفى فى حين يهوى هو محترقا فى أشلاء متناثرة فوق هذه الصحراء المظلمة المترامية الأطراف حول المطار ؟! كيف حالك الآن يا مهجة ؟! لم أكن لأفعل ما فعلته لولاك أنت !! أنت التى قضيت على يسرى ، وطريق الجريمة يبدأ بخطوة واحدة مثله فى ذلك مثل كل طرق هذا العالم ! كنت أظن أن زواجى منك هو قمة السعادة ونهاية الكفاح الطويل من أجل حبنا ، ولم أكن أعتقد للحظة واحدة أنه سيعرى فوهة بركان من الكراهية السوداء كان كامنا داخلنا دون أن نعيه ! هل يمكن أن يحمل الحب العنيف الملتهب كرهاً بنفس درجته من العنف والالتهاب ؟! ومع ذلك فهو لا يزال يحبها !

شعر بهبوط يجتاحه ويغوص بقلبه حتى أعماقه ، لكنه استرد أنفاسه عندما رأى أضواء المطار تقترب منه أسفل الطائرة التى اندفعت على الممر

لتلمسه فى رشاقة بعجلاتها . تنفس الصعداء لكن صدره لم يستجب لشهيقه وزفيره . هدأت الطائرة من سرعتها فوق الممر الذى طوته فى لحظات ، ثم استدارت كي تدخل فى تؤدة مهيبة إلى ساحة المطار حيث توقفت تماما وإن كانت آلاتها لا تزال تهدر .

نسى وجدى آلامه وهو ينضم إلى طابور الهابطين إلى الأتوبيس الذى حملهم إلى مبنى المطار . انتهت إجراءات الوصول فى لحظات خرج بعدها فى انتظار حقيبة السفر الكبيرة التى سرعان ما جاءت ليحملها فوق العربة الصغيرة التى دفعها بيده إلى خارج المبنى . لم يلحظ أنه لهث لمجرد رفع الحقيبة التى كان يحملها كالريشة ، لكنه لاحظ هذا التطور الجديد عندما رفعها إلى داخل سيارة الأجرة التى أقلته إلى قلب المدينة المثقل بالزحام والضجيج الذى لم يبلغ أذنيه .

انتابه الاختناق ففتح زجاج النافذة مثيرالدهشة السائق الذى رفع ياقة معطفه عاليا كى يحمى رقبته وأذنيه . تسلل العرق تحت ملابسه الثقيلة مرة أخرى ، مع تيار كهربى سرى فى ذراعه اليسرى بعد أن تولد من ألم فى الكتف ، سرعان ما تمدد ليشمل القفص الصدرى كله . تراءت صورة مهجة بوجه ساخر فى ظلام العربة فلدغه خاطر أسود ناعم تمدد داخله كالأفعى . هل يمكن أن تكون مهجة قد فعلت شيئا أدى إلى هذه الأعراض التى تنتابه الآن والتى لم يشعر بمثلها من قبل ؟! إن التوتر النفسى لا يمكن أن يؤدى إلى هذه الأعراض مجتمعة وبتكرار متزايد ومتصاعد ! هل يمكن أن تكون قد حصلت على سر المستحضر المميت وصنعته بنفسها لتدسه فى طعامه قبل سفره خاصة وأنه موقف ليس جديدا عليها ؟ لا .. إنها من الجهل والغباء بحيث لا يمكن أن تصل إلى سر عميق كالبئر مثله ! إذاً .. ما سر الذى يجرى له الآن حتى يكاد أن يزهق روحه لولا

إرادته الحديدية ؟ ! هل يمكن أن يكون السر عند مهجة ؟ ! لقد تعجل ولم يسأل أمها عن المستشفى التى نقلت إليها ؟! إن الثوانى الآن أغلى من الثروة التى كان يمنى بها نفسه !

لم يحتمل منظر طوابير السيارات المكتظة التى تسير كالسلحفاة ! وهو الذى تمنى أن تطوى الطائرة المسافة بين جنيف والقاهرة فى لمح البصر ! ومع ذلك لن يسمح بالرعب كى يستولى عليه ! فلا يعقل أن تتحول معركته من اقتناص الثروة إلى تحدى الآلام إلى مطاردة سر قد لا يكون له وجود ! هل يمكن أن يحارب ثلاث معارك فى آن واحد ؟!

أخيرا خرجت السيارة من عنق الزجاجة . عبرت النيل إلى الزمالك ثم عبرته مرة أخرى وانحرفت يسارا فى طريقها إلى شارع نادى الصيد حيث وجه وجدى السائق إلى البيت وهو يتحامل على نفسه . هبط وجدى وحمل الحقيبة من مؤخرة السيارة ، لكنه عجز عن حمل الحقيبتين بهذه الأنفاس المتقطعة والآلام المبرحة . نظر إلى السائق فى رجاء صامت ملح . كان السائق على وشك أن يقول له إن مهمته لا تتعدى حدود قيادة السيارات ، لكنه عندما رأى عرقه المنهمر وأنفاسه المتحشرجة أسرع فحمل الحقيبتين حتى باب الشقة ، وتمنى له السلامة وهو يتناول أجره . لكن وجدى سرعان ما طلب منه الانتظار لأنه سيحتاج إليه مرة أخرى .

استقل وجدى المصعد حتى بلغ الشقة العليا حيث فتحت له المربية العجوز الباب . ذهلت لمنظره لكنها تماسكت وأخبرته أن الجميع فى مستشفى السلام على نيل المعادى لمرافقة الست مهجة . هبط إلى الشارع حيث السيارة فى انتظاره . انطلقت به إلى المعادى وكان زحام الشوارع قد خف إلى حد كبير ، لكن الآلام تكالبت عليه كالخناجر المسمومة فى كتفه وصدره . ومع ذلك استيقظ المارد داخله وقرر أن

يتحدى لفحات الجحيم نفسها حتى يرى مهجة قبل رحيلها ، وإلا تحول ما يجرى له الآن إلى لغز من ألغاز الكون التى لن تحل أبداً !

كان الطريق المحازى للنيل معتما فى معظم أجزائه باستثناء بعض المصابيح التى لا تزال تقاوم جحافل الظلام الذى أطبق على النيل وأعاده آلاف السنين إلى الوراء حين كان يسعى جاهـدا لشق مجـراه وسط صحارى الظلمات .

توقفت السيارة أمام باب المستشفى . أصبحت آلام وجدى كمارد يعتصر قلبه ويحطم قفصه ، لكنه هبط سائلا موظف الاستعلامات الذى أخبره بأنها فى غرفة الإنعاش . أمسك بكتفه ثم بصدره ظنا منه أن من الممكن صد هذه الهجمات الشرسة وهو فى المصعد . فى الممر وجد حلمى يسير جيئة وذهابا منكس الرأس فأسرع إليه كغريق يتعلق بقشة . تغاضى عن الخناجر المغمدة فى صدره وهو يحتضنه سائلا عن مهجة :

ــ كيف حال مهجة الآن ؟! ماذا جرى لها بالضبط ؟! هبط الخبر علىّ كالصاعقة حتى كاد أن يصعقنى !!

لاحظ حلمى الشحوب والألم المكبوت داخل وجدى ، فشعر أنه لن يحتمل أية صدمة جديدة :

ــ الأطباء أنفسهم فى حيرة لما جرى لها بدون مقدمات وبلا أى مبررات طبية معقولة .. شخصوا النتيجة على أنها أزمة قلبية مفاجئة .. لكنهم لم يعرفوا السبب الذى أدى إلى هذه النتيجة .. وإن كان طبيب الأسرة يؤكد أن ما يجهله الطب أضعاف أضعاف ما يعلمه !

ــ ولماذا أدخلوها غرفة الإنعاش ؟! هل حالتها سيئة لهذه الدرجة ؟

ــ مضى عليها الآن أكثر من أربع وعشريـن ساعـة فى الغرفـة .. وإجابات الأطباء لا تزال فى منتهى الدبلوماسية .. وإن كانوا قد سمحوا

لماما برؤيتها لمدة خمس دقائق منذ نصف ساعة !

ــ وماذا قالت ماما ؟!

ــ هي أقرب إلى الذهول التام !! كل ما قالته وكررته عبارة عن صلاة متناثرة الألفاظ والمعانى كى ينقذ الله ابنتها !

بلغ وجدى وحلمى فى سيرهما التلقائى اللاواعى باب غرفة العناية المركزة حيث جلس الوالدان فى الممر على مقعدين متجاورين فى ذهول أعجزهما عن الإحساس بوصول وجدى إلا بعد أن وجد نفسه يسألهما بصوت أجوف من أعماقه :

ــ كيف حالها الآن ؟!

نظرت إليه الأم بعينين زائغتين دامعتين ثم نكست رأسها على ذراعها مرة أخرى دون أن تنبس ببنت شفة ، فى حين أجاب الأب فى محاولة بطولية للتماسك :

ــ الأطباء بالداخل وسنعرف منهم كل شيء عندما يخرجون !

تحرك وجدى أمام الباب كالأسد فى قفصه ، فى حين ركز حلمى عينيه عليه فوجده يقاوم الانهيار كنخلة على حافة الصحراء لم تعد قادرة على الصمود فى وجه الزوابع الرملية المتجددة والمتصاعدة ، ومع ذلك فإن عينيه لم تتحولا عن الباب حتى فتح وخرج منه طبيب الأسرة وخلفه طبيب آخر . هرع إليه وجدى مكررا السؤال نفسه بطريقة آلية مريرة :

ــ كيف حالها الآن يا دكتور ؟!

ــ أنت زوجها ؟

ــ نعم ..

ــ إنها تقاوم مقاومة الأبطال .. وإذا مرت الليلة بسلام فإنها تكون قد جاوزت مرحلة الخطر !

اقتربت الأم منه فى ضراعة :

ـــ هل هناك أى تحسن ؟!

ـــ هناك تحسن طفيف لكن الخطر لا يزال موجودا .. لكننى متفائل لقدرتها على تجاوز الأربع والعشرين ساعة الماضية !

ترنحت الأم على مقعدها وعيناها إلى السقف :

ـــ يارب !

فى حين اكتفى الأب بهذه المعلومات ، لكن النار لم تهدأ داخل وجدى الذى شعر أنه فقد القدرة تماما على التنفس وهو يخرج كلماته المتسائلة المتوسلة :

ـــ هل يمكننى رؤيتها الآن يا دكتور ؟!

دهش الطبيب للانهيار الذى تجسد فى هيكله :

ـــ لو دخلت إليها بحالتك هذه فإنك ستزيد الأمر سوءا !!

لهج لسانه بكلمات لم يفكر فيها :

ـــ أعدك يا دكتور بالتماسك والوقوف إلى جوارها .. فقد كانت حياتى صمودا مستمرا !

حاول الأب استعادة حزمه القديم :

ـــ لا داعى إذا كان هذا سيزيد من اجهادها !

لم يعر الطبيب الأب التفاتا :

ـــ لا مانع عندى .. بشرط ألا تزيد الزيارة على عشر دقائق !

قاوم وجدى آلامه مقاومة انتحارية :

ـــ وأنا لا أطمع فى أكثر من هذا !

أشار الطبيب إلى الباب :

ـــ تفضل !

فتح وجدى الباب بيد مرتعشة ودخل على أطراف أصابعه . كانت مهجة مسجاة على فراش فوقه خيمة من النايلون الشفاف ، فى حين اتصل أنفها وذراعاها ببعض الأسلاك والخراطيم الدقيقة التى بدت كالأفاعى الرفيعة التى اعتاد أن يلعب بها فى صباه فى أبى رواش . نظر إلى وجهها فوجد عينيها تومضان ببريق غريب عندما رأته . لا يعرف إذا كانت ابتسمت أو عبست ، لكنه قهر ألمه للحظات :

ــ ما هذه المفاجآت المرعبة ؟! كيف حدث هذا ؟!

ــ لا أعرف .. المهم كيف حالك أنت ؟!

قالتها مهجة بوهن شديد وهى تفسح له مكانا داخل الخيمة الشفافة . لكنه تراجع :

ــ اتركى كل شىء على ما هو عليه !! حتى تجتازى الأزمة !!

ــ إن راحتى فى قربك منى !

لم تزل ترفع الخيمة بيدها فأسرع بالدخول إليها . كررت سؤالها :

ــ كيف حالك أنت ؟!

ــ قد لا تصدقيننى إذا قلت لك إننى أمر بآلام أبشع من التى تمرين بها .. فأنت على الأقل فى رعاية الأطباء .. ومع ذلك فقد عبرت جحيم الألم كى أصل إليك وأطمئن عليك !

استرخت أساريرها عندما سرت داخلها راحة من نوع غريب . لم يدفع أحدهما ثمن ما ارتكباها بل اشتركا فيه سويا ، كما اشتركا من قبل فى كل خطوة شرعا فيها منذ لقائهما الأول فى طريقهما إلى المصير الذى يبدو أنه حل فى هذه الغرفة . لاحظ صمتها المطبق فتساءل وهو يمّسك بأصابع من حديد كتفه وصدره :

ــ كيف تصادف وحدث لنا نفس الشىء فى نفس الوقت ؟!

ــ إذا كانت آلامك مبرحة فلماذا لن تطلب من الطبيب أن يكشف عليك للاطمئنان ؟!

ــ كنت مدفوعا إليك بقوة قاهرة أعجزتنى عن التفكير فى أى اعتبار آخر !

ــ حتى صحتك وحياتك ؟!

ــ وهل حياتى فى خطر ؟!

ــ لا أعرف .. لكن إذا كنت تعانى من نفس مرضى .. فلا بد أن تكون فى خطر !

اعتمد على وسادتها بذراعه حتى لا ينهار تحت ضربات الألم القاضية :

ــ لو عرفت كيف حدث لنا هذا وفى الوقت نفسه فإننى سأموت مرتاح البال !

ــ ما حدث أكبر دليل على حبنا !

ــ الحب هو الحياة .. ولا يمكن أن يكون الموت !

ابتسمت مهجة ابتسامة غريبة متسائلة :

ــ ومن قال إننا سنموت الآن ؟!

ــ إننى أحسدك على صفاء بالك فى لحظات كهذه .. سوف يأتى الطبيب ويخرجنى دون أن أعرف السر الكامن وراء كل هذا !

ــ الحياة كلها أسرار .. فماذا يضيرك إذا أضيف إليها سر جديد ؟!

فتح فمه لكن الكلمات حشرت فى حلقه . أوشك على صرخة عظيمة لكنه كبتها بقوة يمكن أن تدك الجبال . تخلت أصابعه عن كتفه وذراعه وسقط إلى جوارها وسط بحيرة من العرق البارد اللزج . صدر من فمه المفتوح شخير واهن سرعان ما تلاشى وخمد تاركا عينيه مفتوحتين .

لم تهتز مهجة بل مدت يدها برغم الخراطيم المشدودة إلى ذراعيها وأغلقت جفنيه . رحل حبيب عمرها . قطع القارات والبحار كى يأتى ويموت إلى جوارها وفى الفراش نفسه . فهل هناك ما يشدها إلى هذه الحياة ؟! إنها لم تستطع العيش مع ذكرى من لم تحبه ، فهل يمكنها الحياة مع ذكرى من عاشت لأجله ؟! صارحها الطبيب بأن هذه الخراطيم هى صلتها الآن بالحياة ، لكنه لا يعلم أن صلة الإنسان بالحياة كامنة فى وشائج غامضة وغريبة لا يمكن إدراكها ! فهى مثلا تشعر الآن بما يسمونه بحلاوة الروح ، فلتستمتع بها طالما أنها لم تذق من قبل سوى مرارة الحياة .

لم تتردد . انتزعت كل الخراطيم وألقت بها بعيدا . نهضت من نومها وأدارت رأس وجدى فوق الوسادة . أطبقت بشفتيها المرتعشتين على شفتيه الباردتين ، وفى لحظة خاطفة تذكرت كل القبلات والأحضان والانصهار فى جسد واحد ساخن ملتهب . استرخت قبضتها على كتفه ، وتراجعت أنفاسها التى تركتها لإغماء كالنوم الثقيل لكنه خال من الهواجس والكوابيس .

ارتمت إلى جواره لكن ذراعها ظلت فوق صدره كما لو كانت متشبثة به . ساد الصمت الأبدى فترة لا يمكن حسابها بالزمن ، لكن نهايتها جاءت مع الطبيب الذى فتح الباب وتقدم خطوات ليتحول إلى تمثال من الذهول والرعب . وجد نفسه أمام الخيمة الشفافة وهو يمد يده ليسبل عينيها . جس نبض وجدى فتأكد أنه رحل معها . لم يعرف ما الذى يمكن القيام به أكثر من هذا فعاد أدراجه فاتحا الباب . هب الوالدان واقفين ومعهما حلمى متسائلا :

ـــ كيف الحال الآن ؟!

نظر إليهم الطبيب بعينين ذاهلتين :

ــ لا أعرف !! ادخلوا لتروا بأنفسكم !

ثم غادر المكان تاركا الذهول وراءه . دخل ثلاثتهم الغرفة . تقدمهما حلمى الذى لم يستطع أن يمنع شهقة انطلقت من حلقه . هجم على الخيمة الشفافة وهز أخته بعنف شديد ثم وجدى بعنف أشد لكن ما من مجيب . سقطت الأم على أرض الغرفة مغشيا عليها ، فى حين نادى الأب على مهجة باكيا :

ــ فديتك يا مهجة .. كيف لعليل القلب مثلى أن يعيش ليـراك تموتين به وأنت فى ريعان شبابك ؟!

دخل الغرفة بعض الممرضين الذين حملوا الأم وضغطوا على الأب حتى خرج مكرها . أما حلمى فتوقف عن نشيجه عند خروجه إلـى الممر . رأى بعض خيوط الفجر تمتد خلف النافذة الزجاجية العريضة على الرغم من أن الوقت لم يكن قد تجاوز منتصف الليل إلا بقليل . سار صوب النافذة وقلبه ينبض بكلمات قصيدة جديدة لم يحسب لها حسابا . كانت الصور غير واضحة والبحور متكسرة لكنه ترك نفسه على سجيتها .

يقولون روميو وجولييت عاشا فى زمن
فاض فيه ينبوع العشاق
ولما حكم عليهما بالموت عطشا
كان للسم مذاق أحلى من المياه
أما زماننا فلم يعد فيه للحب ثمن
بعد أن غاض نهر الحياة
أقول لكم :
يا من شيعتم الحب إلى جنة الأمس البعيد
لن يموت الحب من جديد
مهما خنقته الأشواك
فهو بين الأفلاك
يرسل نوره لليل الحائرين
أبناء هذا الزمن الحزين
الهائمين فى تيه الضائعين

* * *

ليست هذه خطبة عصماء
بل قصيدة حب وصفاء
عشتها فى بيتى
الذى ظننته يوما
وقد قطع شريان الحياة
فأنا شاهد على هذا العصر
وشهداء غرام آخر عصر .

تمت

رقم الإيداع ٤٢٦٥ / ١٩٩٣